

فنونا أدبية

أحمد أبو حنيفة

الفنون الأربعة عند العرب

١١



أحمد أبو حنيفة

فَرْقَانِ الْمَلِكِ

وَقَطْرُهُ فِي الشَّعْرِ الْمَكْرِي

منشورات دارالشرق الجديد - بيروت

الطبعة الاولى

آذار (مارس) ١٩٦٢

فن المديح

إذا كان لعاطفة الإعجاب مشاركة في إثارة الانفعالات التي تبعث على نظم الشعر ، وأهمية في صدق الشعور ، والإخلاص في التعبير عما يعتل في خواطر الشعراء ، فإن هذه العاطفة ، هي في فن المديح أوفر ، وبه ألصق ، حتي ليغدو هذا الفن وليد الإعجاب بمجمله ؛ إن عبّر ، فأنما يعبر عن شعور تجاه فرد من الأفراد ، أو جماعة أو هيئة ، ملك على الشاعر إحساسه ، وأثار في نفسه روح الاكبار والاحترام لذلك الفرد ، أو تلك الجماعة أو الهيئة .

والمديح تعداد لجمل المزايا ، ووصف للشئائل الكريمة ، وإظهار للتقدير العظيم الذي يكنه الشاعر لمن توافرت فيهم تلك المزايا ، وعرفوا بمثل هاتيك الشئائل .

ولعلنا لا نكون مخطئين اذا قلنا : ان الإعجاب بالخير من الصفات ، والفاضل من الأعمال ، والعظيم من الرجال ، خاصة إنسانية تجدها لدى جميع الشعوب في مختلف العصور . بل تجدها

في قرارة كل نفس انسانية مها تباينت نزعاتها ، ومها افترقت
أساليب عيشها ونظمها ، ومثلها العليا ، وغاياتها في الوجود .
لذلك ، لم يكن فن المديح ظاهرة وليدة الأمس القريب ،
ولا هو مقتصر على جيل دون جيل ؛ فمنذ ان وعى الانسان
ذاته ، وأدرك بعضاً من مقومات وجوده ، ثم عرف السبيل الى
تحقيق ما اعتبره غاية له ، منذ ذلك اليوم ، والانسان يقدر
الأعمال العظيمة ، والبطولات الخارقة ، والتصرفات المستحسنة
لديه ، ويثني على أصحابها ، فيتحدث عنهم حديث المجد ،
ويصور مآثرهم تصويراً مثالياً فنياً ، فاذا البطولة أكثر مما هي
عليه في الواقع ، واذا العمل الفاضل أكثر فضيلة وأعظم قدراً .
ولا تظن أن المبالغة في وصف أعمال العظماء ، هي نوع من التجني
على الحقيقة ؛ ولكن التجني هو ان تسند الفضل الى من ليس
عنده ذرة من فضل ، وان تنعت بالعظمة من هو موطن الخسة ،
ومعدن السفه . واننا لنذهب واثقين ، الى أن المبالغة في تعظيم
العظماء وتضخيم المآثر الجليلة هما نوع من رقي الفن ، وتحقيق
لغاياته ، واستجابة لطبيعة العمل الفني . أليس الفن الجميل ،
ارتفاعاً بالجمال الى ما فوق الجمال ، وشداً بالشيء نحو مثله الأعلى ،
وارتساماً لما يصبو اليه الانسان ، أو ما يود أن يتحقق لديه ؟
ناهيك بأن تضخيم العمل العظيم ، وتصوير المحاسن بأحسن
مما هي ، هو فضيلة بحد ذاته من فضائل الشعراء التواقين دائماً
الى السير بالناس نحو الأمثل من الأمور . وإن شاعر المديح ، إذ
يسمو بالصفات التي يمتدحها الى أكثر مما هي ، لا يكون بذلك

قد خالف الأصول الفنية أو خرج على مألوف الذوق وقواعد الجمالية .

والذي ينبغي أن يذكر هنا ، أن فن المديح هو من أقدم الفنون الأدبية ، عرفه البدائيون يوم رفعوا صلواتهم الى أربابهم ، وأثنوا على أهنامهم ، وتغنوا بمجاد آلهتهم . وعرفوه يوم وضعوا أنفسهم تحت وصاية زعمائهم وأبطالهم ، وامتدحوا هؤلاء الأبطال وتحدثوا عن أعمالهم ومآثرهم الكبرى ، وحاولوا أن يعترفوا بما لهم من آلاء وما كان لهم من فضل في نصرة أبناء قومهم ، وتبديد القلق والخوف من نفوسهم والقضاء على المخاطر التي كانت تحدث بهم .

وعرفه المتحضرون أيضاً ، فامتدحوا الملوك والأمراء والعظماء من أهل الشرف والمكانة العليا والمزايا المستحبة ، كما امتدحوا العلماء والمفكرين والمخترعين والأدباء والشعراء ، إما إعجاباً وتقديراً خالصاً من كل غاية شخصية ، واعترافاً مجرداً بما هو جدير بالإكبار ، وإما سعياً وراء مكسب وتقرباً وطلباً للرفعة . وما نظن أن أمة من الأمم قد جهلت هذا الفن الأدبي لا في القديم ولا في الحديث ، وإن اختلفت الأساليب وتباينت الغايات وتعددت الوجوه التي برزت فيها المدائح .

على أن شعر المديح ينضوي أكثر ما ينضوي تحت الغنائية ، وإن كانت هنالك مجالات لا تمنع من أن يتخذ القالب التمثيلي أو القالب الملحمي ، لأنه في أساسه قائم على مشاعر ذاتية ، وعلى مواقف تتأثر بأهواء الفرد وميوله وعواطفه ، وتصور انفعالات

الشاعر الخاصة ، وخطراته الوجدانية .

و«الأنا» في شعر المديح ذات طغيان شديد ، هي التي تمد الشاعر بالصور والاحاسيس ، وتحرك منه الفؤاد ، وتستثير فيه النزعات ، وتوقظ كوامن النفس ، وتحمله على ألوان من السلوك تتفق وما قد تهبأ له .

والمديح بحكم طبيعته ، وبكونه يلقي على مسامع الممدوحين ، واليه يتوجه بالخطاب ، لا بد أن يعتمد ، كما تعتمد أغراض الشعر الغنائي كلها على العناية بالتعبير ، وصقل الألفاظ ، وحسن اختيارها ، والحرص على تألفها ، وتوفير الانسجام بين النغمات التي تصاعد منها ، وإقامة التكافؤ والتوافق بين ما يذهب اليه الشاعر من ناح ، وما يصدر عنه من ناح ثان ، وما يرضي الممدوح من ناح ثالث ، ويرضي الذوق والآداب العامة من ناح رابع .

وإذا كان الشعر الغنائي يفترض في أساسه قصر النفس ، وانصباب الحس والشعور والدفق العاطفي ، في أبيات قليلة منحوتة نحتاً دقيقاً ، بحيث يكون الشاعر قد وعى وعياً كاملاً كل حرف من حروفها ، وتعتمد وضعه في مكانه ، فان شعر المديح هو من أكثر الأغراض الغنائية تطلباً لمثل هذا القصر في النفثات ، ولمثل هذا الوعي ، نظراً الى ضيق الوقت لدى الممدوحين والى سرعة مللهم وسآمتهم ، إذا طال عليهم القول ، ولو كان فيه من الجودة شيء كثير ، ونظراً إلى أن قيمة هذا الشعر عند الممدوح ، تتوقف الى حد بعيد ، على الأثر الآتي الذي يتركه فيه ، مما يحتم على الشاعر الذي يلقيه بين يديه ، أن

يجتهد ما أمكنه في جعل هذا الأثر على أكثر ما يستطيع من الاتساع والعمق والقوة ، سواء توسل بحسن القائه أو بجمال الصور التي ابتدعها ، أو المعاني التي ابتكرها .

والذي لا يجوز اغفاله هنا ، أن المديح يمكن ان يصاغ بقوالب النثر كما يمكن أن يصاغ بقوالب الشعر ، ولعل ما قيل من المنشور في المدائح أكثر مما قيل من منظومها ، ولكن التاريخ لم يحفظ لنا المنشور كما حفظ لنا المدائح المنظومة ، وذلك لأن الشعر بفضل ما فيه من الموسيقى ، ومن الرشاقة ، ومن تقسيم الكلام على أبعاد متساوية ، وقواف وأوزان ، وصور مستحبة ، وخاصة في شعر العرب ، وبفضل ما ذهب اليه هؤلاء العرب من اهتمام بالشعر ، وإقبال عليه ، وجعله تعبيراً عاماً عن حياتهم في أكثر من عصر ، وتخصيص رواة له يحفظونه ويروونه للناس ، ويتناقلونه خلفاً عن سلف ، من دون ما قيل من كلام منشور ، بفضل ذلك كله ، حفظ أكثر الشعر على العموم وأهل أكثر النثر ، فبقيت المدائح المنظومة ، وزال المديح المنشور إلا أقلته .

جاء في «نهاية الأرب» للنويري أن ضرار بن ضمرة الكناني دخل على معاوية بن أبي سفيان ؛ فقال له معاوية : صف لي علياً ، فقال : أو تعفيني ؟ فقال : لا أعفيك .

قال : أما إذ لا بد ، «فانه كان بعيد بعيد المدى ، شديد القوى يقول فصلاً ويحكم عدلاً . يتفجر العلم من جوانبه ، وتنطق الحكمة نواحيه ، يستوحش من الدنيا وزهرتها ، ويسأنس بالليل وظلمته . كان والله عزيز العبرة ، طويل الفكرة ، يقلب كفيه

وَيُخَاطَبُ نَفْسَهُ . يَعْجِبُهُ مِنَ اللِّبَاسِ مَا قَصُرَ وَمِنَ الطَّعَامِ مَا خَشِنَ .
كَانَ وَاللَّهِ كَأَحَدِنَا يَدْنِينَا إِذَا أَتَيْنَاهُ ، وَيُجِيبُنَا إِذَا سَأَلْنَاهُ . وَكَانَ
مَعَ تَقَرُّبِهِ إِلَيْنَا وَقُرْبِهِ مِنَّا ، لَا نَكَلِمُهُ هَيْبَةً لَهُ . فَإِنْ ابْتَسَمَ فَعِنَ
مِثْلَ لَوْلَا مَنْظُومٍ . يَعْظُمُ أَهْلَ الدِّينِ وَيُحِبُّ الْمَسَاكِينَ . لَا يَطْمَعُ
الْقَوِيُّ فِي بَاطِلِهِ ، وَلَا يَيْأَسُ الضَّعِيفُ مِنْ عَدْلِهِ . »

مِنَ الْوَاضِحِ أَنَّ هَذَا الْكَلَامَ ، إِنْ انْتَسَبَ إِلَى فَنٍّ مِنْ فَنُونِ
الْأَدَبِ ، فَإِلَى فَنِّ الْمَدِيحِ ، وَإِنَّهُ لَآيَةٌ فِي الْبَلَاغَةِ وَحَسَنُ التَّعْبِيرِ ،
فِيهِ مِنَ الصَّفَاءِ وَالرَّوْعَةِ وَمَتَانَةِ التَّرْكِيبِ وَصِحَّتِهِ ، وَاجْتِزَازِ
الْعِبَارَةِ ، وَوَضُوحِهَا وَالْعَنَائَةِ بِمَوْسِقَى اللَّفْظَةِ ، وَالذَّوْقِ فِي التَّأْلِيفِ
بَيْنَ أَجْزَاءِ الْكَلَامِ مَا يَجْعَلُ هَذَا الْقَوْلَ يَضَاهِي أَسْمَى مَا بَلَّغْتَ إِلَيْهِ
أَسَالِيبَ التَّعْبِيرِ الْعَرَبِيِّ . نَاهِيكَ بِمَا فِي هَذَا الْمَقْطَعِ مِنْ فِكْرِ رَزِينٍ ،
وَمَنْطِقِ سَلِيمٍ ، وَفَهْمِ صَحِيحٍ لِلرَّجُولَةِ وَلِصِفَاتِ الْحَاكِمِ الصَّالِحِ ،
وَالْإِنْسَانِ الْفَذِّ . كَمَا أَنَّ فِيهِ خَلْقًا نَبِيلًا ، وَتَشْرِيعًا دَقِيقًا لِلْعَلَاقَاتِ
الَّتِي يَنْبَغِي أَنْ تَقُومَ بَيْنَ الْحَاكِمِ وَالْمُحْكُومِ . وَهُوَ مَدِيحٌ مُوَفَّقٌ ،
يَنْطِقُ عَنْ وَاقِعِ الْإِمَامِ عَلِيٍّ ، وَإِنْ جَنَحَ بِهِ نَحْوُ الْمَثَالِيَةِ كَأَنَّهُ
يَبَيِّتُ فِي خَفَايَاهُ ، أَنَّ يَلْقَنَ ابْنَ أَبِي سَفْيَانَ دُرُوسًا فِي الْعَدْلِ
وَالْعِظْمَةِ وَالرَّجُولَةِ وَالتَّقَى .

هَذِهِ عَيِّنَةٌ مِنْ عَيِّنَاتِ الْمَدِيحِ الْمُنْثُورِ . وَنَحْنُ لَا نَرَاهَا أَقْلَ
قِيَمَةٍ مِنَ الْمَدَائِحِ الْمَنْظُومَةِ . بَلْ نَجِدُ فِيهَا فَوْقَ ذَلِكَ مَا يَجْعَلُهَا
مُوَازِيَةً لْخَيْرِ قِصَائِدِ الْمَدِيحِ إِنْ مِنْ حَيْثُ الشَّكْلِ ، أَوْ مِنْ حَيْثُ
الْمَحْتَوَى . وَكَمْ مِنْ رَسُولٍ دَخَلَ عَلَى الْأَمْرَاءِ فَامْتَدَحَهُمُ بِالنَّثْرِ ، وَكَمْ
مِنْ رُؤَسَاءِ الْوُفُودِ قَدْ خَطَبُوا فِي حَضْرَاتِ الْخُلَفَاءِ وَالْمُلُوكِ وَالْعِظَمَاءِ ،

فتناولوهم بالمدح أيضاً . حكى أن رجلاً من ولد يحصب بن مالك يدعى ذافائش ، قد فاخر النعمان بن المنذر ملك الحيرة ذات مرة وفي أثناء ذلك ، دخل على النعمان فاعل بن عمرو بن عدي اللخمي ، فحياه بتحية الملوك ثم قال له :

« أيفاخرك ذو فائش وأنت سائس العرب ، وعروة الحسب والأدب . لأمسك أيمن من يومه ، ولعبدك أكرم من قومه ، ولقفاك أحسن من وجهه ، وليسارك أجود من يمينه ، ولظنك أصدق من يقينه ولوعدك أثلج من رفده ، ولخالك أشرف من جده ، ولنفسك أمتع من جنده ، وليومك أزهر من دهره ، ولفترك أبسط من شبره .

ثم قال :

أخلاق مجدك جلّت ما لها خطر
في البأس والجود بين الحلم والخفر
متوج بالمعالي فوق مفرقه
وفي الوغى ضيغم في صورة القمر
إذا دهى الخطب جلّاه بصارمه

كما يجلتى زمان المحل بالمطر
فتهلل وجه النعمان سروراً ، ثم أمر أن يحشى فوه درّاً ، وكسي أثواب الرضا ، وكانت جباب أطواقها الذهب بقصب الزمرد . ثم قال النعمان هكذا فليمدح الملوك .

في هذا النموذج ، مزج بين الشعر والنثر ، إن دل على شيء فانما يدل على أن كلا الاساويين صالح للمديح ، وعلى أن النثر لم

يكن مستكرهاً لدى الممدوحين ، فها هو النعمان يصرخ :
« هكذا فليمدح الملوكة » واكبر الظن ان عاهل الحيرة ، قد
رنتحه الكلام المنشور اكثر مما رنتحته الابيات المنظومة ، لأن
في القسم النثري جمعاً بين تعظيم الملك والتعريض بخصمه ، في
حين ان الاشعار قد اقتصرت على الاشادة بالنعمان وحده ، وإن
اشتملت على عدد كبير من الفضائل التي نسبتها اليه ، كالمجد والبأس
والجود والحلم والحياء والعلو والشجاعة والمضاء ومالي ذلك .
ولعل من المستحسن أن نقارن بين مديحين ، قبيلاً في رجل
واحد لغرض واحد تقريباً أحدهما منشور كتبه محمد بن مالك
القرطبي ، والثاني منظوم للشاعر أبي تمام . أما الممدوح فهو
الخليفة العباسي المعتصم بالله .

قال محمد بن مالك القرطبي : « ما رأيت وجهاً أسمح ، ولا
حلماً أرجح ولا بشراً أبدي ، ولا كفاً أندي ، ولا غرة أجمل ،
ولا فضيلة أكمل ، ولا خلقاً أصفى ، ولا وعداً أوفى ، ولا ثوباً
أطهر ، ولا سمتاً أوفر ، ولا أصلاً أطيب ، ولا رأياً أصوب ،
ولا لفظاً أعذب ، ولا عرضاً أنقى ولا بناءً أبقى مما خص الله به
ثالث القمرين وسراج الخافقين ، وعماد الثقلين ، المعتصم بالله . »
وقال أبو تمام :

بيمن أبي إسحاق طالت يد العلى	وقامت قناة الدين واشتد كاهله
هو البحر من أي النواحي أتيته	فلجته المعروف والجود ساحله
تعود بسط الكف حتى لو انه	أراد انقباضاً لم تطعه أنامله .
ولو لم يكن في كفه غير نفسه	لجاد بها فليتنق الله سائله .

فمن الواضح أن القرطبي أراد أن يحشد في مديحه عدداً من الفضائل فراح يذكرها واحدة تلو أخرى ، حتى يخرج بصورة للمعتصم متعددة الوجوه ، شاملة للخصائص التي تجعل من المرء رجلاً عظيماً ، وليست هذه هي المرة الأولى التي يعتمد فيها ناثر الى التفصيل والى تعداد الوجوه ، فعقلية الناثرين عقلية تحليلية ، تعتمد الى إظهار الجزئيات ، في حين إن عقلية الشعراء تركيبية ، تعنى بالشمول ، كما فعل أبو تمام حين ركّز كلامه على شيمة الكرم في ممدوحه ، محيطاً بمعناها ومظاهرها ، لينتهي من بعد الى القول ، تنوياً بقمة ما يصل اليه كرم الناس .

ولو لم يكن في كفه غير نفسه لجاد بها فليتنق الله سائله أما ظاهرة السجع في المقطع النثري ، فلا تدخل في شيء ههنا ، إلا من حيث أنها تمثل تياراً إنشائياً عربياً في ذلك العصر ساد الترسل ومختلف انواع الكتابات والخطب . وكذلك قل عن ظاهرتي الإيجاز والتقطع في الجمل ، والتقسيم على أبعاد متساوية ، وغير ذلك مما انطبعت به أساليب النثر في ذلك الزمن .

وبعد ، اذا كانت خصائص المديح لا تقتصر على قالب معين من القوالب الكلامية ولا تنحصر في نطاق واحد ، فان هنالك حقيقة لا يمكن التغاضي عنها وهي ان الشعر ، بقالبه الغنائي المحض ، قد يكون أكثر ملاءمة لهذا الفن لما فيه من نغم مؤثر ، وسهولة تساعده على أن يعلق في الأذهان ؛ ولما فيه من عناية بالالفاظ ونحت لها ، وغلو في الخيال ومبالغة في التصوير وأثر حسن في النفوس .

المديح في الشعر العربي

ليس من المغالاة في شيء أن نقول : إن المديح يعتبر في شعر العرب ، أبرز الفنون الشعرية على الإطلاق ، رافق قيثارة الشعر العربي منذ وجودها الأول ، فكان وترأ مرنان الصوت فيها . وعلى الرغم من التطورات التي طرأت على العملية الشعرية في لسان الضاد ، ومن التبديل الذي أصاب صناعة النظم ومفاهيمه ومقاييسه ، وعلى الرغم من التطور العقلي المتسع الذي عرفه العرب في عصور الازدهار ، فإن المديح لم يغب في يوم من الأيام عن مسرح الشعر ، ولم يكن ليضعف أيضاً ، بل ظل هو الأصل ، وسائر الفنون الشعرية هي الفروع ؛ يقبل عليه الشعراء إقبالهم على شيء لم يكن ليمل ، ويتعهدونه بالعناية ، ويصرفون الى المدائح جل اهتمامهم . وكأنما بات مستقراً في أذهانهم أن الله قد خلق الشاعر ليكون مداحاً ، وأن الشعر هو قبل كل شيء مهنة لحياتها المديح ، وسداها الغزل ، وكل ما دون ذلك ، ألوان ثانوية تسير في ركاب هذين الغرضين ، بل تسير كلها في ركاب غرض واحد هو المدح .

من هنا كان اتجاه الشعراء جميعهم نحو المديح ، يفتحون
اعينهم عليه ويغمضونها عليه ، ويقفون عبقرياتهم على صناعته ،
ويعتبرونه باب الرزق الأوحى وسبيل الغنى . لذلك بات عليك
من العسير ، ان تجد شاعراً عربياً واحداً من العباقرة أو من غير
العباقرة ، لم يصطنع المديح إلا ما ندر ، حتى امتلأت الدواوين
بهذا الفن ، وغدت قصائده تشكل القسم الأوفى في نتاج
الشعراء .

وإذا كان لكل ادب من أداب الأمم ميزة تميز بها ، وفن اهتم
به من دون سائر الفنون ، فإن ميزة الشعر العربي هي المديح ،
حتى ليكاد هذا المديح أن يطغى على كل ما جاء من مدائح لدى
الأمم جمعاء .

وأكبر الظن ، أن الشعر العربي ، لم ينشأ فيه المديح بدافع
التكسب ، بادىء البدء ، ولم يكن المادحون الأولون يتوخون
التزلف والربح ويقصدون الى غاية شخصية يصيبونها بواسطة
شعرهم ؛ وإنما نشأ فن المديح عند العرب إعجاباً بالفضيلة ، وثناء
على صاحبها وحباً بالجليل من الاعمال ، واهتزازاً أمام الأريحية
وأمام الشجاعة وإكباراً للمروءة ، وتقديراً للنبيل ، وحشاً على
كل ما من شأنه أن يسير بالإنسان نحو الأفضل من الاوضاع ، وأن
يحقق ما ترنو اليه المجتمعات من كمال تنشده .

والذى لا مرأى فيه ان طبيعة الحياة العربية في العصر الجاهلي
والنظم المعيشية التي كانت سائدة آنذاك ، هي التي ساعدت على
شروع مثل هذا الفن وعلى انتشاره . وهي التي دفعت بالشعراء

الى اتباع هذا الدرب ، وحملت الممدوحين على أن يقرؤا عيناً
بذلك . وأن يحدوا فيه ما يناسب أهواءهم . فطاب لهم سماع
شعر يمجدهم ويبجلهم ، ويتحدث عن مآتيهم ، ويكبرهم في أعين
الناس ، ويقر بزعامتهم وكفاءاتهم في الاضطلاع بمطالباتها .
والانسان مفطور على حب الاطراء مهما يكن نصيبه من الفهم
والعظمة . ومفطور أيضاً على المجاملة ، وذلك رغبة في معاشرة
الناس ، والتقرب منهم واكتساب ودهم ، كأنه قد وعى في ضميره
أن لا حياة له الا في المجتمع وان الطبيعة قد فرضت عليه فرضاً
أن يعيش مع الناس شاء أم أبى . والعيش مع الناس يقتضي
مرونة وليناً ومعاملة حسنة ، وظرفاً ومودة وتغاضياً عن أشياء
كثيرة ، وتحملاً لبعض التوافه ، ومؤانسة ، ومناصحة ، وعمل
على إرضاء الآخرين واجتذاب ودهم . واذا صح ذلك بالنسبة الى
الأفراد العاديين ، والى أي انسان كان ، فحريّ به ان يكون
صحيحاً مئة بالمئة بالنسبة الى العظماء من الناس ، لما يتمتعون به
من جاه ، ولما يملكونه من سلطة ومن مقدرة على مساعدة
الآخرين ، وعلى حل مشكلاتهم ودفع الضرر عنهم ، والاخذ
بناصرهم إبان ساعات الحرج . بالاضافة الى هذه العوامل العامة
كلها ، عرفت حياة العرب في الصحراء عوامل اخرى خاصة
كانت خير مشجع على انتشار فن المديح ، وهى في مجموعها تعود
الى تأثير البيئة الصحراوية المجدبة ، وما نشأ عنها من مؤسسات
وانظمة بدوية ، اجتماعية وسياسية واقتصادية . فلقد عاش
العرب - قبل الاسلام - في معظمهم داخل اطار الجزيرة ،

وجعلها أرض قاحلة ، قليلة الماء ، قليلة النبات ، قليلة الخير ، مما فرض على البدوي أن يعيش عيشة خشنة قاسية ، وأن يقضي عمره كله في العمل المضني من أجل الحصول على ما يقيم به أود حياته . هذا النظام من العيش ، نفخ المرء بالنفحة الفردية ، وجعله ذاتياً في تصرفاته وفي مشاعره ، شديد اليقظة والالتفات الى كل ما يمسّ فرديته ، مرهف الحساسية ، سريع التأثر بما يمتّ الى شخصه بصلة .

من هنا كان البدوي معتداً بنفسه ، صلفاً بها ، غيوراً على شرفه وعرضه وماله وحماه ، وعلى ضيفه ومن يستجير به ، حريصاً على الظهور أمام الناس بمظهر الرجل المحترم ، والبطل الشجاع والكريم الأبّي ، يسره كثيراً أن يقال عنه إنه عظيم ، وأن يمتدح بين القوم ، ويثنى على خصاله وفعاله . وقد تمثلت هذه النزعة في عدد كبير من فرسان العرب وكرمائهم وسمحاءهم ، منهم حاتم الطائي ، وعنترة بن شداد ، وطرفة ابن العبد ، وهرم بن سنان ، ومهلهل بن ربيعة .. الخ ..

فبسبب هذه الفردية الطاغية ، والأثرة ، وحب الذات ، كان العرب يضحون ، ويغامرون ، ويبذلون الكثير ، ويؤوون الأضياف وينجدون الملهوف حتى يلحقهم الثناء ، ويتحدث عنهم الناس وما كان واحد من الكرماء أو من العظماء يشتهر تبعاً لمديح يقال . فيه حتى يخف الأشراف الى الاتصال به ، ومصاهرته والاعتزاز بالتقرب منه ، وما حكاية الأعشى والحلق عنا ببعيدة .^١

١ - انظر الحكاية في فصل ثل .

أما من حيث النظام الاجتماعي ، فقد كان من نتائج الحياة في الصحراء ، والبدائية في العيش أن تأسس المجتمع على النظام القبلي . هذا النظام يتخذ من القرابة الدموية عصباً له ، فلا يتسع كيان القبيلة الى أبعد مما يتسع له عدد الأفراد الذين ينتمون الى صلب واحد .

والقبيلة وحدة سياسية واجتماعية ، بمعنى أنها تشكل كلاً لا يتجزأ ، يتعاون أبناءؤها الى أبعد حدود التعاون ، ويشتركون معاً في السراء والضراء ، فهم متكافلون في كل حال ، ينصر الواحد منهم أخاه ظالماً كان او مظلوماً .

لا يسألون أخاهم حين يندبهم في النائبات على ما قال برهانا وإذا كان الجميع يسعون في نصرة الفرد من غير أن يسألوه ، فالفرد كذلك يتبع خطى المجموع من غير أن يناقش .
وما انا إلا من غزية إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشد

هذا النظام ، مضافاً الى جذب الصحراء وقلة خيرها ، فرض على العرب حياة الغزو والغارة ، وحياة الحرب الدائمة ، فما من قبيلة إلا وكان لها أعداء تغير عليهم ، ويغيرون عليها ! وما من قبيلة الا وكان لها أحلاف كذلك . وإذا لم تجد قبيلة ما أعداء لها تغزوهم ، فانها تغزو أحلافها ؛ وقد يتغازى أبناءؤها فيما بينهم على حد قول القطامي :

نغير من الضباب على حلال وضبة ، انه من حان حانا
واحيانا على بكر أخينا إذا ما لم نجد إلا أخانا

وفي كل هذه الأحوال ، كان للقبائل شيوخ يدبرون شؤونها ، ويتولون قيادتها ، وتمثيلها بحكمة وشجاعة وعدل وإخلاص . ولم يكن هؤلاء الشيوخ يتوارثون السيادة ، بل كانت القبيلة تحيا حياة ديموقراطية من حيث اختيار رؤسائها ، فلا يبلغ السيادة إلا كل رجل قد جمع في شخصه فضائل قبيلته ، وتميز من الآخرين بحنكته وقوة شخصيته ، ورجحان عقله ، وطول تجربته . لهذا ، لم يكن يتولى السيادة في القبائل ، إلا رجال ناضجون ، يعرفون كيف يسوسون الناس ، وكيف يسهرون على مصلح قبائلهم .

وكانت العرب تأنف من الاستبداد ، وتتعلق بالحرية . لذلك كرهت أن تتوارث المشيخة في قبائلها ، وعملت جاهدة على إبعاد أبناء الرؤساء عن الرئاسة ، فما استثنى من ذلك سوى أفراد قليلين فرضوا عظمتهم على قبائلهم ، لما كانوا يتمتعون به من قوة الشخصية ، فقليل فيهم : إنهم بلغوا السيادة كبرا عن كابر .

نظر الشعراء الى عظمة شيوخهم ، وأعجبهم منهم التسامح ، والحلم ، والحكمة والكرم والمروءة والاباء والشمم والأنفة والعدل والشجاعة والعفة وما الى ذلك من صفات مستحبة ، فكانت تشور قرائحهم لدى كل عمل من الأعمال يقوم به هؤلاء الشيوخ فيمدحونهم . ومما زادهم إقبالا على مديح هؤلاء الزعماء ، ما كان يحدث بين القبائل من تنافس في الشعر وتهاج . كل قبيلة كانت تجرد شاعرها للذود عنها ، وامتداح قوادها وأبطالها وسمحائها ،

والتغني بما آثرهم فكأنما كانت القبيلة تكرم بكرم هؤلاء الأفاضل ،
وتصغر بصغرهم وتعز بعزتهم ، وتذل بذلهم .

والحق ان الشاعر العربي ، لم يكن يهتز ويعتز ببطل قبيلته
إلا عندما يرى منه شيئاً عظيماً ، فكان يتمدحه لا من أجل
التكسب ، بل أكباراً وإجلالاً وإعجاباً بما قام به .

مقابل هذا المديح القبلي ، كان هنالك هجاء للاعداء ،
يتناول معائب القبيلة المهجوة ، وزعماءها وفرسانها وقوادها
ورجالها البارزين ، فيسفهم ويحط من قدرهم .

وليس من المنتظر أن ينفر الافراد المنظورون ، المتمسح
بفضائلهم ، من المديح ، فالواقع أنهم كانوا يسرون به . وكثيراً
ما عملوا على دفع الشعراء الى امتداحهم بشق الوسائل ، فعمدوا
الى المكافآت المادية ثارة ، والمكافآت المعنوية ثارة اخرى . كما
عمدوا الى الظهور بمظاهر العظمة والبطولة وتجاوز العادي والمألوف
من أحوال البشر ليشيروا قرائح الشعراء فينظموا فيهم المدائح .
والذي جعل سادة القوم يتعلقون بالمديح ، ويسعون الى
اجتذابه نحوهم ، ما كان للشعر عند العرب الجاهليين من أهمية ،
وما كان للشعراء من مقام رفيع وكلمة مسموعة ، بحيث اذا قال
الواحد منهم قولاً حفظوه عنه ، ورواه بعضهم لبعض .

وكثيراً ما كانوا يأخذون بقول الشاعر ويصدقون كلامه في
شخص من الاشخاص ، خصوصاً اذا كان عنه بعيد النسب .

والذي يلاحظ كذلك أن بيت المديح ، أو بيت الهجاء ،
اذا جاء على قسط من الروعة في معناه ، ومن الإحكام في سبكه ،

سار على كل لسان وشفة ، وردده الكبار والصغار ، والنساء والرجال ، والعبيد والأحرار ، والقريب والبعيد ، فينجم عن ذلك شهرة يصيبها المادح ويصيبها الممدوح في آن معاً .

وقد يلحق الممدوح من جراء ذلك بطبقة العظماء ، ولو كان هو في الأصل وضعياً كما جرى للمخلق ، ولبنى أنف الناقصة في الجاهلية ، وقد يهجي العظيم بشعر جيد يتناقله الناس ، فيحطّم تحطيماً ، كما فعل جرير بالراعي النميري ، وبنى نمر جميعاً حتى اضطرهم الى تغيير أسمائهم والى الانتساب لغير قبيلتهم بعد ان قال فيها .

أنا البازي المدلّ على نمرٍ أتحّ من السماء لها انصباباً
فلا صلى الإله على نمرٍ ولا سقيت قبورهم السحاباً
ولو وزنت حلوم بني نمرٍ على الميزان ما وزنت ذباباً
فصبراً يا تيوس بني نمرٍ فان الحرب موقدة شهاباً
فغض الطرف انك من نمرٍ فلا كعباً بلغت ولا كلاباً .

هذا ، ولا يجوز أن تغفل عاملاً مهماً من عوامل انتشار المديح في بلاد العرب ، خلال الفترة الجاهلية ، هو المؤسسات الاجتماعية الصحراوية ؛ ونعني بصورة خاصة منها مؤسسة الضيافة والمثار والنجدة . فلقد كان من طبيعة العيش في أرض الجزيرة أن يكثر الفقر ، وأن يتعرض البدو بنوع أخص ، لأزمات اقتصادية بسبب اعتمادهم على الطبيعة وأمطارها ونباتها . لذلك كان المعسر يقصد المومر ، طالباً منه مساعدته .

ولم يكن أصحاب اليسار ليمتنعوا عن الاغاثة ، لا لأنهم
كرماء فحسب ، فقد يكونون مضطرين الى فعل ذلك عملاً
بقانون الصحراء . ولكن لأنهم معرضون أيضاً لأن تحل بهم
الفاقة يوماً ؛ وعند ذلك لا بد لهم من طلاب المعونة من غيرهم .
فما لم تكن لهم أيد على الآخرين فلن يلقوا ما يردّ عنهم خطوب
الزمان . من هنا كانت مؤسسة الضيافة عند العرب ، وكانت
إكبارهم للكرم والكرماء .

هذا ، اذا كانت الفاقة فردية . أما اذا كانت جماعية ،
فالطريقة الوحيدة لردّها هي الغزو الجماعي ، أو الترحال الى
آفاق خصبة المرعى وفيرة الماء .

واذا كان لكل شعب من الشعوب عادة يعرف بها أكثر من
سواه ، فالعرب يعرفون بالضيافة والكرم . أكثر مما يعرف بها
أي شعب في العالم . ولقد غالى قوم منهم في الجود وبسطة الكف
حتى أصبحوا مضرراً للمثل ، وغدت أعمالهم كأنها اساطير ، وما
حاتم الطائي ببعيد وما من عربي يجهل ذكره . ومثله هرم بن
سنان وكعب بن مامة الإيادي الذي بلغ به الكرم مبلغاً جعله
يحجود بنفسه ليؤثر رفيقه بالماء في المفازة .

والمشهور عن حاتم ، أنه كان اذا اشتد البرد ، أمر غلامه بأن
يوقد ناراً في يفاع من الارض لينظر اليها من ضلّ الطريق ، وهو
يقول له :

أوقد فان الليل ليل قرّ والريح يا واقد ريح صرّ
عسى يرى نارك من يمرّ إنّ جَلَبَتْ ضيفاً فأنت حرّ

قالوا : ولم يكن حاتم ليمسك غير سلاحه وفرسه ، ثم جاد بفرسه في سنة أزمة .

قالت النوّار ، امرأة حاتم : «أصابتنا سنة اقشعرت لها الارض واغبرّ افق السماء ، وضّنت المراضع عن أولادها ، لا تبضّ بقطرة ، وايقنّا بالهلاك . فوالله ، اني لفي ليلة صُنْبُرة ، بعيدة ما بين الطرفين ، اذ تضاعى صبيتنا جوعاً : عبدالله وعدي وسفانة ؛ فقام حاتم الى الصبيين ، وقمت الى الصبية فوالله ما سكتوا الا بعد هدأة من الليل ؛ وأقبل يعلّلي ، فعرفت ما يريد ؛ فتناومت ؛ فلما تهوّرت النجوم ، اذا بشيء قد رفع كسر البيت . فقلت : من هذا ؟ فوالى . ثم عاد آخر الليل . فقال حاتم : من هذا ؟ فقالت جارتك فلانة ؛ أتتكَ من عند صبية يتعاون عوى الذئاب ؛ فما وجدت معوّلاً إلاّ عليك أبا عدي ، فقال : أعجلهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت المرأة تحمل اثنين ، ويمشي بجانبها أربعة ، كأنها نعامة حولها رثاها . فقام الى فرسه ، فوجأ لبّته بمدية فخرّ . ثم كشط عن جلده ، ودفع المدية الى المرأة ، وقال : شأنك . فاجتمعنا على اللحم نشوي ونأكل . ثم جعل يأتهم بيتاً بيتاً فيقول : هبوا ، عليكم بالنار والتفّع بثوبه ناحية ينظر اليها . لا والله إن ذاق منه مضغة ، وإنه لأحوج اليه منا ، فأصبحنا ، وما في الأرض إلاّ عظم أو حافر . » وغير خفي ما في هذه القصة من تصوير لمفهوم الجود عند العرب ، حتى ان الواحد منهم ليجعل الناس شركاء له في ماله عند اشتداد الخطوب . إزاء هذي التصرفات ، لم يكن بد من

ظهور الشئ وانتشار فن المديح الذي يخلد ما فيها من أعمال عظيمة .

ومما يلفت النظر في هذه الظاهرة ، أن أجواد العرب كانوا في تنافس وتبار . وكان الواحد منهم حريصاً على أن يظل هو رأس الكرم ، وأن يكون حديث الناس . وكأننا بالمديح ليس سوى اعتراف بجميل قد أوليه الشاعر ، أو أداء لواجب لزمه بعد أن غمرته نعمة الممدوح . جاء في نهاية الأرب ، أن والد حاتم الطائي ، قد بعثه ذات يوم مع الإبل ووهب له جارية وفرساً وفلوهما . فذهب . وبينما هو كذلك ، إذ بصر بركب على الطريق ، فأتاهم ، فقالوا : يا فتى هل من قرى ؟ فقال : تسألونني عن القرى وقد ترون الإبل . وكان الذين بصر بهم : عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم ، والنابغة الذبياني . وكانوا يريدون النعمان . فنحروا لهم ثلاثة من الإبل فقال عبيد : إنما أردنا اللبن ، وكانت تكفينا بكرة أنت كنت لا بد متكلفاً لنا شيئاً . فقال حاتم : قد عرفت . ولكن رأيت وجوهاً مختلفة وألواناً متفرقة . فظننت أن البلد غير واحد ، فأردت أن يذكر كل واحد منكم ما رأى إذا أتى قومه . فقالوا فيه أشعاراً امتدحوه بها وذكروا فضله . فقال حاتم : أردت أن أحسن اليكم فصار لكم الفضل عليّ . واني أعاهد الله أن أضرب عراقيب أبي عن آخرها أو تقدموا إليها فتقسموها . ففعلوا فأصاب كل واحد تسعة وثلاثين بعيراً ، ومضوا على سفرهم إلى النعمان . وان أبا حاتم سمع بما فعل ؛ فقال : أين الإبل ؟ فقال

يا أبت ، طوقتك بها طوق الحمامة مجداً وكرماً لا يزال الرجل يحمل بيت شعر أثني به علينا عوضاً من إبلك . فعندما سمع أبوه ذلك قال : أيايلي فعلت ذلك ؟ قال : نعم . قال : والله لا أساكنك ابداً . فخرج أبوه بأهله ، وترك حاتماً ومعه جاريتته وفرسه وقلوه . قال : فبينما حاتم يوماً نائم ؛ اذ انتبه وحوله مئتي بعير ، تجول وتحطم بعضها بعضاً . فساقها الى قومه ؛ فقالوا يا حاتم أبق على نفسك فقد رزقت مالاً ولا تعودن الى ما كنت فيه من الاسراف . قال : فانها نهب بينكم . فانتهبت .

ثم اقبل ركب من بني أسد ومن قيس يريدون النعمان ، فلقوا حاتماً فقالوا له : إنا تركنا قومنا يثنون عليك خيراً . وقد أرسلوا اليك برسالة ، قال وما هي ؟ فأنشده الأسديون شعراً لعبيد ، وأنشده الليثيون شعراً للنابغة . ثم قالوا : إنا لنستحي ان نسألك شيئاً ، وان لنا حاجة . قال وما هي ؟ قالوا : صاحب لنا راجل . فقال حاتم خذوا فرسي هذه ، فأحملوا عليها صاحبكم فأخذوها ، وربطت الجارية فلوها بثوبها فأفلت فاتبعته الجارية لتردّه فقال حاتم : ما لحقكم من شيء فهو لكم . فذهبوا بالفرس والفلو والجارية . »

إذا أمعنا النظر في هذه القصة - سواء صحت او لم تصح - نستنتج الأمور الآتية :

١ - ان القرى شيء منتشر في بلاد العرب ، وانه مؤسسة

اجتماعية على جانب كبير من خطر الشأن .

٢ - ان الشعراء كانوا يردون الجميل بشعر يمدحون فيه صاحب الجميل .

٣ - ان الشعر كان ذا أهمية كبرى عند العرب ، اذا أثنى على انسان رفعه .

٤ - ان الشعر كان يحفظ ويروى ويتناشده عامة الناس .

٥ - ان الاجواد لم يكونوا يتخرجون من الاشادة بهم ، بل كانوا يسعون الى حسن الاحدوثة ، وكان الواحد منهم يحب ان يستعيز عن ماله ثناء حسناً بين القبائل . وقد اعتبر حاتم ان بيتاً من الشعر يثنى فيه عليه وعلى أبيه لأفضل من مؤسسات الابل .

٦ - ان في مؤسسة الكرم لدى العرب الجاهليين نزعة اشتراكية بحيث لم يكن الواحد منهم يتخرج من أن يجود بكل ما عنده ، فيوزعه على المعوزين اعتباراً منه انهم في حاجة آنية اليه ، وان من الافضل عدم تجميده ، وما دام الانسان يعمل ، أو ما دام ذا أيد على الناس ، فليطمئن الى أنه لن يموت جوعاً . من هنا كان حاتم لا يبقى على شيء عنده ، ولا يخشى أن تغدر به الأيام .

هذا ما يختص بالجود وقرى الاضياف . وهو الى ذلك جزء قليل من سلسلة اعتبارات معنوية كان العرب يقيمون لها وزناً كثيراً ، من أبرز تلك الاعتبارات المروءة وما تشتمل عليه من

شجاعة وحمية ونجدة للمستغيث ، وحماية للجبار ، وذود عن
العرض ، ودفع للعار ، وأخذ بالثأر ، ومنها الحلم ، والصبر على
الشدائد ، ونصرة الحق ، والعفة والاباء ، وغير ذلك مما
كان الشعراء يفعلون به ، ولا سيما اذا كان يخصهم في شيء ،
فيندفعون الى المديح اكباراً لأصحاب الفضائل وإقراراً
بمعروفهم .

المديح مدرسة اخلاقية

إذا كان فن المديح معاناة للفضيلة ، وذكراً للمحاسن ،
وتمجيهاً للبطولة وتغنياً بالمآتي العظام ، فأحرى به أن
يكون مدرسة اخلاقية يتخرج فيها الناشئة على الشجاعة والكرم
والاباء والانفة وحب المجد ، والطموح الى المعالي ، والعدل والحلم
والمروءة وغير ذلك مما يصح أن يمدح به العظماء من رجالات
القوم .

والذي لا ريب فيه ، أن الشعراء الذين يعلقون الامة
الكبرى على مثل هذه الصفات ، لا يمكن أن يكونوا شاذين في
ذلك عن الرأي العام السائد في مجتمعاتهم ؛ ولا يمكنهم أن يمدحوا
امراءاً إلا بما تواطأ الناس على اعتباره فضيلة ومظهراً من مظاهر
العظمة .

والذي لا ريب فيه كذلك ، أن إقدام الشعراء على مثل هذا
العمل يشكل مساهمة فعالة من جانبهم في بلورة المثل العليا
وحض الناس على الاتجاه نحوها ، وتشجيعهم على احتمال كل ما

تتطلبه من عناء وشدة وصبر وحزم . وهم عندما يسمون بمدوحاً ينسبون اليه مثل هذه الفضائل ، إنما يجعلونه مثلاً يحتذى ، ويقدمون الى الآخرين برهاناً محسوساً على صدق ما يذهبون اليه ؛ كما أنهم يدفعون بطريقة غير مباشرة ، ومن باب حب التشبّه بأصحاب العظمة ، كل من في نفسه شيء من طموح وغرام بالفضيلة ، الى ان يعمل على بلوغ مراتب الشرف والمجد ، واللاحاق بركب المشاهير من اهلها .

ناهيك بأن شعر المديح ، حين يلح على ذكر المحاسن ويفتن في تصويرها ، إنما يصور المثل الاعلى في القوم ، ويعرض نماذج من الرجل الكامل الذي تكونت مزاياه بفعل الحياة الاجتماعية والخلقية ، وتبعاً لذوق الناس ، وعاداتهم وتقاليدهم وألوان تفكيرهم ، ومثلهم العليا وغاياتهم في الوجود .

وغير خفي أن لكل عصر نموذجاً من الرجل الذي يعتبره القوم كاملاً . وفي هذا النموذج تتمثل حضارة القوم ومدى رقيهم العقلي والفني والاجتماعي والسياسي والاقتصادي وما الى ذلك من مظاهر العيش ، وبموجبه يربي الناس أبناءهم ، وعلى خطاهم يسرون ليجعلوا منهم أشباهاً لذلك الشخص الذي جمع في ذاته فضائل قومه ، وأضحى مضرب المثل بينهم .

من هنا كان شعر المديح ذا فوائد تاريخية جمّة تضاف الى فوائده الفنية ، فهو علاوة على ما يحتويه من روعة التصوير وجمال التعبير ، ورهافة الحس ، وعمق الشعور ، وسعة الخيال ، وإثارة العواطف وتحريك الوجدان ، وإقامة المشاركة بين الشاعر

وبين من يقرأ شعره أو يسمعه ، فانه يطلعنا على أساليب العيش
لدى القوم ، وعلى عاداتهم وتقاليدهم وآدابهم العامة ، ونظمهم
الاجتماعية والسياسية والاقتصادية ، كما يطلعنا على أخبار العظماء
وأعمالهم ، ويؤرخ للأحداث الكبرى التي اشترك فيها هؤلاء
العظماء ، فهو من هذا القبيل ، صورة للعصر ، يشبع في نفوسنا
توقها الى الاطلاع على ما كان في العصور الغابرة ، ومعرفة أحوال
القوم ، وطرق تفكيرهم ، واتجاهاتهم في الحياة . وسوف يتضح
لنا ذلك حين نعرض لمدائح الشعراء في مختلف العصور ، ونربط
بينها وبين أحداث الحياة .

مَعَايِي الْمَسَدَحِ

جاء في عمدة ابن رشيقي^١ وفي نقد الشعر لقدامة بن جعفر^٢
« ان الفضائل التي يمدح بها الناس من حيث هم ناس ، لا من حيث ما هم
مشترون فيه مع سائر الحيوانات ، على ما عليه أهل الالباب
من الاتفاق في ذلك ، إنما هي أربع : العقل والعفة والعدل
والشجاعة . » ولكل من هذه الفضائل الرئيسية فروع ثانوية
تتفرع عنها .

« فتقابة المعرفة والبيان والسياسة والصدع بالحجة والعلم
والحلم عن سفاهة الجهلة وغير ذلك مما يجري هذا المجرى إنما هي
داخلة في باب العقل .

والقناعة ، وقلة الشهوة وطهارة الإزار ، داخلة في باب العفة .
والحماية والأخذ بالتأثر ، والدفع عن الجار ، والنسكالية في
العدو ، وقتل الأقران والمهابة ، والسير في المهامه والقفار

١ - ص ١٠٤ .

٢ - ص ٣١ .

الموحشة ، وما شاكل هذا ، هو من أقسام الشجاعة .
والسماحة ، والتغابن والانظلام ، والتبرع بالنائل ، والاجابة
للسائل ، وقرى الأضياف ، وما جانس هذه الأشياء ، هي من
أقسام العدل .

هذه هي الفضائل البسيطة ؛ ولقد نظر النقاد في فضائل
أخرى مركبة من هذه ؛ جمعها قدامة في ست ^١ . قال :
« يحدث من تركيب العقل مع الشجاعة ، الصبر على الملهمات
ونوازل الخطوب ، والوفاء بالإيعاد .

وعن تركيب العقل مع السخاء ، البرّ وإنجاز الوعد ، وما
أشبه ذلك وعن تركيب العقل مع العفة ، التزّه والرغبة عن
المسألة ، والاقتصار على أدنى معيشة ، وما أشبه ذلك .
وعن تركيب الشجاعة مع السخاء ، الإتلاف والإخلاف
وما جانس ذلك .

وعن تركيب الشجاعة مع العفة ، إنكار الفواحش ، والغيرة
على الحرم . وعن تركيب السخاء مع العفة ، الاسعاف بالقوت ،
والإيثار على النفس .

وكل واحدة من هذه الفضائل الأربع المتقدم ذكرها ،
وسط بين طرفين مذمومين . « ا . هـ

والذي يرسل نظره في هذه الفضائل ، متفحصاً مصادرها ،
مميزاً أنواعها ، يتبين انها تابعة من صميم الحياة العربية الأصيلة ، وانها

مجموعة ما يميز الشخصية العربية من سواها ، وما كان يشترطه العرب في شيخ القبيلة من مزايا عقلية وخلقية .

أضف انها جميعاً صفات وليدة العصامية والسلوك الشخصي ليس فيها ما يرثه المرء أو ما يكسبه عن غير إرادة منه وعزم واع وسعي مبني على تصميم وتصوّر سابق . هي حقاً مزايا الرجولة الصحيحة ، ومقياس العظمة ، وهي كلها فضائل معنوية ، ترتبط بدخائل النفس ، ولا تتصل بالمظهر الخارجي في كثير أو قليل .

ومن الملاحظ أن الناقد قد استبعد الغنى والجاه من الفضائل التي يصح أن يمتدح بها الانسان ، مهما يكن هذا الغنى متسعاً ، ومهما يكن الجاه عريضاً ؛ كما استبعد نبل الأصل وشرف النسب ، في الوقت الذي كان الناس أثناءه يقيمون وزناً كبيراً لهذه المظاهر . والحق أنها نظرة واعية صادقة الى مقاييس العظمة ، هذه العظمة التي ينبغي أن تستمد من أعمال الانسان ومن ذاته ، لا من أبيه وجده وأمه ، وابناء عشيرته . فما قيمة امرئ كان أهله أشرافاً ، فاضحى هو موطناً للخسة ، ومستقراً للغضاضة ؟ رحم الله أبا الطيب المتنبي حين قال :

ولست بقانع من كل فضل بأن أعزى الى جـد هام
أما كثرة المال فليست بصانعة في يوم من الأيام رجلاً . قد تساعد المرء على كسب الثناء ، ولكنها لن تكون بحمد ذاتها موضوعاً لهذا الثناء . والحري أن يفهم من امتداح الشخص

بكثرة المال ، وسعة الثراء ، تجريد هذا المرء من الفضائل المعنوية ،
وهجاءه في معرض الثناء عليه وما شعر طرفه ببعيد حين
هجا صهره بسعة غناه فقال :

ولا خير فيه غير أن له غنى وأن له كشحاً إذا قام أهضماً
وما قيل عن الغنى وعن المجد الموروث يمكن ان يقال عن
جمال الطلعة ووسامة الخلق . مع أن هنالك شعراء كثيرين تفننوا
بجمال ممدوحهم المادي ، ومحاسن وجوههم . والعبرة في عدم
امتداح الشخص بجمال هيئته ، هي كون الرجولة لا تستمد من
الحلقة بمثل ما تستمد من الخلق . وإن الفضائل المعنوية كثيراً ما
تغطي على الفضائل المادية فتحجبها . وبعد ، فالنعومة والرقّة
وجمال الوجوه صفات أقرب الى الطبيعة النسوية والى التخنث
منها الى الرجولة المكتملة .

وقد يتغاضى عن امتداح الرجل بجلال المظهر ، وهيبته
الشخصية المادية . ولكن لا يجوز أن يتغاضى أبداً عن امتداحه
بما هو من محاسن النساء وخصائص طبيعتهن ، والا انقلب المديح
الى تغزّل ، وفي ذلك ما فيه من سوء نوايا المادحين .

والذي ينبغي ذكره هنا ان الشاعر لا يجوز له امتداح الناس
بما ليس فيهم ، أو على الأصح بما هم مشهورون بنقيضه . وإلا
تحول المديح الى نوع من السخرية والهجاء . ومثل ذلك التجاوز
بالممدوح الى ما هو منه بعيد . قال ابن رشيق : « وإذا كان
الممدوح ملكاً لم يبال الشاعر كيف قال فيه ولا كيف أطنب ؛
وذلك محمود ، وسواه المذموم . وإن كان سوقة فاياك والتجاوز

به خطته ، فإنه من تجاوز خطته ، كان كمن نقصه منها . وكذلك لا يجب ان يقصر عما يستحق ، ولا ان يعطيه صفة غيره ، فيصف الكاتب بالشجاعة ، والقاضي بالحمية والمهابة . . . ولا يجوز أن يمدح الملك ببعض ما يتجه في غيره من الرؤساء وإن كان فضيلة . وذلك مثل قول البحثري يمدح المعتز بالله :

لا العذل يردعه ولا التعنيف عن كرم يصدّه .

فمن ذا يعنف الخليفة على الكرم ويصدّه . هذا بالهجاء أولى منه بالمدح . وعيب على الأخطل قوله في مدح عبد الملك بن مروان :
وقد جعل الله الخلافة منهم لأبيض لا عاري الخوان ولا جذب
وقالوا : لو مدح بها حرسياً لعبد الملك لكان قد قصر به .
والذي يقصد من ذلك أن يراعي المادح احوال الممدوح ، وأن يجعل لكل مقام مقالاً ، فيخيط الأثواب على قدر لابسها ، بحيث لا يكون في كلامه إفراط ولا تفريط .

التكيب بالسدج

ذكرنا في كلامنا السابق أن المديح في شعر العرب إنما نشأ إعجاباً بالفضيلة وثناء على صاحبها . وإن الغاية منه لم تكن في البدء سوى غاية خلقية ، تتمثل في توق الإنسان الى الحياة الفضلى ، وبلوغ ما ارتسمه من مثل أعلى له ، وحث الآخرين على التحلي بما يراه صفات خيرة . واكبر الظن ان المادحين الأولين ، كانوا يرون امتداح العظماء نوعاً من الواجب الأدبي نحوهم ، واعترافاً بفضلهم ، نظراً لما قدموه من خدمات بين ايدي قبائلهم . وإذا لم يكن الأمر كذلك ، فلا بد أن يكون إذاً وليد شعور داخلي من لدن الشاعر بضرورة الاقتراب من الأعمال العظيمة التي يحققها الممدوح ، وذلك من اجل إقامة اتصال بين الشاعر وبينها لأنها تنقصه ، ولأنه يشعر بحاجته الى سد هذا النقص . فمنطقه النفساني يحمله على الاشادة بالفضائل وبأصحابها ، ليظهر امام الناس بأنه هو متصف بها أيضاً ، أو على الأقل ، هو يسعى اليها ويرجو ان يكون له مثلها في يوم من الايام . فالرغبة في التشبه

بالعطاء قد تكون باعثاً على المديح . وهي في هذه الحال ، كما هي في الحال الاولى ، رغبة صادقة تشع على فن المديح ، فتبعث فيه حرارتها ، حتى لا تقتصر على المشاركة بين المادح والممدوح ، بل تتعداهما الى القاريء ايضاً ، وهذا هو سر خلودها أو يكاد . من هنا يتضح لنا ان الباعث على المديح هو في الاساس باعث داخلي معنوي سامي الغاية . ولكن انحراف رهط من الشعراء ، ورهط من الممدوحين قو تحويل بهذا الشعر نحو الكسب ، وجعله نوعاً من التجارة الرخيصة بحيث لعب هؤلاء الاشخاص أخطر دور في تقرير مصير الشعر العربي . قال ابن رشيق : « كانت العرب لا تتكسب بالشعر وانما يصنع احدهم ما يصنعه فكاهاة أو مكافأة عن يد لا يستطيع على اداء حقها الا بالشكر اعظماً لها . » .

فالظاهر من كلام هذا الرجل ، ان المديح إذا غشيه النفع المادي فانما يكون هذا النفع سابقاً له . فهو إذن اعتراف بحميل وليس استدراكاً لاحسان أو ترفلاً أو ملقاً ، فالأريحية هي التي تبعثه ، من غير ان يكون هو باعثاً على أريحية مصطنعة . والظاهر كذلك ، ان قيمة الشعر المادح لم تكن تقدر بالعطية المادية ، وان المديح كان يقال في المواطن التي لا تستطيع الماديات ان تفيها حقها ، فأعظماً للأيدي البيضاء وامعاناً في شكرها وتقديرها ، واعتباراً بأنها أكبر من ان تكافأ بمكافأة مادية ، كان الشاعر العربي يعمد الى امتداح صاحبها من غير ان يبتغي جزاء أو معروفاً . على نحو ما قال السعد بن الضبابة :

سأجزيك الذي دافعت عني وما يجزيك عني غير شكري
ولقد مر بنا كيف أن بيت الشعر كان الناس يأخذون به ،
ويتناقلونه فيرفع قوماً اذا مدحهم ويخفضهم اذا هجأهم . قال
امرؤ القيس يمدح بني تيم قوم المعلى ، الذي احسن اليه وأجاره
حين طلبه المنذر بن ماء السماء لقتله بني ابيه :

أقر حشا امرئ القيس بن حجر بنو تيم مصابيح الظلام
فقل لبني تيم «مصابيح الظلام» منذ ذلك اليوم لبيت امرئ
القيس . اما كيف تحول الشعر الى أداة للتكسب ، فأكبر الظن
أن هذا التحول لم يحدث في فترة وجيزة ، ولم يكن معقولاً ان
ينقلب امره انقلاباً مفاجئاً من معلول الى علة . فبعد ان كان
إعظاماً من أجل الإعظام ، او أعظاماً من أجل الشكر وعرفان
الجميل ، لذّ لجماعة من الممدوحين ان يُقال فيهم ما يرضي كبرياءهم
وما يرضي غرورهم ويستجيب لنزوات الأنانية لديهم . فأعجبوا
بالثناء وطاب لهم ان يسمعه كل يوم فعمدوا الى الاعطيات
يقدمونها للشعراء بكثرة حاثين قرائحهم على قول الشعر والتغني
بأعمال الممدوح .

والراجح عندنا أن الدافع الأبرز الذي حدا بالعظماء الى
استخدام الشعر هو دافع سياسي قبل كل شيء ، يشهد مرة
اخرى على أن السياسة ما داخلت شيئاً الا أفسدته . فرجال
السياسة لهم دائماً من يناصرهم ولهم من يعاديهم . وهم في حرص
شديد على الاحتفاظ بالمناصرين ، وعلى اكتساب المعادين . واذا
لم يتيسر لهم اكتسابهم في جانبهم ، عمدوا الى إيذائهم والكيد

لهم . وفي كل حال يبتغون الظهور امام الجموع بمظاهر العظمة
والكرم والعدل والحكمة والمروءة وما الى ذلك من صفات
يكبرها الانسان ويكبر اصحابها ، غايتهم من ذلك أن تكون لهم
امتيازات على القوم ، وان يُقَرَّ لهم بالزعامة . ولقد شعر زعماء
العرب بأهمية الشعر في ارضهم ، وادركوا إقبال الناس على حفظه
وعلى قرضه ، كما التفتوا الى مكانة الشاعر في قومه ، يوم كانت
الدائد عن قبيلته ، الناطق باسمها ، الممثل لها ، الامين على مصالحها ،
يرعاها ويرعى احلافها بعين ساهرة ، ويعمل على حل مشكلاتها ،
وينوب عنها لدى الملوك وغير الملوك ، ويهاجم اعداءها
مهاجمات عنيفة ، ويحبط اقوالهم ، ويرد حججهم ،
ويكشف عن عيوبهم ليمسحهم في أعين الآخرين . لهذا كان
الشاعر محترم الجانب ، عزيزاً في قومه ، اذا قال قولاً كان لهذا
القول قيمة .

استغلالاً لهذه القيمة اعتمد رجال السياسة على الشعراء في
بلوغ مآربهم ، فسخروهم لها ، واشتروا اقوالهم وضمائرهم ايضاً
بأعطيات جزيلة ، وذاق الشعراء حلاوة العطاء ، فشغلتهم عن
كل شيء آخر ، وهان في اعينهم أن يثني الواحد منهم على امير
من الأمراء ببضعة ابيات من الشعر ليتقاضى لقاءها مبلغاً من
المال يسد به حاجات كثيرة . ويزعم المؤرخون أن أول شاعر
عربي كرّس الشعر للتكسب هو النابغة الذبياني . فابن رشيقي
يهول : « كانت العرب لا تتكسب بالشعر ... حتى نشأ النابغة
الذبياني ، فمدح الملوك ، وقبل الصلة على الشعر ، وخضع للنعمان

ابن المنذر ، وكان قادراً على الامتناع بمن حوله من عشيرته او من سار اليه من ملوك غسان ، فسقطت منزلته ، وتكسب مالا جسيماً حتى كان اكله وشربه في صحاف من الذهب والفضة ، وأوانيهِ من عطاء الملوك .

لن نناقش في هذا المقام ، صاحب كتاب العمدة في رأيه حول خضوع النابغة للملك النعمان ، وسقوط منزلته ، ولكننا نتساءل فقط عما اذا كان النابغة فعلاً هو اول من قبل الصلة من الملوك على الشعر . ألم يكن هنالك شعراء قبل النابغة يحيون في كنف الملوك ??

على انه لا يسعنا الا الاعتراف بأن النابغة الذبياني وهو واحد من شيوخ الشعراء المنظورين الذين كان يقتدى بهم ، قد أثر بمسلكه في الناشئين من اهل الشعر ، فهد لهم سبيل التكسب بعد ان اختطته قوم من الاقدمين . والذي لا ريب فيه ان صغار الشعراء كانوا ينظرون الى النابغة وكأنه المثل الاعلى ، وكانوا يرون بأعينهم اعطيات الملوك له والتجلة التي كان يحاط بها ، فسأل لعابهم على ما رأوه ، وراحوا يعملون جاهدين على بلوغ شيء مما بلغه النابغة . واكبر الظن ان عظمة النابغة هي التي جعلت النقاد يلقون على عاتقه تبعة الانحراف بالشعر نحو التكسب . بل إن هذه التهمة نفسها فيها بعض الدليل على مكانة النابغة واهميته في تاريخ الشعر العربي لانها تجعله استاذاً للأجيال التي عقبته .

ومها يكن من امر ، فان التكسب بالمديح ظهر منذ

الجاهلية . فعرفه زهير ، والمتأسس ، وطرفة ، والأعشى ، والمنخل
اليشكري ، والخطيئة ، ومن لف لفهم ؛ ولكن هؤلاء كانوا
بجملهم على شيء من عفة النفس ، يغلب على طباعهم الأنفة من
السؤال بالشعر ، وقلة التعرض به لما في أيدي الناس ، إلا فيما
لا يزري بقدر ولا مروءة ، يفترق عنهم في ذلك الأعشى الذي قيل
عنه إنه كان صريح السؤال في شعره ، شديد التكسب ، بلغ به
حرصه على الكسب مبلغاً أصبح معه يجاعل الحاجب ، ويدس
الندماء ، كي يذكره لدى النعمان ، ولما جاء الإسلام خفت الشعر
بصورة عامة ، وخصوصاً فن المديح ، اللهم إلا شعر الكافرين
الذين أرادوا إيذاء محمد ، فاضطر محمد إلى الرد عليهم بسلاح مماثل
لسلاحهم ، فكان حسان بن ثابت شاعر النبي يهجو كل من يتعرض
للنبي بأذية ، ويمدح محمداً ورسالته متغنياً بصفاته النبيلة ، مظهراً
محاسن الدين الجديد ، وما فيه من خير للناس وقضاء على الرذيلة .
ولكنها كلمة حق ، تلك التي قالها رسول الله « إذ أرايتم
المداحين فأحثوا في وجوههم التراب » والمقصود أولئك المخادعون
الدجالون الذين كانوا يزورون الحقائق ، ويمدحون الناس بما ليس
فيهم والمرجح أن النبي ، وهو الداعية إلى الصدق والفضيلة
والتواضع وعزة النفس ، واكتساب الرزق بأشرف الطرق ،
وابعدها عن المعصية ، لم يكن يحب المديح المبني على المبالغة
والمداينة أو المقول من أجل التكسب ، ولم يكن يحترم الشعراء
المتكسبين كما أنه لم يكن يرضى من أمثال كعب بن زهير وحسان
ابن ثابت والعباس بن عبد المطلب ، أن يمدحوه إلا بما هو

يتصف به ويدعو الناس إلى اعتناقه من فضائل النفس ، أو بما هو في صالح الدين ، وصالح الرسالة التي نذر محمد نفسه لأدائها .

فالمديح في نظر النبي مقبول ، ما دام يرمي إلى غاية سامية ، وما دام لا ينجم عنه إلا الخير . أما إذا تحول إلى نفاق ، فأقل ما يستحقه المدّاح هو أن يحشى في وجهه التراب .

ولعل منزلة الشاعر المدّاح لم تنتظر ظهور الاسلام حتى تتدهور بل تدهورت قبل ذلك منذ الجاهلية ، وبصورة خاصة في أواخرها حتى أصبح الخطيب أعلى مقاماً من الشاعر ، بعد أن كان الشاعر أرفع مقاماً منه . يقول صاحب العمدة :

« كان الشاعر في مبتدأ الأمر أرفع منزلة من الخطيب ، لحاجتهم إلى الشعر في تخليد المآثر وشدة العارضة وحماية العشيرة ، وتهيبهم عند شاعر غيرهم من القبائل ، فلا يقدم عليهم خوفاً من شاعرهم على نفسه وقبيلته . فلما تكسبوا به ، وجعلوه طعمة ، وتولوا به الأعراض وتناولوها ، صارت الخطابة فوقه . وعلى هذا المنهاج كانوا ، حتى فشت فيهم الضراعة ، وتطعموا أموال الناس ، وجشعوا فخشعوا ، وأطمأنت بهم دار الذلة ، إلا من وقر نفسه وقارها ، وعرف لها مقدارها حتى قبض نقي العرض مصون الوجه » .

إذا قلنا أن الشعر قد خفت في أيام النبي وأيام الراشدين ، فليس معنى ذلك أنه قد زال من الوجود . فالمستعرض لتاريخ الشعر العربي يقع على أشعار غير قليلة نظمت في الأغراض الدينية

وفي الأغراض السياسية وخصوصاً ما كان في مدح الرسول .
وجدير بالذكر أن محمداً كان يعول إلى حد كبير على هذه الأشعار ،
ولعله كان يمد شعراءه ببعض معانيهم ، ولكن هل كان يدفع لهم
الجوائز مقابل ذلك ؟

كلا ، لم يكن أولئك الشعراء ليقولوا شعرهم بدافع التكسب
بل كانوا ينظمونه بدافع من إيمانهم الوثيق ، ويعتبرون أن من
واجبهم إتيان ذلك . والذي لا ريب فيه أن المتكسبين في زمن
النبي وخلفائه الراشدين كانوا محتقرين من القوم ، وأن المفهوم
الشائع بينهم يذهب إلى أن قيمة الشعر هي قيمة معنوية لا يجوز
أن تقدر بالمال . فبيت الشعر لدى عمر بن الخطاب أعظم من أن
توازيه جائزة مالية . يدل ذلك على ذلك ما ذكر عنه من أنه لقي
ذات يوم ابنة الشاعر زهير بن أبي سلمى ، فسأها ، ما فعلت بجلل
هرم بن سنان التي كساها أباك ؟ فقالت : لقد أبلاها الدهر قال :
لكن ما كساه أبوك هرماً لم يبله الدهر .

وفي ذات يوم قال عمر لبعض ولد هرم : أنشدني ما قال
فيكم زهير ، فأنشده فقال : لقد كان يقول فيكم فيحسن . قال :
يا أمير المؤمنين ؛ إنا كنا نعطيه فنجزل . قال عمر : ذهب ما
أعطيتموه وبقي ما أعطاكم .

ومما ينبغي الالتفات إليه ، أن الفرق بعيد بين صلة يصل بها
الاشراف والامراء والحكام ذوي الفضل والعلم والادب ، اعترافاً
بفضلهم وتقديراً لمواهبهم ، وبين جائزة تكون ثمناً لشعر كاذب ،

ليس لها من مبرر سوى أن الشاعر قد مدح صاحب العطية من غير أن يكون بينها أية علاقة من صداقة أو تعاون أو برٍّ أو غير ذلك .

« فعبد الله بن عمر على جلالة ، والحسن البصري ، وعكرمة ، ومالك بن أنس المدني وجملة من اهل العلم غير هؤلاء كانوا يقبلون صلات الملوك . وقد سئل عثمان بن عفان عن مال السلطان فقال : لحم طير زكي . والشعراء في قبولها مال الملوك أعذر من المتورعين وأهل الفتيا لما جرت به العادة قبل الاسلام وبعده . »

ما إن ولّى عهد الراشدين ، حتى عادت الخصومات بين العرب الى شبه ما كانت عليه في الجاهلية . فاذا هنالك احزاب أربعة تتحارب على صعيد السيف وعلى صعيد اللسان . وقد يكون لحروب اللسان أثر اشد خطراً من حروب الدم ، على نحو ما جاء في قول الشاعر :

جراحات السنان لها التئام وما يلتام ما جرح اللسان
وكان لكل حزب شعراء ينطقون باسمه ويمدحون
زعماؤه ، ويروّجون لسياستهم ، ويهجون خصومه ويفندون
مزاعمهم .

بفعل هذه الاحداث تحوّل المديح من جديد الى اداة للتكسب ، وخاصة على ايدي الخلفاء الأمويين وعلى أيدي الشعراء الذين كان البلاط في بلاد الشام يجذبهم اليه بسخائه ودهاء ساكنيه وحنكتهم السياسية ، فينسابون نحوه من بلاد العراق

ومن ارض الجزيرة العربية ، ومن تخوم الشام .

ولقد كان الأمويون يصطنعون شعراء خاصين بهم ، يقفون
شعرهم على السياسة الأموية ويخدمونها بكل اخلاص كالأخطل
التغليبي وأبي العباس الأعمى . وكانوا ايضاً يشترون اشعاراً اضافية
من جرير ومن الفرزدق ومن راعي الإبل ومن لف لفهم من شعراء
العصر ، وذلك كي يتسع امامهم مجال تأليف القلوب ، وإضعاف
المعارضة ، وإشاعة الطمأنينة والاستقرار في نفوس الناس جميعاً .

ولقد طاب ذلك للشعراء فسعوا الى اغتنام الفرص ، وراحوا
يريقون ماء الوجه في سبيل الحصول على الجوائز ؛ ولم يكن بد
حينئذ من ان تؤدي هذه الظواهر الى نتائج سيئة في حياة الأدب
العربي ، فأعقمت عبقریات الشعراء ، وحدثت من انطلاقهم
وقيدت الشعر بقيود لم يستطع ان يتخلص منها طوال ازمنته .
ونشأ عن ذلك ايضاً أن عاش الشعراء أيامهم على هامش الحياة ،
عيشة الطفيليات على جذوع النبات واوراقه ، يرددون معاني
كادت أن تكون رواسم ، ويتجهون جميعاً نحو طريق واحد
ضيق ، يتزاحمون فيه ويتمرغون في غباره واوحاله ، يتسكعون
على ابواب أولي الأمر ، ويستعملون الرياء والكذب والمبالغات
التي تتجاوز حد المعقول ، فتخدش الذوق الفني ، وتضعف
الاخلاص والفضيلة صفعاً قوياً ، وتمسخ مواقف الثناء مهزلة
اخلاقية وانسانية مؤلمة .

وليت الامر قد وقف عند هذا الحد ، ذلك ان رهطاً من

الشعراء قد جعلوا المال غايتهم أينما وجد هذا المال وبأية طريقة اكتسب .

فلم يعد هنالك من تفريق بين أشرف وسوقة . ولم يعد يعني المادحين ان يكون الممدوح فاضلاً او غير فاضل . بل جل مناهم أن يجود عليهم بمال يتفقونه في قضاء حاجتهم ، او يبددونه في المواخير واسواق الخمر ، ومكانس الريب والفسق والفجور ، حتى جاء شعرهم مشبعاً بالرياء والمنافقة فكان لطخة في جبين الشعر العربي .

على ان جماعة من ذوي النفوس الكبيرة ، كانوا يشعرون بغضاضة المديح ، فيأنفون منه كجميل بن معمر وعمر بن أبي ربيعة وابن ميّادة ، والعباس بن الاحنف وآخرين كانوا يترفعون عن امتداح السوق ، ويرون ان الأخذ ممن دون الملوك هو عار شنيع ، فضلاً عن العامة واطراف الناس .

قال ذو الرمة يهجو مروان بن أبي حفصة بأنه قبل الصلة من عامة الناس ويفتخر عليه بأنه لم يكن يقبل الا صلة الملك الاعظم وحده :

عطايا امير المؤمنين ولم تكن مقسمة من هؤلاء وأولئك
وما نلت حتى شبت الا عطية تقوم بها مصرورة في ردائك .
وعلى كل حال ، فان باب التكسب لم يقفل عند هذا الحد ، بل استمر الشعراء يبيعون شعرهم بيعاً رخيصاً ، حتى انزلقوا في مهاوي الخطيئة . وفقد الشعر على ايديهم معانيه الانسانية السامية ، فضلوا سواء السبيل ، وانقلب الامر عندهم في المديح

الى عكس ما كان المديح قد نشأ من اجله ، ولم يعد هذا الشعر مدرسة اخلاقية كما عهدناه من قبل ، يتخرج فيها الناشئة على حب الفضيلة والعدل والتوق الى المثل العليا وانما اصبح وسيلة من وسائل الدعاوة الفارغة ، ومسرحاً للنفاق والخسة وذل النفوس ، وعاملاً على التضليل ومشجعاً للفساد والظلم والفوضى . وبذلك فقد الشاعر مكانته كرجل عبقرى ممتاز ، واصبح مضرِباً للمثل في الصغار والقهاء ودناوة النفس ، كما فقد رسالته الاساسية التي يجب عليه ألاّ يفرط بها مهما يكلفه ذلك . هذه الرسالة هي التي تجعله اميناً على القيم الانسانية حافظاً لها ، يرعى العدالة والفضيلة والحق بعين ساهرة وعزم ثابت ، وحيثما رأى اعوجاجاً شعر ان من واجبه تقويمه ، وحيثما لمح ظلماً نصّب نفسه عدواً له ولصاحبه ، نصيراً لكل ما هو خير مستحب . ولعل التدهور الخلقى في العصر العباسية الاخيرة . والانحطاط السياسى والاقتصادى والاجتماعى ، والركود الفكرى وجمود القرائح ، هي التي ساعدت على مثل هذا التدهور في شعر المديح ، وحولته الى مبالغات فجّة مستكرهة ، الى كذب صريح واضح ، وخداع يرضى به الممدوح تغطية لخداعه الاكبر والجرائم وآثامه التي كان يرتكبها .

انظر الى ابن هانئ كيف يمتدح الخليفة الفاطمي الذي سمي نفسه معزّاً لدين الله ، فبالغ في مديحه حتى جاوز الحدود المقبولة ، واضفى عليه من صفات النبي محمد ، بل من صفات الله ايضاً ما هو عنه بعيد كل البعد ، بحيث خدش الذوق ، وجرح عزّة النفس ،

وتجنى على الانسانية .

ما شئت لا ما شئت الاقدار فاحكم فأنت الواحد القهار
وكأنما أنت النبي محمد وكأنما أنصارك الانصار
انت الذي كانت تبشرنا به في كتبها الأحبار والابخار
أما ترى في هذا المديح مسخاً للمعز؟ كل شيء جاوز حده،
انقلب الى ضده . لو قارن الناس بين ما كان عليه المعز في واقعه
وبين ما نعت به ابن هانئ، لسخروا من الرجلين معاً . هم يسخرون
من الممدوح لانه يرضى ان يقال فيه مثل ذلك ، ويزداد تهكمهم
به لو رأوه يصدق ما قيل فيه ، وهناك الطامة الكبرى .

واما المادح فيسخرون منه ويذمونـه لدناءته وصغر نفسه
وتذللـه امام الممدوح ، كما يسخرون منه لخداعه وتجنّيه على
المكارم . وهل يضحى غريباً بعد ذلك ان يتحكم المعز برقاب
الناس ، وان ينفذ مآربه الدنيئة على حسابهم وعلى حساب كرامتهم
ما دامت رعيته تفعل فعل ابن هانئ . ألا رحمك الله يا ابا الطيب
لقولك الصادق الحكيم :

من يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميت إسلام .
فلو كان ابو العتاهية مثلاً ذا نفس أبية ؛ لما قال للفضل بن
الربيع يوم أهداه ابو العتاهية نعلاً ، وارفقها بشعر مادح :
نعل بعثت بها لتلبسها تمشي بها قدم الى المجد
لو كان يصلح ان أشركها خدي جعلت شراكها خدي
ترى هل يرضى إنسان كريم بأن يجعل من خده نعلاً
لممدوح ؟

تباً لهؤلاء الشعراء المتزلفين ، المتذللين . تباً لهم حين يكذبون
وحين يصدقون ، وحين يسألون فيلحفون ويصرّحون بطلب
المال ؛ كما فعل بشار بن برد إذ قال .

فان تعطني أفرغ عليك مدائحي وان تأب لم يضرب على سداد
ركابي على حرف وقلبي مشيع ومالي بأرض الباخلين بلاد .
فهو يمدح الأمير اذا أغدق الأمير عليه عطاءه ، أما اذا أقصر
عن صلته ، فانه تاركه الى بلاد أخرى يجد فيها من يمن عليه .
ولكن ماذا نقول لبشار سوى المثل العربي الشائع : « العتب على
النظر » ، على الرغم من هذا فان بشاراً يظل ذا كرامة أمام
الزعفراني الذي عبد ممدوحه وسجد له وجعله صنماً في
آن معاً .

انت الذي دنت بالسجود له حتى لقد قيل ربه صنم
انه حقاً لأمر مضحك مبك ، وشر المصيبة ما يضحك . أية
قيمة فنية أدبية لمديح الصابىء في عضد الدولة :

صل يا ذا العلا لرَبِّك وانحر كل ضد وشائي لك أبتر
أنت أعلى من أن تكون أضماً حيك قروما من الجمال تعفر
بل قروماً من الملوك ذوي السؤ دد تيجانها أمامك تنثر .
كلما خر ساجداً لك رأس منهم قال سيفك : الله اكبر .
أليس تجنيئاً على القرآن ، وكفراً بمعطياته ان يجعل عضد
الدولة مكان النبي محمد - أليس تدنيساً للقرآن ان يستغل في
المديح الكاذب .

وما قولك بهذه الأضحيات من الملوك ، يسجدون للمدوح
فتفصل رؤوسهم عن أجسادهم باسم الله الاكبر ؟ كذب
وتدجيل وتغاض عن سيئات الحكام والامراء والقواد ، أين
نقد الملوك ، ومراقبة سياستهم وأعمالهم ؟ أين المشعل الذي
وضع أمانة في عنق الشاعر ليشعله ويهدي به الأمة الى سواء
السبيل ؟ كل هذا بيع في سوق الكساد لقاء مبلغ من
المال لو وزن مقابل حرف لشال عليه الحرف
في الميزان .

على أن رهطاً من الشعراء العباقرة حفظوا لنفوسهم
كرامتها ، وللخلق النبيل قدره . فلم يتبذلوا مثل هذا
التبذل بل نظموا شعراً هو رغم تكسبهم به شريف ، عظيم
القيمة ، فيه تفنن وإبداع وذوق وفيه معان انسانية وشمول ،
ورقي بصناعة الحرف العربي . وهذا الشعر هو الذي نعلق عليه
الاهمية في دراستنا لفن المديح .

المديح في الجاهلية

كان المديح في العصر الجاهلي واحداً من الفنون الشعرية البارزة ، من غير أن يغطي على سائر الفنون ، وكان ذا ألوان متعددة ، تتراوح بين مدح الشاعر لزعماء قبيلته ، وفرسانها وسمحاتها ، ومدحه لمن يصطنعه ويحسن اليه سواء أمدّه بمال أو ساعده في مهمة ، أو أكرمه ، أو من يصطنع قبيلته ، فينصرها على أعدائها ، أو يهبها أرضاً أو ماء ، أو يصلح بينها وبين أعدائها فيحققن دماء شبانها ، أو يؤوي قوماً منها ، ويحميهم ويؤمن لهم ما هم اليه محتاجون . ومن مدائح الجاهلية ، ما نظمه أصحابه في تمجيد الأحلاف الذين كانت قبائلهم تحرص على إبقاء التحالف بينها وبينهم ، وذلك دعماً لقوتها ، وتهديداً لأعدائها ، أو تأمينا لجوانب هذه القبائل التي لو تصدع التحالف بينها وبينهم لجعلهم ذلك أعداء لها ولجرت عليها الأذية . وقد يوجه المديح الى ملك من الملوك أو زعيم من الزعماء ، رجاء اكتسابه في جانب قبيلة الشاعر ، أو رجاء الافراج عن جماعة من قبيلته قبض عليهم لذنب قد أتوه ، فكان المديح شفاعاة لهم .

وقد ينظم الشاعر أبياتاً يمدح بها رجلاً غريباً عنه إذا رأى
في هذا الرجل ما هو جدير بالأكبار كعمل من أعمال المروءة ،
أو سخاء أو شجاعة أو حكمة أو غير ذلك .

على أن هنالك جانباً من جوانب المديح قد أصبح أبرز من
سواه في الجاهلية ، هو مدح الملوك من غسانة ومناذرة ومدح
أجواد العرب . والذي غلب على هذا الجانب هو طابع التكسب .
فكان الشعراء يقصدون البلاطات ويتصلون بأربابها فيمتدحونهم
ويعظمونهم ويجعلونهم نهاية الكرم ونهاية النبل ونهاية النخوة
والشجاعة ، كما يتحدثون عن سعة جاههم وشمول سلطتهم وعظمة
أعمالهم وقوة جيوشهم ، وعن عدلهم وإذلالهم للاعداء وعن
عيشهم المرفه وإخلاقهم الفاضلة وسعي الجموع في خدمتهم
واكتساب رضاهم .

وإذا كان الممدوح غير ملك ، وصفوه بما يتناسب ومقامه
من غير أن يهملوا صفتين أساسيتين هما خلاصة المثل العليا في
الجاهلية : المروءة والكرم .

وأكبر الظن أن المديح المتكسب جاء في الجاهلية نتيجة
لتطور أصاب المجتمع الجاهلي ، وعلاقة الفرد بالآخرين في داخل
قبيلته وفي خارجها .

ففي المرحلة التي كانت الروح القبلية فيها طاغية ، والتصرف
الجماعي أبرز من التصرفات الفردية ، وتعلق الفرد بأبناء قبيلته
ككل لا يتجزأ ، هو أساس في حياة هذا الفرد ، كان المديح
بعيداً عن التكسب . لأن التكسب عمل ذاتي صرف ، والذاتية

في مثل هذه الظروف ضعيفة جداً بحيث يسخر كل ما لدى الفرد من إمكان في خدمة المجموع ، ولهذا كان مجمل ما يملكه الفرد من طاقة شعرية ، تستنفده القبيلة ويقال في صالحها .

ومع الزمن ، كانت حياة الجاهليين تتطور ، وكان الشعور القبلي يضعف شيئاً فشيئاً بفعل التحضر الذي شوهدت بوادره في مدن الحجاز ومدن اليمن ، وفي العراق وفي الشام حيث أخذ العربي يتهاى حياة أوسع نطاقاً من حياة القبيلة ، وأكثر اهتماماً بالفرد كفرد وأرحب مجالاً للذاتية . من هنا سمح للشاعر بأن يتحدث باسمه الخاص ، وبأن يصرف جانباً من اهتمامه الى حياته الشخصية من غير أن ينسى قبيلته نسياناً كلياً .

ولعل المرحلة الوسطى بين الشعور الجماعي والشعور الفردي ، أو بين المديح في خدمة القبيلة والمديح في خدمة الذات الفردية ، إنما يكمن في فن الفخر الذي هو بدء الشعور بالذات ، فمن الفخر بالقبيلة انتقل الشاعر الى الفخر بنفسه ثم الى استخدام المديح في أغراض نفسه .

وقد يكون تطّلب الفرد المزيد من الحرية قد ساعده على بعض التفلسف من قيود قبيلته . فوجد الشعراء أنفسهم أمام فن قد أتقنوه من قبل يوم كرسوه لخدمة القبيلة ، فلماذا لا يستخدمونه الآن في خدمة ذواتهم ؟

ولقد استغلّوا المثل العليا في مجتمعهم والفضائل التي كانت يقدسها هذا المجتمع والنظام الذي يسوده ، والعادات والتقاليد الشائعة فيه ، وظروف الامراء والملوك ، لكي يكسبوا بشعرهم

مالاً وفيراً ، وزادهم في ذلك ما كانت عليه الاحوال السياسية في بلاد العرب .

كيف كانت تلك الاحوال السياسية ؟

من يرجع الى التاريخ الجاهلي ، يجد أن الارض العربية كانت تعرف آنذاك اربع دول هي : دولة اللخمين في الحيرة ، ودولة الغساسنة في الشام ، ودولة كندة في الحجاز ، ودولة التباينة في اليمن .

أما الدولة اليمنية ، فكانت تمثل نزعة العرب الجنوبيين خير تمثيل ، من حيث عداؤها للأحباش ، ونقمتها على احتلالهم لجزء غير قليل من أرضها ، وكان من أبرزهم حسان تبع وذويزن وابنه الملك سيف . ولقد كانت الدولة البيزنطية تعطف على الحبش وتساعدهم على البقاء في بلاد اليمن . كما كانت دولة الفرس تعطف على التباينة وتساعدهم على طرد الأحباش من أرضهم . ولكن الشعراء الذين حفظت آثارهم لم يكونوا يترددون كثيراً على بلاط اليمن وهم بعد في معظمهم من أهالي الشمال ، بحيث يندر أن تجد بينهم من يمتدح التباينة في شعره . ولعل السبب في ذلك عائد الى اختلاف اللهجة بين الشماليين والجنوبيين من ناح ، والى العصبية القحطانية والعدنانية التي كانت منتشرة بين العرب آنذاك من ناح ثان .

وأما دولة كندة ، فكانت تبسط نفوذها على عدد من القبائل الضاربة في بطاح نجد . ملوكها من اليمنيين الذين نزحوا الى

الحجاز بعد خراب السدّ .

ولقد كانت هذه الدولة مستقلة بالمعنى الصحيح ، لا تخضع
لنفوذ فارس ولا لنفوذ بيزنطي ولا لنفوذ حبشي . غير انها كانت
ضعيفة بسبب فقرها وبسبب ما كانت تلاقه من عصيان القبائل
التي تحكمها ، حتى ثارت قبيلة أسد وطوّحت بملكها حجر
الكندي ، والد امريء القيس الشاعر بتحريض من المناذرة .

وعبثاً حاول امرؤ القيس أن يستعيد ملك أبيه لأن القبائل قد
تكتلت ضده ، ولم يكن تكتّلها نتيجة لتحريض اللخمين
فحسب ، بل كانت نتيجة للحكم السيئ الذي كان للملوك كندة فيهم .
ولما نفّض يديه من المساعدات العربية اتجه نظره نحو القسطنطينية
بإرشاد من الغساسنة علّ ملك بيزنطة يساعده على استرجاع
ملكه لما كان للبيزنطيين من رغبة في اكتساب النفوذ بأرض العرب ،
وسعى الى الاستيلاء عليها . ولكن امرأ القيس مات من غير ان
يحقق امنيته .

أما شعراء المديح ، فلم يشتهر عنهم أنهم مدحوا ملوك كندة ،
ولم يصلنا كثير من الأخبار عن هؤلاء الملوك ، إما لأن حكمهم لم
يطل ، وإما لأن القبائل كانت تكرههم ، وإما لفقرهم وضعف
نفوذهم ، او لعداء المناذرة لهم ، وجمعهم الشعراء في بلاط الحيرة
لإبعادهم عن كل من يخاصمهم .

والحق ، أن الدولة التي كان لها التأثير الاعظم في توجيه
الشعر العربي نحو المديح إنما هي دولة المناذرة . هذه الدولة
أنشأها الفرس في العراق لغرضين :

أولها حماية الممتلكات الفارسية في العراق من البدو القاطنين على تخومها ، ومن البيزنطيين المستقرين في بلاد الشام ؛ وثانيهما أن تكون هذه الدولة منطلقاً للتوسع الفارسي في بلاد العرب ، وعاملاً على توثيق العلاقات بين العرب والفرس . وقد جعلوا ملوكها من بني لخم ، وهم عرب يمانية قدموا العراق بعد خراب السد فاستقروا فيه . ولكثرة ما شاع بينهم اسم المنذر ، سموه بالمناذرة .

كان هؤلاء الملوك بطبيعة مراكزهم ، وبفعل الغاية التي من أجلها انشئت دولتهم ، يرغبون في توثيق علاقاتهم بجميع العرب ؛ ويودّون لو يحكمّون في جميع الشؤون العربية . لذلك حرصوا على حسن معاملة القبائل ، وخصوصاً تلك التي كانت تضرب بجوارها في شمالي شرقي الجزيرة . وقد عرفت دولتهم ملوكاً اقتبسوا نظام الحياة الفارسية وحافظوا على بعض التقاليد العربية المستحسنة ، وأحبوا أن يظهروا بمظهر الملوك العظام ، فعمدوا إلى الاغراق في الترف والوجاهة ، فكان ذلك يبهز أعين الشعراء .

ومما زاد هؤلاء الشعراء اتجاههم نحو بلاد الحيرة ما سار عليه ملوكها من مسائل العظمية . فحشدوا الشعراء في بلاطاتهم ، ووظفوا لهم معاشات ضخمة ، فشجعوا بذلك الشعر عامة ، وخصوصاً شعر المديح المتكسب . ولقد عرف بلاطهم المنخل الليشكري ، والمثقب العبيدي ، والنابغة الذبياني والأعشى ، والمتأس ، وطرفة بن العبد ، وغيرهم كثيرين ممن لو أردنا تسميتهم

لاقتضى ذلك منا زمنا .

وكأنما التفت هؤلاء الملوك الى أهمية الشعر في حياة العرب ،
فحاولوا أن يسخروه لأغراضهم ، فاذا الثناء ينثال عليهم من كل
ناح ، واذا الاشعار التي تمدحهم تطير على ألسنة الناس . وهذا ما
كان يهتمّ ملوك الحيرة حتى يدخلوا قلوب العرب ، وحتى يصبحوا
الزعماء الحقيقيين لهذه الأمة .

وإذا علمنا أن الشاعر في ذلك العصر كان ممثّل قومه ،
والناطق بلسانهم ، أدركنا أهمية وجود الشعراء في بلاط الحيرة ،
ومدى ما تذهب اليه سياسة اللخمين . فرضا الشاعر عن الممدوح ،
يعني رضا القبيلة كلها عنه . ورضا الممدوح عن الشاعر يعني رضاه
عن القبيلة كلها .

وكأننا بالملوك المناذرة كانوا في قرارات أنفسهم يودون
التخلص من حكم فارس ، وإن ظاهروهم في العلن . لذلك سعوا
الى تركيز ملكهم على أسس من القوة الشعبية العربية حتى يكون
لهم في يوم من الأيام إمكان انتهاء الفرصة اذا سنحت ليستقلوا
عن العجم .

والذي نذهب اليه ، ان فكرة جمع الشمل العربي في عصر
الجاهلية ، كانت واردة في أذهان بعض الساسة . وان الشعراء
الجاهليين الذين كانوا يتخذون المديح حرفة ، هم في الواقع الدعاة
الى شيء من ذلك . وإذا شئت فقل ، هم الذين تبلورت في تفكيرهم
هذه الظاهرة بعض التبلور . وما إجماعهم كلهم على مزايا واحدة
كانت تعتبر جديرة بالمديح والاكبار سوى دليل على بدء في

توحيد المثل العليا والاهداف والقيم المستحبة تحت ظل الملوك
اللخميين . أما الغساسنة ، فملوك دولة في الشام ، انشأها الروم
البيزنطيون مزاحمة للفرس ، ولنفس الغاية التي انشئت من اجلها
دولة المناذرة . واذا كان الغساسنة قد احتفظوا أكثر من ملوك
الحيرة بمظاهر البداوة ، إلا انهم في السياسة البيزنطية كانوا أكثر
انغماساً من اولئك في السياسة الفارسية . على ان الشعراء كانوا
يقصدونهم كما كانوا يقصدون المناذرة وان بدا اهتمام الغساسنة
بالشعر أضعف واحتفالهم بالشعراء أقل .

وكان بينهم وبين الحيرة عداوة تبعا للعداوة بين الفرس
والروم فظهرت آثار هذه العداوة في تنافس المملكتين ، كل
منها تريد ان تحشد الشعراء عندها ، لاستخدامهم في التغني بها
وبفضائلها .

والحق يقال ؛ ان الذي كان يمدح به المناذرة كان الغساسنة
يمدحون به ايضاً . اللهم الا ان مديح ملوك الشام كان كثير
الحديث عن شجاعتهم وفروسيتهم وخوضهم للمعارك ، والانتصار
على الاعداء مما يدل على انهم كانوا محاربين ، وكانوا يذهبون
بأنفسهم الى ساحات الوغى . وفيما يلي ، سنعرض الواناً من مديح
الجاهلية مبينين اتجاهاته وقيمه وارتباطه باحداث العصر
والبيئة لنخلص من بعد الى استنتاج المثل الأعلى للعربي في ذلك
الزمن .

أ - في خدمة القبيلة :

تحت هذا العنوان ، سنعرض لأشعار في المدح نظمها أصحابها خدمة لقبائلهم دون ان يكون لهم مآرب شخصية خاصة . هذا المديح كان بمثابة واجب يضطلع به الشاعر لانه كان لسان قبيلته وحامي حماها ، وممثلها في المحافل . وكثيراً ما كان يلقي هذا الشعر على أثر جميل يسديه بعضهم الى أبناء القبيلة التي ينتسب الشاعر اليها ، فيعمد هذا الى شكره والثناء عليه اعترافاً بما بدر منه واكباراً للعمل الفاضل .

مثل هذا جرى لدريد بن الصمة . ودريد « هو سيد بني جشم بن بكر ، وفارسهم وقائدهم . وكان مظفراً ميمون النقيبة . غزا نحو مئة غزاة ما أخفق في واحدة منها » (عن ابي عبيدة) . ومفاد الخبر ، ان أنس بن مدركة الحثمي وأحلافه من بني الحارث بن كعب قد أغاروا على قوم دريد فأسروا وسبوا واستاقوا اموالاً لاحد جيران دريد وخلفوا كل ذلك بنجران ، وعجز دريد عن رد ذلك بالقوة فلجأ الى السؤال ومدح القوم مدحاً حملهم على رد السبايا وفك الاسرى وإعادة الأموال . ومما قاله في ذلك :

بني الديّانِ رُدُّوا مالَ جاري
وأُسرَى في كُبُولِهِمُ الثَّقَالِ .
ورُدُّوا السَّبْيَ إن شِئْتُمْ بِمَنِّ
وَإن شِئْتُمْ مُفَادَةً بِمَالِ .

فَأَنْتُمْ أَهْلُ عَائِدَةٍ وَفَضْلٍ
وَأَيْدٍ فِي مَوَاهِبِكُمْ طَوَالِ
مَتَى مَا تَمْنَعُوا شَيْئًا فَلَيْسَتْ
حَبَائِلُ أَخْذِهِ غَيْرَ السُّؤَالِ
وَحَرْبُكُمْ بَنِي الدِّيَّانِ حَرْبٌ
يَغْصُ الْمَرْءُ مِنْهَا بِالزُّلَالِ
وَجَارُكُمْ بَنِي الدِّيَّانِ بَسْلٌ
وَجَارُكُمْ يُعَادُ مَعَ الْعِيَالِ
بَنِي الدِّيَّانِ إِنَّ بَنِي زِيَادٍ
هُمْ أَهْلُ التَّكْرُمِ وَالْفَسْعَالِ
فَأُولَئِكَ بَنِي الدِّيَّانِ خَيْرٌ
أَقْرَبُ لَكُمْ بِهِ أُخْرَى اللَّيَالِي .

وغير خفي ان في هذه الأبيات شيئاً من ذل السؤال، ولكنه
ليس ذلاً فردياً ولا هو عيب من عيوب شيخ القبيلة دريد بن
الصمة . هو نوع من المهادنة والمسالمة وحل الامور بالحسنى .
ولرب قائل يقول عن دريد : « مرغم أخاك لا بطل » .
فلو استطاع استرداد ما خسرتة قبيلته بالقوة لما تأخر عن ذلك .
وماذا يهنا من ذاك ؟

أو ليس من الحكمة والدهاء أن يعمد بطل كدريد بن الصمة
الى هذه الطريقة ليخدم قبيلته التي جعلت نفسها تحت
وصايته ؟

إننا نرى في هذا الشعر نفساً هادئة وتفكيراً مرناً ، وتصرفاً

يؤدي الى كسب الاصدقاء ، ولو فهم من ظاهره إقرار من
الشاعر بعجز قبيلته عن استرداد ما سلبته . وفيه أيضاً صورة
للفضائل التي كانت تقدر آذاك كالتكريم والشجاعة وقوة
المراس ، ونكاية الاعداء ، وحماية الجار ، والذود عن العرض .
والثابت أن دريداً قد نجح في سؤاله ، فرد اليه أسرى قبيلته
واموالها ، وزيد أيضاً من عطاء يزيد بن عبدالمدان سيد نجران .
فقال في ذلك يمدحه :

مَدَحْتُ زَيْدَ بْنَ عَبْدِ الْمُدَّانِ
فَأَكْرَمَ بِهِ مِنْ قَتَى مُتَدَحٍ
إِذَا الْمَدَحُ زَانَ قَتَى مَعْشَرٍ
فَإِنَّ زَيْدَ يَزِينُ الْمَدَحَ
حَمَلْتُ بِهِ دُونَ أَصْحَابِهِ
فَأَوْزَى زِنَادِي لِمَا قَدَحُ
وَرَدَّ النِّسَاءَ بِأَطْهَارِهَا
وَلَوْ كَانَتْ غَيْرُ زَيْدٍ فَفَضَحُ
وَفَكَ الرَّجَالَ وَكُلُّ أَمْرِي
إِذَا أَصْلَحَ اللَّهُ يَوْمًا صَلُحُ
وَقُلْتُ لَهُ بَعْدَ عَتَقِ النِّسَاءِ
وَفَكَ الرَّجَالَ وَرَدَّ اللَّبَقُحُ
أَجْرُ لِي فَوَارِسَ مِنْ عَامِرٍ
فَأَكْرَمَ بِنَفْحَتِهِ إِذَا نَفَحُ

وَمَا زِلْتُ أَعْرِفُ فِي وَجْهِهِ
 بِوَقْتِ السُّؤَالِ ظُهُورَ الْفَرَحِ
 رَأَيْتُ أَبَا النَّضْرِ فِي مَذْجَحٍ
 بِمَنْزِلَةِ الْفَجْرِ حِينَ اتَّضَحَ
 إِذَا قَارَعُوا عَنْهُ لَمْ يَقْرَعُوا
 وَإِنْ قَدَّمُوهُ لِكَبْشٍ نَطَحَ
 وَإِنْ حَضَرَ النَّاسُ لَمْ يُخْزِهِمْ
 وَأَنْ وَازَنُوهُ بِقِرْنٍ نَجَحَ
 فَذَلِكَ فَتَاهَا وَذُو فَضْلَهَا
 وَأَنْ كَاتِبُهَا بِفِجَارٍ نَبَحَ

هذا مديح غير متكسب . ولكنه شكر على ماثرة . الغاية
 منه جماعية وليست فردية . فيه يعدد الشاعر النعم التي أولاه
 إياها الممدوح ، والمكارم التي يتصف بها . وهو شعر سهل تبدو
 عليه مظاهر الطبعية ، ومظاهر السذاجة لا سذاجة المادح وحده ،
 ولا سذاجة الممدوح معه فحسب ، بل سذاجة ، المجتمع الذي
 يضمها معاً . فالحياة الفطرية تشيع فيها مثل هذه العادات وتشيع
 فيها المقايضة حتى فيما يتعلق بالمعنويات .

٢ - في خدمة السلام :

كان المجتمع الجاهلي يعيش في نظام القبيلة . وكانت القبائل
 تتحارب فيما بينها لأسباب مختلفة ، اقتصادية في معظمها او
 او سياسية او غير ذلك . وقد كانت الحروب تطول حتى تبلغ

عشرات السنين أحياناً ، فتأتى على الحرث والنسل ولا يجني أصحابها منى سوى الولايات منها تكن مكاسبهم بعد ذلك .

من هذه الحروب ، كانت حرب داحس والغبراء ، او حرب السباق . وقعت بين قبيلتي عبس وذبيان ، وتعقدت حتى شملت غيرهما من القبائل ، كبني أسد ، وبني تميم ، وبني عامر . في هذه الحرب سقط قتلى كثيرون وانتهبت اموال وانتهكت حرمان ودام الخصام نحواً من اربعين سنة . وفي كل سنة كان الضحايا يتزايدون ، وشدة النزاع تتسع ، حتى قدر لهذه الحرب من وضع حدّاً لها وأصلح بين الطرفين المتخاصمين ، وتحمل الديات كلها في شخصي هرم بن سنان والحارث بن عوف .

وكان زهير على ما يبدو واحداً من السعاة لقطع دابر الحرب ولعله اشترك في المفاوضات التي جرت بين الطرفين . وهذا ما يدل على رجحان عقله وميله الى الاصلاح وحبه للخير العام . وبعد ان تمّ الصلح بين المتحاربين ، نظم زهير قصيدة مطولة عدّت من المعلقات السبع ؛ وفيها تحدث عن الحرب ومساوئها ، وعن المصلحين وما بدر منها من تكريم وتضحية واستعداد لفض المنازعات ، حرصاً على السلام ورغبة في دوام العلاقات حسنة بين الجميع ، وحقناً للدماء ، وإشفاقاً على أولئك الذين كان الضرر يمسهم بسبب الحرب القائمة — ومما جاء في شعر زهير قوله :

سَعَى سَاعِيَا غَيْظِ بَنٍ مُرَّةً بَعْدَ مَا
تَبَزَّلَ مَا بَيْنَ الْعَشِيرَةِ بِالدَّمِ^١
فَأَقْسَمْتُ بِالْبَيْتِ الَّذِي طَافَ حَوْلَهُ
رِجَالُ بَنِي نَوْهٍ مِنْ قُرَيْشٍ وَجُرْهُمْ^٢
عَيْنًا لَنِعْمَ السَّيِّدَانِ وَجِدْتُمَا
عَلَى كُلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمُبْرَمٍ^٣
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذُبْيَانًا بَعْدَ مَا
تَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنْشَمٍ^٤
وَقَدْ قُلْتُمَا إِنْ نَدْرِكِ السَّلَامَ وَإِسْعَا
بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الْأَمْرِ نَسْلَمُ^٥
فَأَصْبَحْتُمَا مِنْهَا عَلَى خَيْرِ مَوْطِنٍ
بَعِيدَيْنِ فِيهَا عَنْ عُقُوقٍ وَمَأْثَمٍ^٦

١ - الساعيان بالصلح هما هرم بن سنان والحرث بن عوف من بني غيظ بن مرة من ذبيان ، تبزّل : تشقق وتقطع . بالدم : بالقتال الدامي .

٢ - البيت : الكعبة (بيت الله) . بنو جرهم : ولاية الكعبة قبل قريش .

٣ - السحيل : الخيط الضعيف ، والمبرم : الخيط المتين . وهما استعارتان للضعف والقوة .

٤ - تفانوا : افنى بعضهم بعضاً في القتال ، منشم : امرأة عطارة كانت تبيع الحناء المدقوق ليوضع للموتى . والمثل يقال عند الحديث عن الموتى الكثيرين .

٥ - نسلم من الأمر : ابي من الحرب الخطيرة .

٦ - العقوق : مقابلة معروف الوالدين والاقارب بالجزاء السيئ .

عَظِيمِينَ فِي عُليَا مَعَدٍّ - هَدَيْتُمَا -
وَمَنْ يَسْتَبِيحُ كَنْزًا مِنْ الْمَجْدِ يَعْظُمُ^١
تُعَفَّى الْكُلُومُ بِالْمِثْنِ فَأَصْبَحَتْ
يُنَجِّمُهَا مَنْ لَيْسَ فِيهَا بِمُجْرِمٍ^٢
يُنَجِّمُهَا قَوْمٌ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ
وَلَمْ يُهَرِّقُوا بَيْنَهُمْ مِلءَ مِحْجَمٍ^٣
فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ
مَغَانِمُ شَتَّى مِنْ إِفَالٍ مُزَنَّمٍ^٤
أَلَا أُبْلِغُ الْأَحْلَافَ عَنِّي رِسَالَةً
وَذُبْيَانًا هَلْ أَقْسَمْتُمْ كُلٌّ مُقْسَمٍ^٥
فَلَا تَكْتُمَنَّ اللَّهُ مَا فِي صُدُورِكُمْ
لِيَخْفَى وَمَهْمَا يُكْتَمَ اللَّهُ يَعْلَمُ .

-
- ١ - عليا معدّ : زعماءها وهم بنو قريش - هديتا : دعاء لها بالهداية .
استباح الأمر : وجده مباحاً .
٢ - تعفى : تمحى . الكلوم : الجروح - بالمثلين : اي بالثلاث من الابل -
ينجمها : يدفعها بالتقسيط .
٣ - المحجم : كأس من الزجاج يستخدمه الحجاج في عمله .
٤ - التلاد : المال الموروث . الإفال : جمع أفيّل وهو الفصيل الصغير .
المزّنم : الذي قد زنه صاحبه اي جعل في إذنه علامة تدل على انه من كرام
الآبل .
٥ - الاحلاف : هم بنو أسد وبنو غطفان وبنو تميم وطيء . والمقسم :
اليمين المعظمة .

وَمَا الْحَرْبُ إِلَّا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ^١
وَمَا هُوَ عَنْهَا بِالْحَدِيثِ الْمَرْجَمِ^٢
مَتَى تَبْعَثُوهَا تَبْعَثُوهَا ذَمِيمَةً^٣
وَتَضُرُّ إِذَا ضُرِّيْتُمْوهَا فَتَضُرَّكُمْ^٤
لِعَمْرُكَ مَا جَرَّتْ عَلَيْهِمْ رِمَاهُكُمْ^٥
دَمَ ابْنِ نَهْيِكَ أَوْ مَثِيلِ الْمُثَلَّمِ^٦
وَلَا شَارَكَتْ فِي الْمَوْتِ فِي دَمٍ تُوفَّلُ^٧
وَلَا وَهَبَ مِنْهُمْ وَلَا ابْنِ الْخَزَمِ^٨
فَكُلًّا أَرَاهُمْ أَصْبَحُوا يَعْقِلُونَهُمْ^٩
عِلَالَةَ أَلْفٍ بَعْدَ أَلْفٍ مُصْتَمِ^{١٠}
تُسَاقُ إِلَى قَوْمٍ لِقَوْمٍ غَرَامَةٌ^{١١}
صَحِيحَاتِ مَالِ طَالَعَاتِ بِمَخْزَمِ^{١٢}
لَحْيٍ حِلَالٍ يَعْصِمُ النَّاسَ أَمْرُهُمْ^{١٣}
إِذَا طَرَقَتْ إِحْدَى اللَّيَالِي بِمُعْظَمِ^{١٤}
كِرَامٍ فَلَاذُو الضَّغْنِ يُدْرِكُ وَتَرَهُ^{١٥}
وَلَا الْجَارِمُ الْجَانِي عَلَيْهِمْ بِمُسْلَمِ^{١٦}

-
- ١ - ذقتهم : عرفتكم وجربتهم . والمرجم : المظنون من غير تحقيق .
٢ - تضري الحرب : تقوى وتشتد . تضرم : تشتعل نيرانها .
٣ - ٤ - الاساء هنا لأشخاص من بني عبس قتلهم الديبانيون واحلافهم .
٥ - يعقلونهم : يدفعون دياتهم . العلالة : عطية بعد عطية . المصتم :
الكامل التام .
٦ - المخرم : الثنية في الجبل .
٧ - الوتر : الثأر - الجارم : صاحب الجرم - المذنب .

مديح رزين رصين ، يسوقه شيخ حكيم من شيوخ الجاهلية ،
فلا يبالغ فيه ولا يتجنى على الحقيقة ولا على الفضيلة . لم يكن زهير
ابن أبي سلمى ليمدح امرءاً الا بما فيه ولم يكن من اولئك الشعراء
الذين يبذلون ماء المحيا رغبة في النوال ، وان كان قد تكسب
بعض التكسب . ففي الأبيات التي بين ايدينا ، ترى الضمير
الحي يحدو بزهير الى امتداح هرم بن سنان والحارث بن عوف ،
وكلاهما من ذبيان ، لانها كانا وسيطي خير ، وكانا من أكثر الناس
مروءة وأشدهم غيرة على السلام وأجزلهم أريحية وتمسكاً بالمثل
العليا وحباً بالناس . حقنا دماء القوم ، وجادا بالكثير فكانا
نعم السيدان في أحوال الرخاء واحوال الشدة . تداركا عبساً
وذبيان بعد معارك قد طال أمدها ، وفناء دب في القبيلتين من
جراء عدااء استحكم بينهما وتعقد ، فسعيوا الى السلام بمال ومعروف
درّاً عليها حسن الاحدوثة في القوم ، وزاداهما شرفاً ورفعة .

وكأنهما قد استباحا من المجد كنزاً حين شفيا كلوم الموتورين
من القبيلتين . والذي يزيد الرجلين عظمة أنها تحملا الديات من
غير أن تكون لهما أدنى مشاركة في إراقة الدماء أو أيّ تشجيع
عليها . ولكثرة ما قدماه من إبل عقال أضحى لدى الفئتين قطعان
وفيرة جداً من كرائم النوق والإفال المزمن .

وانها لالتفاتة بليغة جداً تلوح من زهير الى قبيلتي عبس
وذبيان ، فيلومهما على ما بدر منهما من سيىء الفعل ، ويحاول ان
يذكرهما بويلات الحرب وشرورها والشؤم الذي تجره على
المتحاربين ، بحيث تتضاعف المصائب ، ويزداد عدد الأشقياء

وتضعف المحبة ويسود الخصام .

ثم يعود زهير ليلح في امتداح الرجلين ، مظهراً ما لديهما من كرم ، وما هما عليه من حسن العريكة ، وعزة النفس ، وحماية الجار ، ومساعدة كل محتاج ، وحب الحياة الصافية الخالية من كل مكدر .

وما نظن ان زهيراً كان في هذا المديح ذا مآرب شخصية . وما نظنه قد تكسب هذه المرة ، وان كان هرم قد أكرم زهيراً كثيراً ، حتى لقد قيل عنه : انه أقسم ألا يسلم عليه زهير مرة ، إلا وصله بصرة من مال . ويقال : إن زهيراً كان كلما رأى هرمًا في مجلس قال : السلام عليكم جميعاً ما عدا هرمًا ، وخيركم استثنيت .

والحق ان زهيراً قد نظم في هرم باقة من أجود الشعر ، خلدت هرمًا مدى الدهر . ولذا ، لم يكن اعتباطاً قول عمر بن الخطاب حين سأل ابنة زهير : ماذا فعلت بجلل هرم التي كساها أباك ؟ فقالت لقد أبلاها الدهر . قال :

ولكن ما كساه أبوك هرمًا لم يبله الدهر .

ولعل من المفيد ان نورد في هذا المقام ما قاله زهير في قوم

هرم :

لَوْ كَانَ يَقْعُدُ فَوْقَ النَّجْمِ مِنْ كَرَمٍ

قَوْمٌ بِأَوْلِهِمْ أَوْ بِمَجْدِهِمْ قَعَدُوا

قَوْمٌ سَنَانُ أَبْوهِمْ حِينَ تَنْسِبُهُمْ

طَائِبُوا وَطَابَ مِنَ الْأَوْلَادِ مَا وَلَدُوا

إِنْسٌ إِذَا أَمِنُوا رَجَنٌ إِذَا فَزِعُوا
 مُرَزَّأُونٌ بِهَالِيلٍ إِذَا جَهِدُوا
 مُعَسَّدُونَ عَلَى مَا كَانَ مِنْ نِعَمٍ
 لَا يَنْزِعُ اللَّهُ عَنْهُمْ مَا لَهُ حُسِدُوا
 وَمَا قَالَهُ فِي هَرَمِ نَفْسِهِ :

بَلْ أَذْكَرَنَّ خَيْرَ قَيْسٍ كُلِّهَا حَسِبًا
 وَخَيْرَهَا نَائِلًا وَخَيْرَهَا خُلُقًا ١
 الْقَائِدَ الْخَيْلَ مِنْكَوِبًا دَوَابِرُهَا
 قَدْ أَحْكَمَتِ حِكْمَاتِ الْقِدِّ وَالْأَبْقَا ٢
 غَزَتِ سَمَاءًا فَآبَتِ ضَمْرًا خُدُجًا
 مِنْ بَعْدِ مَا حَنَبُوهَا بُدْنًا عُقُقًا ٣
 حَقٌّ يَوْوَبٌ بِهَا عُوجًا مُعْطَلَةٌ
 تَشْكُو الدَّوَابِرَ وَالْأَنْسَاءَ وَالصَّفَقَا ٤

١ - النائل : العطاء .

٢ - الدوابر : القسم الخلفي من الخوافر - أحكمت : شدت الحركات على أنوفها - القد : الجلد . والأبق : القنب ،

٣ - الخدج : التي تلد أبناءها قبل تمام مدة الحمل ، لشدة التعب . حنبوها : قادوها . البدن : الضخام العقق : التي ظهر حملها .

٤ - يؤولب : يرجع . العوج : التي هزلت فأعوج جسدها . معطلة : بلا أرسان : الصفق : جمع صفاق وهو جلد يلي البطن دون الجلد الأعلى .

يَطْلُبُ شَأَوْ أَمْرَيْنِ قَدَّمَاهُ حَسَنًا
 نَالَا الْمُلُوكَ وَبَزَا هَذِهِ السُّوقَا ١
 هُوَ الْجَوَادُ فَإِنْ يَلْحَقَ بِشَأَوْهَمَا
 عَلَى تَكَالِيفِهِ فَمِثْلُهُ لِحِقَا ٢
 أَوْ يَسْبِقَاهُ عَلَى مَا كَانَ مِنْ مَهَلٍ
 فَمِثْلُ مَا قَدَّمَاهُ مِنْ صَالِحٍ سَبَقَا
 أَغْرُ أَبْيَضُ فَيَاضُ 'يَفْكُكُ' عَنْ
 أَيْدِي الْعُنَاةِ وَعَنْ أَعْنَاقِهَا الرِّبَقَا ٣
 وَذَلِكَ أَحْزَمُهُمْ رَأْيًا إِذَا نَبَأُ
 مِنَ الْحَوَادِثِ غَادَى النَّاسَ أَوْ طَرَقَا
 فَضَلَ الْجِيَادِ عَلَى الْخَيْلِ الْبَطَاءِ فَلَا
 يُعْطَى بِذَلِكَ مَمْنُونًا وَلَا تَزِرُ قَاهُ
 قَدْ جَعَلَ الْمُبْتَغُونَ الْخَيْرَ مِنْ هَرَمٍ
 وَالسَّائِلُونَ إِلَى أَبْوَابِهِ طَرُقَا

١ - الشأو : الغاية . والمرءان : هما والد المدوح وجده . بز : غلب .
 السوق : الاواسط من الناس .

٢ - على تكاليفه : بالرغم مما فيه من مشقة .

٣ - العنائة : الأسرى . الربق : الاغلال ذات الحلق .

٤ - غادى الناس : ااثام عند الصباح . طرق : أتى في الليل .

٥ - فضل هرم على الناس كفضل الجياد على الخيول البطيئة . الممنون :
 الذي فيه منة ومباهاة . والنزق : الذي يبطيء بعد الجري .

إِن تَلَقَّ يَوْمًا عَلَى عِلَاتِهِ هَرَمًا
 تَلَقَّ السَّمَاحَةَ مِنْهُ وَالنَّدَى خُلُقًا ١
 وَلَيْسَ مَانِعَ ذِي قُرْبَى وَذِي رَحِمٍ
 يَوْمًا وَلَا مُعَدِّمًا مِنْ خَابِطٍ وَرَقًا ٢
 لَيْثٌ بَعَثَرَ يَصْطَادُ الرِّجَالَ إِذَا
 مَا كَذَّبَ اللَّيْثُ عَنْ أَقْرَانِهِ صَدَقًا ٣
 هَذَا وَلَيْسَ كَمَنْ يَعْيَا بِخَطَّتِهِ
 وَسَطَ النَّدَى إِذَا مَا نَاطِقٌ نَطَقًا ٤
 لَوْ نَالَ حَيٌّ مِنَ الدُّنْيَا بِمَنْزِلَةٍ
 وَسَطَ السَّاءِ لَنَالَتْ كَفُّهُ الْأَفْقَا .

أَرَأَيْتَ كَيْفَ يَتَدَحُّ زَهِيرُ هَرَمًا ، فَيَتَحَدَّثُ عَنْ نَسَبِهِ الشَّرِيفِ
 وَعَنْ سَعَةِ جَاهِهِ وَعَنْ حَسَنِ خَلْقِهِ ، يَتَحَدَّثُ عَنْ فُرُوسِيَّتِهِ وَعَنْ
 قِيَادَتِهِ لِلخَيْلِ مُحْكَمَةَ الشَّدِّ قَوِيَّةَ عَتِيَّةٍ ، يَغْزُو بِهَا عَقَقًا سَمَانًا
 لِكَثْرَةِ الْخَيْرِ فِي دِيَارِهِ ، وَلِسَعَةِ مَرَابَعِهِ وَخَصْبِهَا ، فَتَأُوبُ
 ضَمْرًا مِنْهُكَ لِكَثْرَةِ مَا جَرَّدَتْ لِلْحَرْبِ وَاسْتُخْدِمَتْ

١ - عَلَى عِلَاتِهِ : أَي عَلَى قَلَّةِ مَالِهِ .

٢ - الْمَعْدِمُ : الْمَانِعُ . الْخَابِطُ : الَّذِي يَطْلُبُ الْمَعْرُوفَ . وَالْوَرَقُ هُوَ الْمَعْرُوفُ هُنَا يَشْبَهُ طَالِبَ الْمَعْرُوفِ بِخَابِطِ الشَّجَرِ الَّذِي يَرِيدُ وَرْقَهُ .

٣ - عَثَرَ : امْشَى مَكَانَ وَلَعَلَّهُ مَأْسَدَةٌ . كَذَبَ اللَّيْثُ : لَمْ يَصْدُقِ الْحِمْلَةَ .

٤ - النَّدَى : مَجْلِسُ الْقَوْمِ ، وَيُرِيدُ فِي هَذَا الْبَيْتِ ابْنَ الْمَدُوحِ بَلِيغُ الْقَوْلِ فِي الْمَجَالِسِ .

في ساح المعارك . يعود بها عوجاً معطلة من الارسان
اذ لم تعد في حاجة الى هذه الارسان بعد ما بلغ منها
الهزال والضعف مبلغها ، وبعد ان اصبحت تشكو العياء في
الدواب وعروق الفخذ وأماكن الاحزمة في الصدور . هذا
الرجل يسعى الى حسن الاحدوثة ، ويسير على آثار رجلين
عظيمين قد سبقاه من قبل ، هما جده وابوه ، بلغا مقام الملوك ،
وبزاً أوساط الناس ، وأشرفهم . ومن كان هذا شأنه من
التكرم فانه لجدير بالوصول الى ما وصل اليه هذان الرجلان
وان كانت دون ذلك عقبات ومتاعب كثيرة .

ان هرماً لرجل أغر أبيض فيّاض بالمعروف ، يفك الأسرى
ويخلصهم من أصفاد الحديد . وهو الى ذلك ذو مروءة وذو رأي
حكيم ، اذا نزل بالقوم امر جلل في الليل او في النهار رأيت
اول من ينبري الى مساعدتهم دونما تذر او تلكؤ .

فضله في الناس كفضل الجياد الكرام على سائر الخيل البطيئة ؛
كل ذي حاجة اليه يتوجه فلا يرضن عليه وانما يتلقاه ببشر
وسماحة وندي على الرغم من قلة ماله ، الذي جاد به فلم يبق
لديه منه الا جزء ضئيل . انه وصول للرحم ، ومطعم للناس
وشجاع في الحروب وخطيب مفوه ، وذكي رفيع القدر .

تلك كانت مزايا الرجل الفاضل في الجاهلية ، أضفها زهير
على ممدوحه من غير ما مبالغة أو تدجيل ، لهذا حفظ الناس
شعره ومنحوه التقدير .

أعشى قيس :

هو صناجة العرب طاف ديارهم كلها في داخل الجزيرة وفي
خارجها ، ووصل الى بلاد الفرس فمدح ملكهم ، فأثابه وأجزل
عطيته علما بقدر ما يقول عند العرب واقتداء بهم فيه ، ولقد
تحدث هو عن تجواله في البلاد ، وضربه في الأفاق طلباً للمال
وتكسباً بشعره فقال :

تَقُولُ ابْنَتِي حِينَ جَدُّ الرَّحِيلِ
أَرَانَا سَوَاءً وَمَنْ قَدْ يَتِمُّ^١
فِيهَا أَبَتَا لَا تَرَمُ عِنْدَنَا
فإِنَّا نَخَافُ بَأْسَ نَخْتَرَمُ^٢
أَرَانَا إِذَا أَضْمَرْتُكَ الْبِلَادُ
نَخْفَى وَتُقْطَعُ مِنَّا الرِّحْمُ^٣
« أَفِي الطَّرْفِ خَفْتُ عَلَيَّ الرَّدَى
وَكَمْ مِنْ رَدٍّ أَهْلَهُ لَمْ يَرِمْ^٤ »
وَقَدْ طَفْتُ لِمَالِ آفَاقِهِ
عُمَانَ فَحِمَصَ فَأَوْرَى سِلْمُ

١ - يتم : مات ابوه فصار يتيماً .

٢ - فعل مضارع مجزوم من رام يريم بمعنى برح - نخترم : نهلك .

٣ - اضمرك : البلاد غيبتك وجعلتك خفياً .

٤ - الطرف : نهاية الشيء ؛ ردٍ : من اصابه الردى اي الموت .

أَتَيْتُ النَّجَاشِيَّ فِي أَرْضِهِ
وَأَرْضِ النَّبِيطِ وَأَرْضِ الْعَجَمِ^١
فَنَجَرَانِ فَالْشَّرُّ مِنْ حَمِيرٍ
فَأَيُّ مَرَامٍ لَهُ لَمْ أَرُمْ^٢ .
وَمِنْ بَعْدِ ذَلِكَ إِلَى حَضْرَمَوْتِ
فَاَوْفَيْتُ هَمِّي وَحِينًا أَهْمٌ

هذه أبيات من قصيدة مدح بها عمرو بن معدي كرب
الزبيدي ، وهو أمير وفارس وشاعر من اهل الجاهلية ، يعترف
فيها الأعشى بأنه كان بائعاً متجولاً للشعر ، يتخذه متجراً ليؤمن
لابنائه وسائل العيش . ولعله كان يغني شعره حتى سمي صناجة
العرب . والذي يتضح من الابيات التي بين أيدينا ان الشاعر لم
يكن يكتفي بالمديح ليشير أريحية الممدوح وكرمه ، بل كان
يعمد الى وسائل اخرى للتأثير كهذا العرض لما دار بينه وبين
ابنته من حديث عاطفي يجعل الانسان يشفق على الشاعر ،
ويبذل له مالا نظراً لما وراءه من عيال تريد ان تعيش . وانها
لصورة جميلة جداً ، صورة الفتاة متعلقة بأبيها ترجوه ألا يتركها
وأخوتها لانهم يشعرون في غيابه بانهم واليتامى سواء ، ولانهم
يقلقون لما يصيب أباهم في تسفاره خشية شر ينزل به . وما
أحلى هذا التعبير من ميمون بن قيس : « أرانا اذا أضمرتك البلاد

١ - النجاشي : لقب لملك الحبش .

٢ - مضارع مجزوم من رام الشيء يرومه أي يقصده ويرغب فيه .

نحفي وتقطع منا الرحم » . ففيه حسن الاستعارة وفيه رقة
العاطفة يجعل الأعشى الممول الوحيد لاولاده .

وغير خفي ما في تعداد البلدان التي قصدها الأعشى طلباً
للمال ، من صراحة وعدم تحرج من اتخاذ الشعر وسيلة
للكسب .

على أن الأعشى قد بلغ من الشهرة في الجاهلية بحيث اذا قال
بيتاً من الشعر تغنت به العرب في بoudاها وفي حواضرها ، واذا
مدح انساناً رفعه الى أعلى الرتب ، ولو كان في حقيقته غير ذي
مجد ، كما جرى للمحلق .

تحدث صاحب الاغانى عن الأعشى قال : « ذكر لي بن محمد
الزوفلي أن أباه حدثه عن بعض الكلابيين قال : كان لابي المحلق
شرف ، فمات وقد أتلف ماله ، وبقي المحلق وثلاث أخوات له ؛
ولم يترك لهم الا ناقة واحدة ، وحلتي برود جيدة كان يسديها
الحقوق ، فأقبل الأعشى من بعض أسفاره يريد منزله باليمامة
فنزل الماء الذي به المحلق ، فقراه أهل الماء ، فاحسنوا قراه .
فاقبلت عمة المحلق فقالت : يا ابن اخي ، هذا الأعشى قد نزل
بائناً ، وقد قراه أهل الماء . والعرب تزعم انه لم يمدح قومياً إلا
رفعهم ، ولم يهج قومياً إلا وضعهم . فانظر ما أقول لك ، واحتل
في زق من خمر من عند بعض التجار ، فارسل اليه بهذه الناقة
والزق وبردتي ابيك . فوالله لئن اعتلج الكبد والسنام والخمر
في جوفه ، ونظر الى عطفيه في البردتين ، ليقولن فيك شعراً
يرفعك به .

قال : ما أملك غير هذه الناقة وأنا أتوقع رسلها . فأقبل
يدخل ويخرج ويهمّ ولا يفعل . فكلما دخل على عمته حضّته ،
حتى دخل عليها فقال : قد ارتحل الرجل ومضى . قالت :
والله ، أحسن ما كان القرى ؛ تتبعه ذلك مع غلام أبيك .
(مولى له اسود شيخ) فحيثما لحقه أخبره عنك أنك كنت غائبا
عن الماء عند نزوله إياه ، وانت ، لما وردت الماء وعلمت أنه
كان به كرهت أن يفوتك قراه . فان هذا احسن لموقعه عنده .
فلم تزل تحضه حتى أتى بعض التجار ، فكلّمه أن يقرضه زق
خمر وإياه بمن يضمن ذلك عنه ، فأعطاه ، فوجه بالناقة والخمر
والبردين مع مولى أبيه فخرج يتبعه . فكلما مرّ بماء قيل : ارتحل ،
أمس عنه ، حتى صار إلى منزل الأعشى بمنفوحة اليمامة .
فوجد عنده عدة من الفتيان قد غدّاهم بغير لحم ، وصب لهم
فضيخاً فهم يشربون منه ، إذ قرع الباب فقال : انظروا من
هذا . فخرجوا ، فاذا رسول المخلق يقول كذا وكذا . فدخلوا
عليه وقالوا : هذا رسول المخلق الكلّابي أتاك بكيت وكيت .
فقال : ويحكم ، أعرابي ، والذي أرسل إليّ لا قدر له .
والله لأنّ اعتلج الكبد والسنام والخمر في جوفي لأقولن فيه
شعراً لم أقل قط مثله . فوثبه الفتيان وقالوا : غبت عنا فاطلت
الغيبة ثم أتيناك فلم تطعمنا لحماً وسقينا الفضیخ ، واللحم والخمر
ببوابك . لا نرضى بهذا منك . فقال : ائذنوا له . فدخل ، فأدى
الرسالة ، وقد أناخ الجزور بالباب ، ووضع الزق والبردين بين
يديه ، قال : أقره السلام وقل له : وصلتكم رحم ، سيأتیک

ثناؤنا . وقام الفتيان الى الجزور فنحروها وشقوا خاصرتها عن
كبدها ، وجلدها عن سنامها ثم جاؤوا بهما . فاقبلوا يشوون ،
وصبوا الخمر فشربوا ، واكل معهم وشرب ، ولبس البردين ونظر
الى عطفيه فيهما وأنشأ يقول :

أرقت وما هذا السهاد المؤرق ! الى آخر القصيدة

قال : فسار الشعر ، وشاع في العرب ، فما أتت على المخلق
سنة حتى زوج اخواته الثلاث كل واحدة على مئة ناقة فأيسر
وشرف . ومما جاء في هذه القصيدة قوله :

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة

الى ضوء نارٍ في يفاعٍ تحرق^١

تشب لمقرورين يصطليانها

وبات على النار الندى والمخلق^٢

رضيعي لبان ثدي أمّ تعاهدا

بأسحَم داجٍ : عوض لا تتفرق^٣

يداك يدا صدق فكف مفيدة

وكف إذا ما ضنّ بالزاد تنفيق^٤

١ - اليفاع : الارض المرتفعة .

٢ - المقرور : من اصابه البرد . يصطلي : يستدفئ . الندى : الكرم .

٣ - الأسحَم والداجي : الأسود ؛ عوض لا تتفرق أي لا تتفرق ابداً .

٤ - ضنّ بالزاد : ازداد التباخل به .

ترى الجود يجري ظاهراً فوق وجهه
 كما زانَ مَتَنَ الهندواني رونقاً^١
 وأما إذا ما أَوَّبَ الحُلَّ سرحهم^٢
 ولاح لهم من العشيَّات سملق^٣
 نفى الذمَّ عن آلِ المخلِّق جفنة^٤
 كجارية الشيخ العراقي تفهق^٥
 يروح فتى صدقٍ ويغدو عليهم^٦
 بملء جفانٍ من سديفٍ يدفق^٧
 ترى القومَ فيها شارعين ودونهم^٨
 من القوم ولدان من النسل دردق^٩
 طويل الدين رهطه غير ثنية^{١٠}
 أشم كريم جارُه لا يرهق^{١١}
 كذلك فأفعل ما حيت اليهم^{١٢}
 وأقدم إذا ما أعين القوم تبرق^{١٣}

-
- ١ - الهندواني : السيف المصنوع في بلاد الهند ، وهو من اجود انواع السيوف .
 ٢ - أَوَّبَ : رجع بعد غياب طويل ، السرح : المواشي التي تسرح في المراعي . السملق ! التماحل .
 ٣ - الجارية : الخوض الضجج . الشيخ العراقي : قصد به كسرى . تفهق : تفيض .
 ٤ - السديف : الشحم .
 ٥ - الدردق : الاطفال .
 ٦ - الثنية : ما كان دون السيد ؛ يرهق : يضايقه الدائنون بالمطالبة .

أبا مسمعٍ سارَ الذي قد صَنَعْتُمْ
فأنجدَ أقوامٌ بِذلكَ وأعرقوا^١
وإنَّ عِناقَ العيسِ سوفَ يزُورُكُمْ
ثناءً على أعجازِهِنَّ مُعلَّقُ^٢
به 'تنفّضُ' الأحلاسُ في كل منزلٍ
وتُعقدُ اطرافُ الجبالِ وتُطلقُ^٣.

صورة رائعة يطلع بها الأعشى على الناس ليرىهم عيوناً كثيرة
تتجه نحو مرتفع من الأرض شبت فوقه نار تتلألأ في الظلام
وحول النار اثنان يضرمانها ويدعوان الأضياف: الندى والمخلق.
هما رفيقا صبا ، بل رضيعا لبان من ثدي ام واحدة ، تحالفا
وتعاهدا بألا يفرق بينهما مفرق ، حتى بات المخلق من أكرم
الناس خلقاً وأسماهم يداً ، يلتمع الجود في وجهه ، فيزينه بوميض
منه ، كمازان متن الهندواني رونق . اذا حلّ القحط في القوم
وأضحت الأرض قاعاً صفصفاً ، ترى المخلق يبسط لهم رزقه
في جفان تتسع بقدر الحوض وتتدفق ، كجابية الشيخ
العراقي ، يروح ويغد وفوقها فتى ذو مروءة حاملاً الى الناس
كبارهم وصغارهم أجود القوت وأطيبه ؛ وهم شارعون في هذه

١ - أنجد القوم : اتجهو نحو نجد . واعرقوا : اتجهو نحو العراق .

٢ - عناق العيس : الابل الجيدة القوية . الاعجاز : جمع عجز وهو
مؤخر الحيوان .

٣ - الاحلاس : جمع حلس ، تجلل به الدابة تحت السرج . ويريد
بالبيت ؛ ان جميل المخلق قد اصبح حديث الناس في الحل والترحال .

الجفان ، يأكلون ويطعمون أطفالهم من خير رجل طويل اليدين ،
واسع الثراء ، قدير على تحصيل المال ، رهطه من أشرف القوم ،
صاحب شمم وكرم ، ولا ترهقه الديون ، ولا يبیت جاره معوزاً . إذا
برقت أعين القوم فالى المخلق تتوجه ، نعم ما تفعله أبا مسمع . لقد
سارت الأخبار عنك الى نجد والى العراق ، ومع الركبان يحلّ
في كل ارض ثناء الأعشى على ما بذلتموه في إكرامه ، وعلى
اللسنة يطير ذكر المخلق .

وفاء السموأل

كان السموأل أميراً في تيماء ، وغنيّاً من أغنياء الجاهلية
وشاعراً من شعرائها . وكان له قصر منيع حصّن اسمه « الأبلق
الفرد » .

على أثر مقتل حجر الكندي ، والدامريء القيس الشاعر ،
اتصل امرؤ القيس بالسموأل بعد أن نفّض يده من مساعدات
العرب له كي يستعيد حكمه . وكان السموأل على صلة بالغساسنة ،
ملوك الشام . فأشار على امريء القيس بطلب نجدة من الروم
بعد وساطة من الغساسنة لما بينهم وبين البيزنطيين من ودّ
وتحالف .

أخذ الشاعر الكندي برأي صديقه ، فجمع أهله ودروعه
وأمواله ، لتكون وديعة في ذمة السموأل ، وتوجه نحو
القسطنطينية .

على أن أعداءه من بني أسد ، ومن المناذرة ملوك الحيرة كانوا

يوجسون خيفة مما يدبره امرؤ القيس ؛ فجهزوا كتيبة من
الفرسان وأرسلوها الى تيماء لتستولي على كل ما تركه امرؤ القيس
لدى السموأل .

وجاء الجند يطلبون الى السموأل أن يسلمهم ودائع امرئ
القيس . فأقفل حصنه في وجههم ، ورد عليهم بأن الأمانات لا
تسلم إلا الى أصحابها . وعبثاً كانوا يحاولون أن يبلغوا
مرامهم . وفيما هم حائرون طلع عليهم من البر شاب يافع ، هو ابن
السموأل كان قد خرج الى الصيد قبل وصولهم ، وعاد من غير
أن يدري بما يحتاج أباه من حرج ، فالقي القبض عليه واتخذ
وسيلة للمساومة .

جاء الغلام الى باب الحصن ، ونودي على السموأل ليرى منظراً
مريعاً جداً ، ولده يتقلب بين أيدي الأعداء والسيوف مصلت على
عنقه ، وصاح قائد الجند بالسموأل : ادفع إليّ بدروع امرئ
القيس وإلا ذبحت ولدك الآن امام عينيك .

ولم يكن السموأل ليجهل فظاظة القائد وقسوته وغدره ،
فعزّ عليه أن تسفك دماء ولده ، وعزّ عليه من ناح آخر أن
يغدر بصديقه ويخفر ذمته . وبعد إطراق وتفكير ، قرر أن
يحافظ على مروءته ، وأن يفي بعهده لمن جعله موضعاً للامانة
مهما يكلفه ذلك .

قتل نجل السموأل ، وعاد القاتلون الى ديارهم . أما الناس
فراحوا يتناقلون أخبار الرجل ويعملونه مضرب المثل في الوفاء
والحفاظ على العهد .

وفي يوم من الأيام « كان عمرو بن ثعلبة القضاعي راجعاً من غزاة ، ومعه أسارى ، فلقى الأعشى ، وكان هذا قد هجاه وعمرو لا يعرفه فأخذه ونسبه فانتسب الى غير قومه فأوثقه . ثم سار حتى نزل على رجل يدعى شريحاً هو من ابناء السموأل ؛ فأكرمه شريح ، وأراد الأعشى أن يغتتم فرصة وجودهم لدى ابن السموأل ، فنظم قصيدة وارسلها اليه يستجيره فيها ، ويطلب أن يفك إيساره . وتحرك شريح للمكرمة ، فقال لضيفه : « إني أحب أن تهب لي بعض أسراك هؤلاء ، فقال خذ أيهم شئت . قال أعطني هذا الأعمى . فقال ما تصنع بهذا الزمّ من ؟ لا ، بل خذ أسيراً فداؤه مئة من الابل . فأخذ شريح الأعشى واطلقه . أما القصيدة التي كانت سبباً في إطلاقه فعبارة عن مديح لشريح وإشارة الى حادثة السموأل المشهورة قال فيها :

شريح لا تتركنّي بعد ما علقـت
 حبالك اليوم بعد القدّ أظفاري^١
 قد طفت ما بين بانقيا إلى عدن
 وطال في العجم كترحالي وتسياري^٢
 فكان أوفاهم عهداً وامنعمهم
 جاراً أبوك بعرف غير إنكار

١ - القدّ ، سير من الجلد يقيد به الاسير .

٢ - بانقيا : مكان في العراق . عدن : مرفأ عربي على المحيط الهندي .

كالغيث ما استمطروه جاد وابله
وعند ذمته المستأسد الضاري

كن كالسموأل اذ طاف الهام^١ به
في جحفل^٢ كهزيع الليل جرّار^٣

بالأبلى الفرد من تياء منزله^٤
حصن^٥ حصين وجار^٦ غير غدار^٧

إذ سامه^٨ خطتي^٩ خسف^{١٠} فقال له
« قل ما تشاء فإني سامع^{١١} حار^{١٢} »^٣

فقال : « ثكل^{١٣} وغدر^{١٤} انت بينهما
فاختر^{١٥} وما فيها حظ^{١٦} لختار

فشك^{١٧} غير قليل^{١٨} ثم قال له
أقتل أسيرك^{١٩} إني مانع^{٢٠} جاري

إن^{٢١} له خلفاً إن كنت قاتله^{٢٢}
وإن قتلت كريماً غير عوار^{٢٣}٤

مالاً كثيراً وعرضاً غير ذي دنس^{٢٤}
وإخوة^{٢٥} مثله ليسوا بأشرار

١ - الهام : القائد الشجاع ؛ الجحفل : الجيش ؛ هزيع الليل قطعة منه .

٢ - الأبلى الفرد : حصن السموأل وكان فيه أحجار بيضاء .

٣ - سامه الأمر : كلفه إياه - الخسف : المذلة . حار : أي حارث .

٤ - العوار : الضعيف الجبان .

جَروا على أدبٍ مِنِّي بلا تَنزقٍ
 ولا إذا شَمَّرت حَرَبٌ بأَغمارٍ^١
 وسوف يُعقِبنيهِ إن ظفرت بِهِ
 ربُّ كريمٌ وبيضٌ ذاتُ أَطهارٍ^٢
 لا سِرُّهُنَّ لَدِينا ضائعٌ مَمْدُقٌ^٣
 وكَلِماتٌ إذا استودعنَ أَسراري^٤
 فقال : تَقْدِمة - إذا قام يَقتله -
 أَشْرِفُ سَمَوُ أَلُ فانظر للدمِ الجاري
 أَأَقْتُلُ ابنَكَ صَبْرًا أو تَجِيءُ بِهَا
 طَوْعًا ؟ فَأَنكَرَ هَذَا أَيَّ إنكارٍ
 فَشَدَّ أوداجَهُ والصدرُ في مَضَضٍ
 عليه مُنطويًا كالذَّرْعِ بالنارِ^٥
 واختارَ أَدراعَهُ ألا يُسبَّ بِهَا
 ولم يكن عَهْدُهُ فيها بَختارٍ^٥
 وقال لا اشترى عارًا بِكَرْمَةٍ
 واختارَ مَكْرَمَةَ الدنْيا على العارِ

-
- ١ - التزق الطيش والسفه . أغمار : جمع غمر وهو الجاهل .
 ٢ - يعقبيه : يرزقني عقباً له أي بدلاً منه ؛ والبيض : النساء البيض .
 ٣ - المذق : ما ليس صافياً من الأشياء وهو اللبن المغشوش بالماء .
 ٤ - الأوداج : جمع وديج ؛ وهو عرق العنق . الذرع : ضيق النفس .
 ٥ - الختار : الغدار .

في هذه الأبيات نوع جديد من البطولة ، لا يقوم على الحرب والقتال ، بل يقوم على الخلق الكريم والوفاء بالعهد . هو نوع من الصراع بين العاطفة والواجب ، وتضحية كبرى في سبيل الفضيلة وشدُّ نحو العلاء يقوم به السموأل ليضحى بطلاً مثالياً في حفظ الذمار .

وجه الأعشى هذا المديح الى ابن السموأل كما مر معنا ، طالباً اليه أن يتزيا بمثل فضل أبيه . فهو في الواقع مديح للأب ولكنه يشعّ على الابن أيضاً ، خصوصاً اذا عرفنا أن العرب في الجاهلية وبعد الجاهلية ، كانوا يتفاخرون بأجداد السلف من آبائهم وأجدادهم وذوي قرباهم وكان الواحد منهم بمثابة استمرار لأبيه ، يعمل على إحياء ذكره ، ويعتبر نفسه قطعة منه . من هنا كان ابن السموأل يعتبر ممدوحاً ، وكان الأعشى يعتبر مادحاً لشريح .

والذي قد شدّد الأعشى عليه ، هو فضيلة الوفاء وإجارة المستجير ، وحاول أن يوقظ في ذهن الممدوح حدثاً كان فيه شبه بموقف الأعشى ، وذلك لكي يثير مروءته ويحمّله على اقتدائه . وواقع الحال ، أن الأعشى قد نجح في محاولته وفكّ إيساره ، ولكن نجاحه في الشعر وإجادته كان أكبر من نجاحه في الخلاص . فما لا يقبل الريب ان قصيدة الأعشى في وفاء السموأل ، هي رائعة من روائع الشعر الجاهلي . رائعة في معانيها وفي المثل الأعلى الذي تصوره . في هذا الضرب من البطولة الخارقة الذي يجاوز كل عادي مألوف من بطولات البشر ، ويتراءى للسامع كأنه نسج خيال .

وفي القصيدة صور هي من أجمل ما يمكن ان تخطه يدا إنسان .
إنها للوحة فنية غاية في الدقة والاتقان ، تلك التي ترينا الأب في
مشهد مهيب ، رجل يطل على ابنه بين يدي عدوه ، فترتعد منه
الفرائص ، فيضطرب القلب وتسود الدنيا أمام ناظريه ، وعدو
غدار أثم يستل سيفه ويضعه على عنق غلام بريء ، ما عرفت
دنياه منه غير الطهارة والصفاء ، ثم يصيح بالسموأل قائلاً :
« أشرف سموأل فانظر للدم الجاري »

مع كل قطرة دم ، مع كل زفرة يصعدها الغلام ، مع الشبهة
الأخيرة التي كانت آخر عهده بالحياة ، كان سموأل يشعر
بالموت ، وقد اعتصر فؤاده ، وقبض على متنفسه ، فغارت الروح
في هوة سحيقة ، وكانت اللعنات تنصب على ذلك القائد الظالم
الذي فقد كل مظهر من مظاهر المروءة والشرف .

ناهيك بجمال القصة ورونق سبكها وحبكها ، والافتنان في
سردها وإحكام العقدة فيها وإبراز المأساة بطريقة تجعل المرء
يميل الى تحملها ، ويستهن بها من اجل مكرمة هي فوق كل
اعتبار .

النابعة الذبياني

ما حديثنا عن النابعة سوى حديث عن اسم ضخمة ، كان مشغلة للشعراء الجاهليين ومشغلة لمختلف الأدباء والنقاد بعد الجاهلية بزمان .

عاش هذا الرجل ما لا يقل عن ثلاثة أرباع القرن السادس الميلادي ، ومات قبيل البعثة النبوية . أما قبيلته فذبيان ، وهم فرع غطفاني من قيس عيلان ، وأما مكانته بينهم ، فلم تكن لترتفع إلا بعد أن نبغ في الشعر .

على أثر هذا النبوغ ، نال أبو أمامة بعضاً من الشهرة ، وتوجه عملاً بناموس الحياة الجاهلية إلى خدمة قبيلته والدفاع عنها ، ونشر رأيها وتمثيلها في المحافل .

وزاد في أهمية عمله ، أن حرباً ضروساً قد نشبت بين قبيلته وقبيلة بني عبس ، هي حرب السباق ، أو حرب داحس والغبراء ، فانغمس النابعة الذبياني في سياسة القبيلة ، وراح يرعاها بعين ساهرة ، ويردّ عنها مكاييد الأعداء ، فيمتدح أحلافها ، ويشير إلى ما بينهم وبين الذبيانيين من روابط وثيقة ، لا توهنها

الدسائس ولا تغير منها محاولات الخائنين .

كان النابغة الذبياني رجلاً رزيناً راجح العقل ، متزن السلوك
يميل الى الوقار والرصانة ، فلا يتبذل ولا يتهتك ولا يقبل على
ملاهي العصر ومفاسده .

فأكسبته هذه الصفات مركزاً محترماً بين الناس ، زاد في
رفعته ما عرف به النابغة من معدلة في الحكم ، ورأي سديد ،
ومعرفة عميقة بالشعر وأصوله . لذلك وثقوا به وحكموه في
أشعارهم كما حكموه في قضاياهم العامة .

ومما يذكرون ، ان العرب كانت تنصب له في المواسم قبة من
أدم ، وكان الشعراء يقفون بين يديه ينشدونه أشعارهم لينظر
فيها ويحكم للمجيدين . إن رجلاً كهذا عارفاً بالشعر وأصوله ،
متضلعا من بلاغة العرب ، متزن التفكير ، نابغة في فن القريض ،
لا بد من أن يكون استاذاً لعدد من الشعراء ولا بد من أن
يتهافت الناشئون على التلمذ له ، يستمدون من شعره مدداً ومن
رأيه هدياً ، ومن مكانته صيتاً ؛ ولكن النابغة ، بالرغم من
كونه قدوة حسنة للشعراء ، قد كان لهم قدوة سيئة أيضاً ؛
ذلك أنه كان بين الأوائل في الشعراء الجاهليين الذين كرسوا فن
المديح صناعة يتكسب بها ، وسخروا الشعر لمآرب مادية
خاصة ، فضعف فيه الجانب الانساني ، وانحطت قيمته ؛ فاصبح
يقاس بمقاييس هزيلة ، وضل فيه الشعراء سبيل الابداع
والتجديد ، فاذا المعاني رواسم تتكرر لدى كل شاعر ،
واذا الشعر اسطوانات متشابهة ، تدور حول معان

جوفاء متكلفة مزورة . فقليلاً ما كان يظهر شاعر مجدد ،
وقليلاً ما كان مجال التجديد ينفتح ويتسع مداه . وحرى
بالملاحظة هنا أن التجديد - وإن حدث على فترات متباعدة في
تاريخ الأدب العربي - فإنه لم يستحدث فنوناً جديدة . ولكنه
كان يكتفي بتغير داخلي ضمن الإطار الأصيل الذي اختطه
الأقدمون .

والذي يظهر في شعر المديح ، أن الأسلوب فقط هو الذي
كان يميز شاعراً عن شاعر ، بالإضافة إلى بضعة عناصر فردية
شخصية تستمد من ذات الشاعر وظروف معيشته .

وما كان الأمر ليقف عند هذا الحد ، فلقد انطبع الشعر
التكسبي عند العرب بطابع التذلل والزلفى والانسحاق أمام
الممدوحين . ورأى الناقدون والمؤرخون أن المسؤول عن هذه
الظاهرة هو النابغة الذبياني قبل أي إنسان . هذا الشاعر الرصين
المتزن ، حملته ظروف العصر إلى الحيرة وإلى بلاد الشام ، فدخل
بلاط المناذرة ، وأقام فيه زمناً ، كما اختلف إلى بلاط الغساسنة ،
ومدح الملوك من الفتيين فاكرموه ، وأجزلوا له العطاء حتى
أثرى ؛ وشاع بين الشعراء أن نابغة ذبيان باتت يا كل في صحاف
من الذهب والفضة ، وباتت نديماً للملوك مقرباً منهم ، كلمته
مسموعة ، وإرادته نافذة ، وعيشه رغيد . كل هذا كان حلاً من
أحلام الشعراء ، وأمانى في خواطرهم ، يسيل لعابهم لدى ذكره .
لذلك ماروا على خطى النابغة ، أملاً منهم أن يبلغوا ما بلغه ،
ولم يتحرجوا ولم يشعروا بالغضاضة رغم ما أظهروه من ألوان

التسكع والصغار .

والذي يرجح عندنا ، أن شاعر ذبيان لم يكن يفكر أول الامر في أن يتخذ الشعر مهنة للتكسب ، ولم تكن دوافع المديح عنده إلا دوافع نبيلة ، قصد منها مساعدة قومه ، وعرفان الجميل لكل من وجد عنده هذه المساعدة .

أما كنه هذه المساعدة ، فيتجلى لنا في ثلاث نواح .

١ - ناحية قبلية محض ، حاول فيها ابو أمامه ان يوثق العلاقات بين ذبيان وأحلافها من أسد وتميم وسواهما . فعمد الى امتداح هؤلاء الأحلاف ، والى اظهار ما بينهم وبين قبيلة الشاعر من آصرات التعاون والقرباة . وهذا المديح ليس متكسباً في شيء ، ولا هو مصطنع ، بل انه وليد عاطفة صادقة ، ووليد إخلاص كان الشاعر يكنه لقبيلته . أما ترى كيف تصدى لزراعة بن عمرو بن خويلد حين عمد هذا الى تصديع الحلف الأسدي الذبياني والى إخراج بني اسد من هذا الحلف ؟ فلقد أظهر النابغة خطل زراعة وسفاهة رأيه ، ثم تمدح بالجموع التي تساند أهله في حربهم ضد بني عبس ، فكانت سياسته القبلية عاملاً أساسياً في اتجاهه نحو هذا المديح . اما المعاني التي دارت مدائح هذه حولها ، فالقوة والعزة والحفاظ على العهد ، والسيادة والكرم ، وهي معان لا تتعلق بالأفراد فحسب ، ولكنها تنتظم المجموع لكون روح الجماعة هنا هي المعنية ، وهي المرتكز الاساسي في هذه المحالفات .

٢ - ناحية قبلية ملكية (أو ذبيانية لخمية) ، تختص

بعلاقات ذبيان مع المناذرة . فلقد جاء في كتب التاريخ ، أن
كتيبة من فزارة كانت داخلية في جند الحيرة . وإذا علمنا ان بني
فزارة هم فرع من ذبيان ، أدركنا الصلة الوثيقة التي كانت بين
المناذرة والذبيانين ، حيث كان الملوك اللخميون يعطفون على
قوم النابغة بعض العطف . ولكن الاحوال الاقتصادية كانت
تضطر بني ذبيان كما تضطر أحلافهم الى الاغارة أحيانا على حمى
المناذرة في حال نضوب الماء وجفاف المراعي وانحباس المطر ؛
مما يجعل جنود هؤلاء يأسرون بعض المعتدين ، فيتعين على
النابغة الذبياني أن يتوسط لهم لدى ملوك الحيرة . وما كان
هذا التوسط ليمر من غير قصائد في المديح تهز أريجها الملوك
وتوافق رغباتهم فيحققون للشاعر رجاءه ، ويحيزونه شخصياً
بجوائز مالية يستعين بها على مقتضيات الحياة .

٣ - ناحية ذبيانية غسانية :

وإذا كانت غارات بني ذبيان وبني أسد على حمى الحيرة
قليلة ، فإنها لم تكن كذلك بالنسبة الى بلاد غسان . فالاماكن
التي كان يقطنها الذبيانون والأسديون متاخمة للأراضي
الغسانية . فإذا ما أجذبت ارضهم امتدت أنظارهم الى الشمال ،
وفكروا في التربع بحماه .

ومما زاد في تعديات ذبيان وأحلافهم على أرض غسان ، ان
الكتيبة الفزارية كانت تشجع قبيلة الشاعر على الدخول في
مربع الشام نظراً لما بين الحيرة والشام من تنافس وعداء ،

وكثيراً ما اشتبك بنو ذبيان وأحلافهم مع الغساسنة فاستاق هؤلاء منهم الأسرى والابل ، وجاء النابغة يشفع لقومه ولمن يوالونهم فيفك الأسرى ويستعيد الأنعام .

ومما يذكر في هذا الصدد ، أن النعمان بن وائل بن الجلاح قائد الجنود الغسانيين أسر مرة قوماً من ذبيان ، ومنهم عقرب ابنة النابغة . فلما عرفها قال :

والله ما أحد أكرم علينا من أبيك ولا أنفع لنا عند الملك
ثم جهزها وخلّاها . وتزيد الرواية قائلة : « ثم قال : والله ما
أرى النابغة الذبياني يرضى منا بهذا ، فأطلق له سبي غطفان
جميعاً وأسراهم ، فمدحه النابغة .

من هنا يتضح ما كان للنابغة الذبياني من مركز في كل من
البلاطين . غير أن هذا المركز قد تعزز في بلاط الحيرة بعد أن
اعتلى عرشها الملك النعمان الثالث أبو قابوس بن المنذر الرابع كان
هذا الرجل كثير الطموح ، كافأ بالعظمة ومظاهر الأبهة ، يريد
أن يكون أكبر رجل في بلاد العرب ، وأوسع الناس سلطة .
فجمع الشعراء في بلاطه ، وكان على رأسهم النابغة الذبياني ،
وأجازهم بمال كثير ، فكان ذلك بمثابة حاثٍ للقرائح على قول
المديح في النعمان . فانهاالت عليه الأشعار من كل جانب ، وكانت
قصائد النابغة في المقدمة . ولكي نقدر قيمة هذا العمل ، ينبغي
أن نستعيد في أذهاننا حالة العرب آنذاك ، وكيف كانوا يعولون
على بيت من الشعر ، وإلى أي مدى كان الشاعر يساهم في رفع
من يمدحه وفي حط من يهجوّه . إذا قدرنا ذلك ، تبين لنا أهمية

ما كان ينظم في النعمان من شعر ، وكيف كان هذا الشعر يساهم
في سعة نفوذ الملك وفي تعظيمه بين العرب .
ولكن حسن العلاقة بين الملك وشاعره النابغة لم يكن ليدوم .
فلقد حدث ما عكر الصفو بينهما ، فنشأ عن ذلك ان عزم النعمان
على الفتك بشاعره . ولكنه هرب قبل ان تتفد رغبة الملك وظل
بعيداً عن بلاط الحيرة حتى سوّي الأمر وأصلح ما بين النعمان
والنابغة ، فعاد ابو امامة الى بلاط الحيرة وأنشد ملكها أجمل
قصائده وأشهرها ، وفيها اعتذار الى الملك وامتداح له بأروع
ما مدح به امرؤ في الجاهلية .

من هذه القصائد الاعتذارية سوف ندرس واحدة في هذا
المقام ، وواحدة من مدائحه في الغساسنة لنتبين من خلالها
خصائص النابغة في فن المديح .

١ - من مدح الغساسنة :

توجه النابغة في هذه القصيدة الى الملك الغساني عمرو بن
الحارث الاصغر (٥٨٧ - ٥٩٧ ؟) وقد لجأ اليه بعد أن نقم عليه
النعمان أبو قابوس :

كَلِّينِي لَهْمٌ يَا أُمِيمَةُ ، نَاصِبٍ
وَلِيلٍ أَقَاسِيهِ بَطِيءِ الْكَوَاكِبِ
تَطَاوَلَ حَتَّى قَلْتُ لَيْسَ بِمَنْقُضٍ
وَلَيْسَ الَّذِي يَرَعَى النُّجُومَ بِآيِبٍ ١

١ - آيب : راجع .

وصدرٍ أراح الليلُ عازِبَ همِّه
 تضاعفَ فيه الحزنُ من كلِّ جانبٍ^١
 عليٌّ لعمرٍو نعمةٌ بعد نعمةٍ
 لو الدهرُ ليست بذاتٍ عقاربٍ^٢
 حلفتُ مينا غير ذي مثنويةٍ
 ولا علم إلا حسنُ ظنٍّ بصاحبٍ^٣
 لئن كان للقبرين قبرٌ يخلقُ
 وقبرٍ بصيداءٍ ، الذي عند حاربٍ
 وللحارثِ الجفنيِّ سيّد قومهِ
 ليكتَمِسَنَ بالجيشِ دارِ المحاربِ
 وثقتُ له بالنصرِ إذ قيل قد غزت
 كتائبُ من غسانٍ غيرُ أشائبِ
 بُنو عمهِ دُنيا وعمرٍو بن عامرٍ
 أولئك قومٌ بأُسهمٍ غيرُ كاذبِ
 إذا ما غزوا بالجيشِ خلق فوقهم
 عصائبُ طيرٍ تهتدي بعصائبِ

١ - أراح : جعله يروح عند المساء ، العازب : البعيد

٢ - ليست بذات عقارب : لا يكدرها من

٣ - غير ذي مثنوية : لا يستثنى فيها شيء .

يُصَانَعْنَهُمْ حَتَّى يُغِيرْنَ مَغَارَهُمْ
مِنَ الضَّارِيَاتِ بِالدِّمَاءِ الدَّوَارِبِ ١
تَرَاهُنَّ خَلْفَ الْقَوْمِ خُزْرًا عِيُونُهَا
تُجْلِسُ الشُّيُوخَ فِي ثِيَابِ الْمَرَانِبِ ٢
تَجَوَانِحَ قَدْ أُيْقِنَ أَنَّ قَبِيلَهُ
إِذَا مَا التَّقَى الْجَيْشَانِ أَوَّلُ غَالِبٍ
لَهُنَّ عَلَيْهِمْ عَادَةٌ قَدْ عَرَفْنَهَا
إِذَا عُرِّضَ الْخَطِّيُّ فَوْقَ الْكَوَائِبِ ٣
عَلَى عَارِفَاتٍ بِالطَّعْمَانِ عَوَابِسٍ
بِهِنَّ كُلُّومٌ بَيْنَ دَامٍ وَجَالِبٍ ٤
إِذَا اسْتَنْزَلُوا عَنْهُمْ لِلطَّعْنِ أَرْقَلُوا
إِلَى الْمَوْتِ إِرْقَالَ الْجَمَالِ الْمَصَاعِبِ ٥
فَهُمْ يَتَسَاقَوْنَ الْمَنِيَّةَ بَيْنَهُمْ
بِأَيْدِيهِمْ بَيْضٌ رِقَاقُ الْمَضَارِبِ

-
- ١ - يُصَانَعْنَهُمْ : يحسن صحبتهم . الضاريات الدواب . الخيول المجربة في الحرب .
٢ - خُزْرًا عِيُونُهَا : تنظر بمؤخر العين . ثياب المرانب : ما صنع من فرو الارنب .
٣ - الْخَطِّي الرمح المنسوب الى الخط : الكوائب : جمع كائبة ؛ اعلى ظهر الفرس .
٤ - الْجَالِب : الجرح الذي جفّ دمه .
٥ - أَرْقَل : مشى بسرعة .

يَطِيرُ 'فَضاضاً' بينها كلُّ قونسٍ
ويتبعها منهم 'فَراشُ' الحواجبِ ١
ولا عيبَ فيهم غيرَ أنَّ سيوفهم
بينَ 'فُلُولٍ' من قِراعِ الكتائبِ
'تورثنَ' من أزمانٍ يومَ حليمةٍ
إلى اليومِ قد 'جرثنَ' كلَّ التجاربِ
تقدُّ السلوقيَّ المضاعفَ نسجهُ
وتوقد بالصفّاح نارَ الحبّاحِ ٢
بضربٍ يزيلُ الهامَ عن سكّنته
وطعنٍ كمايزاغ الخاضِ الضّواربِ ٣
لهم شيمةٌ لم يعطها الله غيرهم
من الجودِ والاحلامِ غيرُ عواذبِ
مجلّتهم ذاتُ الإلهِ ودينهم
قويمٌ ، فما يرجون ، خيرُ العواقبِ
رقاقِ النعالِ طيّبٌ حجزاتهم
'يحَيّونَ' بالريحانِ يومَ السّبابِ

-
- ١ - الفضاض : الشظايا المتفرقة . القونس اعلی البيضة .
٢ - السلوقي : الدرع المصنوعة في سلوق .
٣ - السكّنت : مقر الرؤوس من الاعناق . الايزاغ : دفع الناقة ببولها . الخاض : النوق الحوامل .

تحييتهم بيض الولائد بينهم
وأكسية الإصريح فوق المشاحب
يصونون أجساداً قديماً نعيمها
بخالصة الأردن خضر المناكب
ولا يحسبون الخير لا شر بعده
ولا يحسبون الشر ضرباً لا زب
سحبوت بها غسان إذ كنت لاحقاً
بأهلي وإذ أعييت علي مذهب

يطالعنا في هذا المديح كونه غير مبتدىء بالغزل ونعت
الديار ، مع أن زي العصر كان يفرض ذلك . ولكن الموقف
الذي وقفه الشاعر قد حال دون انطباق القاعدة عليه ، فخير
ما يقدم به النابغة شعره - وهو هارب من الموت ، ملهوف الى من
يغيثه - أن يتحدث عن حاله ، وأن يستنطق وجدانه ، فيصف
ما كان يلم به حين وصل الى بلاد الغساسنة ، قاصداً حمايتهم له
وكأنما يريد أن يقول : أيتها الحبيبة دعيني من الحب ومن ذكر
الصبابات وأخبار الهوى ، فان في النفس ما يقض مضجعي وما
يقلق مني الخواطر . كليني لهذا الهم الشديد ، وليالي السوداء
أقاسيها ، وهي تطول علي ، كأننا ليس لنجومها من مغيب .
ومن شكوى الهموم ينتقل الشاعر الى المديح ، فيذكر نعمة
الملك ونعمة والده أيضاً ، وكرم النفس لديها ، ثم يتحدث عن
شجاعة الممدوح وعظمة جاهه وقوة جيشه وأيامه الغر وفرسانه
الاماجد ، ولا يقتصر في المدح على عمرو بن الحارث الغساني وحده ،

بل يمدح الغساسنة جملة ويصف وقائعهم وأسلحتهم معرضاً
بالمناذرة الذين انهزموا يوم حليلة في حربهم ضد بني غسان .
وبعد أن يشبع الحروب والأسلحة الغسانية وصفاً ، يتناول
أخلاق ملوك الشام وجودهم وعفتهم واستقامتهم في الدين ومخض
العيش عندهم ونعيم الحياة ، وما الى ذلك من صفات الأشراف
وأهل النبل في الجاهلية . والحقيقة أن مديح النابغة هو خير
ما يتوجه به الى الملوك في ذلك الحين ، وهو يدل على أن الشاعر
كان عارفاً بأحوال الممدوحين معرفة تامة ، وعارفاً بما يرضي
الغساسنة من جميل القول .

وما كان عبثاً أن يهتم أبو أمامة بحروب بني غسان . لانهم
قوم محاربون تميزوا عن المناذرة بوقائعهم الجليلة ، وبحبهم للحرب ،
ومحافظتهم على صفات بدوية كان ملوك الحيرة قد أهملوها . ومما
يسجل في هذه المدحة أيضاً تغني الذبياني بدين الغساسنة وبكتابهم
المقدس ، فهم قوم نصارى متمسكون بأهداب الدين ،
متعصبون لعقيدتهم ، مفاخرون بها .

ومديح النابغة يتسم بالجلال والارistocratic وفخامة
اللفظ ، والرصانة في التعبير ، والاتزان في الفكر ، وهو يعكس
لنا أحوال الجاهليين الفكرية والسياسية والاجتماعية والدينية ، ويرينا
صورة لهذا البدوي الذي زار الحواضر ، فتلون شعره بألوانها .
رقاق النعال طيب حجزاتهم يحيون بالريحان يوم السباسب
تحبيهم بيض الولائد بينهم وأكسية الأضرىج فوق المشاجب

مدح النعمان ملك الحيرة والاعتذار اليه :

يا دارَ مِيَّةٍ بالعلياءِ فالسَّنَدِ
أَقْوَتُ وَطَالَ عَلَيْهَا سَالِفُ الْأَبَدِ^١
وَقَفْتُ فِيهَا أَصِيلًا كِيْ أُسَائِلَهَا
عَيَّتْ جَوَابًا وَمَا بِالرَّبْعِ مِنْ أَحَدٍ^٢
إِلَّا الْأَوَارِيَّ لَايَا مَا أُبَيِّنُهَا
وَالنُّؤْيَ كَالْحَوْضِ بِالْمَظْلُومَةِ الْجَلْدِ^٣
رُدَّتْ عَلَيْهِ أَقَاصِيهِ وَلِبْدُهُ^٤
ضَرَبُ الْوَلِيدَةِ بِالمِسْحَاةِ فِي الثَّادِ^٥
خَلَّتْ سَبِيلَ أَتِيٍّ كَانَ يَحْبِسُهُ
وَرَفَعْتَهُ إِلَى السَّجْفَيْنِ فَالنَّضْدِ^٥
أَضَحْتُ خَلَاءً وَأَضْحَى أَهْلَهَا احْتَمَلُوا
أَخْنَى عَلَيْهَا الَّذِي أَخْنَى عَلَى لُبْدِ^٦

-
- ١ - العلياء : المرتفع . السند : الوادي . أقوت بليت .
٢ - اصيلاً : بعد العصر . عيت : عجزت .
٣ - الأواري : اطراف الحبال التي تشد الطنوب ، لأيا ؛ بتعب . النؤي :
حفرة حول الخيمة تمنع الماء من دخوله اليها . المظلومة . الارض الصلبة .
٤ - الوليدة : الفتية الصغيرة . المسحاة الرفش ، الثاد : الندى
٥ - الأتي : السيل . السجفان : ستاران في طرف الخيمة .
٦ - أخنى عليها : أتى عليها ، افسدها . لبـد : النسر السابع الذي
رباه لقمان .

فعدّ عَمَّا تَرَى إِذْ لَا ارْتِجَاعَ لَهُ
 وَاَنَّمِ الْقَتُّودُ عَلَى عَيْرَانَةٍ أُجْدٍ^١
 مَقْدُوفَةٍ بِدَخِيسِ النَّحْضِ بَازِلُهَا
 لَهُ صَرِيفٌ صَرِيفٌ الْقَعْوُ بِالْمَسَدِ^٢
 كَأَنَّ رَحْلِي وَقَدْ زَالَ النَّهَارُ بَنَا
 يَوْمَ الْجَلِيلِ عَلَى مَسْتَأْنَسٍ وَحْدٍ^٣
 مِنْ وَحْشٍ وَجَرَّةٍ مَوْشِيٍّ أَكَارِعُهُ^٤
 طَاوِي الْمَصِيرِ كَسِيفِ الصِّقْلِ الْفَرْدِ^٥
 سَرَتْ عَلَيْهِ مِنَ الْجُوزَاءِ سَارِيَةٍ^٥
 تُتَزَجَّى الشَّمَالُ عَلَيْهِ جَامِدُ الْبَرْدِ
 فَارْتَاعَ مِنْ صَوْتِ كَلَّابٍ فَبَاتَ لَهُ
 طَوْعَ الشَّوَامَتِ مِنْ خَوْفٍ وَمِنْ صَرْدٍ^٥
 فَبِثَّهْنٌ عَلَيْهِ ، وَاسْتَمَرَّ بِهِ
 صُمْعُ الْكَعُوبِ بَرِيئَاتٍ مِنْ الْحَرْدِ^٦

١ - القتود : رجال النوق . عيرانة : ناقة كالعير . أجد قوية موثقة الخلق .

٢ - دخيس النحض : اللحم الكثير . البازل : الناب . القعو :

بكرة الحبل ،

٣ - زال النهار : بلغ الظهر وقت زوال الظل ،

٤ - أكارعه : قوائمه . المصير : المعى ،

٥ - الجوزاء : نجم عال في السماء . سارية : عاصفة .

٦ - الكلاب : الصياد - الشوامت : القوائم - الصرد : البرد ،

وكان 'ضمران' منه حيث يوزعه
 طعن المearك عند الحجر النجد^١
 شكّ الفريضة بالمدرى فأنفذها
 شكّ المبيطر إذ يشفي من العضد^٢
 كأنه خارجاً من لوح صفحته
 سفود شرب نسوه عند مفتاد^٣
 فظلّ يعجم أعلى الروق منقبضاً
 في حالك اللون صدق غير ذي أود^٤
 لما رأى واشقّ إقعاص صاحبه
 ولا سبيل إلى عقل ولا قود^٥
 قالت له النفس إني لا أرى طمعاً
 فإنّ مولاك لم يسلم ولم يصد

١ - ضمران : اسم كلب . يوزعه : يغريه . الحجر : الملجأ ، النجد : الشجاع .

٢ - الفريضة : عضلة الكتف ، المدرى : القرن ، العضد : مرض يعرج به الحيوان .

٣ - مفتاد : موقد النار .

٤ - يعجم : يعضّ . الروق : القرن . صدق : مستقيم . أود : اعوجاج .

٥ - واشق : اسم كلب ثان . إقعاص : الموت السريع . عقل : دية . القود : القصاص .

فتلك 'تبلغني النعمان إن له
فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد

ولا أرى فاعلاً في الناس يُشبهه
ولا أحاشي من الأقوام من أحد

إلا سليمان ، إذ قال الإله له
قم في البرية فاحدها عن الفند^١

وخيّس الجن إني قد أذنت لهم
يبنون تدمر بالصفاح والعمد^٢

فمن أطاعك فأنفعه بطاعته
كما أطاعك وادلّه على الرشد

ومن عصاك فعاقبه معاقبة
تنهى الظلوم ، ولا تقعد على ضد^٣

إلا لمثلك أو من أنت سابقه
سبق الجواد إذا استولى على الأمد

أعطى لفارهة حلوى توابعها
من المواهب لا تُعطى على نكد^٤

١ - الفند : الفساد .

٢ - خيّس : ذلّل ، استخدم . الصفاح : الحجارة الكبيرة .

٣ - ضد : الحقد والبغضاء .

٤ - الفارهة : الناقة الكريمة .

الواهب المئة المعكاء زينها
 سعدان^١ توضح في أوبارها اللبد^١
 والساحبات ذيول الريط فنقها
 برد^٢ الهواجر كالغزلان بالجرد
 والخيل تمزع^٢ غرباً في أعنتها
 كالطير تنجو من الشؤبوب ذي البرد^٢
 والأدم قد خيئت^٣ فتلا مرافقها
 مشدودة^٣ برحال الحيرة الجدد^٣
 أحكم كحكم فتاة الحي^٤ إذ نظرت
 إلى حمام^٤ سراع^٤ وارد^٤ الشمد^٤
 يحفه^٤ جانباً نيق^٤ وتقبعه^٤
 مثل الزجاجة لم^٤ تكحل من الرمد^٤
 قالت ؛ ألا ليتما هذا الحمام لنا
 إلى حمامتنا ونصفه فقد^٤
 فحسبوه^٤ فألفوه^٤ كما حسبت^٤
 تسعاً وتسعين لم تنقص ولم تزد^٤

١ - المعكاء : السمينة . السعدان : نبات تسمن به الابل .
 ٢ - تمزع : تمرراً سريعاً . غرباً : ضامرة .
 ٣ - الأدم : جمع أدماء ، وهي الناقة البيضاء .
 ٤ - نيق : جبل .

فكملت مئةً فيها حامتها
وأسرعت حِسبةً في ذلك العدد
فلا لَعمرُ الذي مسحَتْ كعبتهُ
وما هريق على الأنصاب من جسدٍ^١
والمؤمن العائذات الطير تمسحها
رُكبانُ مكة بين الغيل والسعدِ^٢
ما قلتُ من سيئٍ مما أُتيت به
إذاً فلا رفعت سوطي إلى يدي
إذاً ، فعاقبني ربِّي مُعاقبةً
قرت بها عينٌ من يأتيك بالفندِ^٣
هذا لأبرأ من قول قذفت به
طارَت نوافذهُ حرّاً على كبدي .
أنبيئتُ أنَّ أبا قابوس أوعدني
ولا قرار على زأرٍ من الأسدِ
مهلاً فداءً لك الأقوامُ كلُّهم
وما أثمرُ من مالٍ ومن ولدٍ

١ - مسح الكعبة : طاف بها ولمسها تبركا . هريق وأريق الدم : أجري على الأرض .

٢ - العائذات : الملتجئات . رُكبان مكة : الحجيج - الغيل والسعد : أجمتان بين مكة ومنى

٣ - الفند : الكذب والفسدة .

لا تقذفنسي بركنٍ لا كِفَاءَ لَهُ
 وإن تأثفك الأعداءُ بالرِّفْدِ^١
 فما الفُراتُ إذا هبَّ الرِّيحُ لَهُ
 ترمي أواذيه العبرينَ بالزَّبْدِ^٢
 يمدُّهُ كُلُّ وادٍ مُتَرَعٍ لَجْبٍ^٣
 فيه رُكَامٌ من الينبوت والخصدِ^٤
 يظلُّ من خوفه الملاحُ مُعْتَصِماً
 بالخيزُرانة ، بعد الأينِ والنَّجْدِ^٥
 يوماً بأجودَ منه سَيْبَ نافلةٍ
 ولا يحولُ عطاءُ اليومِ دونَ غدٍ
 هذا الثناءُ فإن تسمع به حسناً
 فلم أعرِّضْ أبيت اللعن بالصفدِ^٥
 ها إنَّ ذي عِذْرَةٍ إلا تكن نفعتُ
 فإنَّ صاحبها مُشاركُ النكدِ .

١ - تأثفك الأعداء؛ اجتمعوا حولك. الرغد : المعونة .

٢ - الأواذي : الأمواج . العبرين : الضفتين .

٣ - لجب : الطامي الكثير الماء . ركام : حطام متجمع. الينبوت والخصد :
نوعان من الشجر .

٤ - الخيزرانة : دفة السفينة . الأين : التعب . النجدة : الشدة .

٥ - ابیت اللعن : أبيت ان تأتي أمراً تلعن به الصفد العطاء .

هو ذا المديح الأصيل في عهد الجاهلية ، يبدأ بالوقوف على الأطلال ثم ينتهي الى ذكر الأحبة واستعراض ايام الهوى في ربوع الديار ، لينتقل بعد ذلك انتقالاً مفاجئاً الى وصف الناقة وتشبيهها بمحمار الوحش أو بشور من ثيران وجرة ، فاذا وفى الشاعر هذه الامور حقها من الوصف المفصل ، وثب الى غرضه ، فتحدث عن الممدوح وعما يضمن رضاه ، حديثاً فيه كثير من المبالاة والرياء لدى شعراء التكسب .

وها هو النابغة استاذ المديح في عهد الجاهلية يصف ديار مية بالعلياء فالسند . ويقف فيها عند الأصيل ، وقد انتشرت في الجو مظاهر الكآبة ، وبدت خيبة الآمال مع انتهاء نهار هو قطعة من عمر البشر . ويسأل الشاعر دار حبيبته عما حل بتلك الحبيبة فتعيا الدار عن الجواب ، ويغص النابغة بدمعة في عينه وحسرة في فؤاده . ويلقي نظرات على المكان فلا يرى فيه إلا الأوارى والنؤى والفراغ الخفيف ، ثم يهز برأسه ويجمجم بين شفتيه :

أضحت خلاء وأضحى أهلها احتملوا

أخنى عليها الذي أخنى على لبد

شعر جميل نابع من أعماق الفؤاد ، فيه مسحة البداوة وجمال الفطرة ، وصفاء السواء في الصحراء . ولكن النابغة لا يطيل الوقوف ، بل تتعجله الغاية فيرفع قنوده على ناقة عيرانة سمينة ، فتية في عمرها ، قوية في تسيارها ، جبارة في تحملها لمشقات

الطريق وحرارة الهجير ، كأنها ثور وحشي من ثيران وجرة .
ويترك الشاعر ناقته زمنًا ، ليصف الثور فيأتي على كل ما يظهر
قوته وسرعته . وتطول المقطوعة لديه حتى تبلغ أحد عشر بيتًا ،
وهي تحتوي على عراك الثور مع كلاب الصيد ، حتى إذا أشبع
النابغة هذه النقطة إيضاحًا ، انتقل الى الممدوح قائلًا :

إن ناقة مثل هذا الثور هي التي تبلغني النعمان ، ويمضي معدداً
فضائل الملك ، فهو كريم عم جوده البرية في الأدنى وفي البعد ،
ليس له بين الناس شبيه الا سليمان الحكيم الذي قد وسع الله
سلطته حتى شملت الجن والانس والطير وكل ما في الوجود .
وإذا مدح النابغة ملكاً ذكر عطاياه من مال الى خيل الى إبل الى
جوار ، ثم عمد الى تبيان غايته وهي هنا الاعتذار وطلب العفو
والغفران من الملك . والنابغة لبق في هذا الأمر فهو يطلب من
النعمان التروتي في الحكم ، ثم يبريء نفسه مما قذف به ، ويبين ضعفه
أمام الممدوح ليعود بعد ذلك فيتلاعب بعواطف الملك ويستغل
ميوله نحو العظمة والظهور فيزيد من مدحه بكرم النفس وكرم
اليد ، ويثني عليه ثناء كان الملك يستسيغه ويتمناه ، ليختم قصيدته
بشيء من التصاغر أمام النعمان ، وبمسكنة تستدر رحمة الملك
وتجتذب عفوه .

والذي يمتاز به هذا المديح ، هو سطحية المعاني وضآلة ما
يأتي به الشاعر من مظاهر العظمة وانصراف الشعراء الى الحشو
بقصص وأخبار وصور تساعد بعض المساعدة على إيضاح ما هم
بصدده . وفي هذا المدح سذاجة وفطرية وانعكاس لقيم الحياة

الجاهلية ، وصورة للمادح والممدوح ، ولجوانب متعددة من حياة
البدو في الصحراء . والقصيدة النابغية كسائر الشعر الجاهلي لا
تكون وحدة ، فهي أبيات مستقلة تتناول أغراضاً متباينة ،
وهي مع ذلك لا تخلو من جمال فني وعذوبة في الصياغة . والنابغة
ينتمي الى مدرسة المجودين في الشعر المتأنقين في صوغه فهو
يقلب الأبيات على وجوهها المختلفة ويتعملق فيه ويعيجه ويعني
بإخراج شعره حتى يوفر له جميع مظاهر الروعة الفنية التي عرفها
الجاهلي . وفي هذا الشعر خيال مصقول ونزعة حسية مادية
وأناة وروية وتدمت بدممات الحضارة في الشام والعراق .

المديح في عهد النبوة والراشدين

الشخصية الاسلامية :

إن أعظم حدث في حياة العرب ، كان - ولا ريب - ظهور الدين الاسلامي . ظهر هذا الدين مع محمد بن عبدالله ، سنة عشر وست مئة للميلاد ولكنه في الحقيقة لم يكن مجرد حركة روحية ، بل هو مجموع حركات انتظمت الى جانب الروح ، الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية ، وتمثلت فيها طاقات العرب التي كانت تتبلور يوماً بعد يوم وتتحفز للموثوب في أواخر العصر الجاهلي .

ونحن في هذا المقام ، لن نتحدث عن أثر الإسلام في حياة العرب من جميع جهاتها ، ولكننا سنهتم فقط بما كان للإسلام من مساهمة في تبدل الشخصية العربية ، وتعديل في المثل العليا التي كان فن المديح ولا يزال تغنياً بها ، وإشادة بمن هم عليها يحافظون .

إن أول ما يبتدرنا حين نستعرض معادلة الشخصية الاسلامية ،

هذا التغير في مفهوم وجود الفرد ، لا من حيث علاقته بالسما ،
- وان كان ذلك قد تغير أيضاً - بل من حيث علاقته بالأرض ،
وعلاقته بالناس الذين يحيا بين ظهرانيهم .

ذلك أن القبيلة في الاسلام قد ذابت كنظام اجتماعي سياسي ،
ديني أيضاً ، ولم يعد وجود الفرد رهناً بوجود قبيلته أو وقفاً
عليها كما كان في العصر الجاهلي . وانما طرأ على هذا المفهوم تعديلات :
أولها اتساع في مدى الروابط التي تشد الانسان الى أخيه الانسان ،
بحيث أن الأخوة لم تعد تقتصر على أبناء القبيلة ، بل تجاوزتهم
الى كل من يدين بالإسلام ، مهما يكن موطنه ولونه وجنسه .
وثانيها أن ذاتية الفرد قد نمت واتسع نطاقها واستقلت في كثير
من شؤونها تبعاً لما حمل الاسلام من تشريع مدني يساعد على يناع
الشخصية الفردية ، ضمن متسع من حياة الجماعة ويجعل الفرد
وجهاً لوجه أمام تبعات خاصة به ناشئة عن سلوكه كفرد حرّ
مستقل .

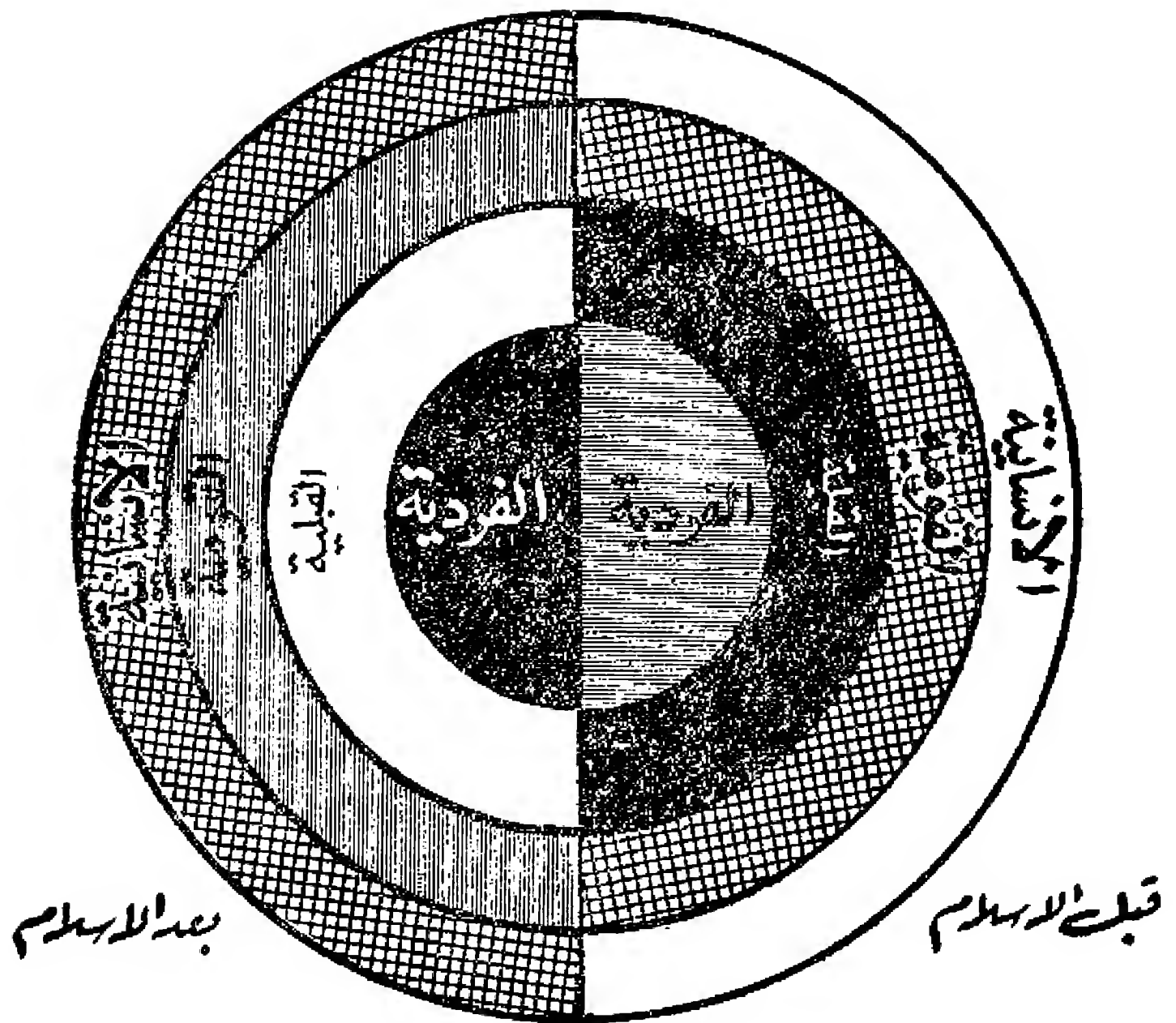
من هنا كان تحول في النظرة الى الرجولة ، وتحول في مسالك
الأشخاص وفي غاياتهم ، وفي مواقف الشعراء من قبائلهم ومن
ممدوحهم .

ولقد جاء الاسلام بمناقب جديدة مستمدة من تعاليمه
ونظمه ، وإن كان في هذه المواقف ما لا يختلف اختلافاً كبيراً
عن بعض ما كان الجاهليون يأخذون أنفسهم به . فمن المعطيات
الجديدة ، أن الحرة والزنى ، والاغارة على الآمنين ، والثأر ، لم
تعد موضعاً للفخار كما كانت زمن الجاهليين . ولم يعد النزق والطيش

والجهالة والفظاظة وقسوة القلب والكبرياء من مظاهر الفتوة .
أما حب الدماء وكثرة التقتيل ، ووأد البنات فقد
أضحت مآثم كريهة . ولقد خفف الاسلام كثيراً من أهمية
المظاهر المادية فلم يعد الغنى مجالاً للتباهي وموضوعاً للمديح . ولم
يعد ينظر الى أهل القصور والى المنعمين بالعيش ، بنفس المقياس
الذي كان ينظر اليهم به قبل ظهور الاسلام . بل أصبح ديدن
القوم « إن أكرمكم عند الله أتقاكم . » ولا فضل لعربي على عجمي
الا بالتقوى « فكل ما هو من مظاهر التقوى عد سبيلاً الى
المدح على نحو ما مدح الله أوليائه الصالحين : « قد أفلح المؤمنون ،
الذين هم في صلاتهم خاشعون ، والذين هم عن اللغو معرضون
والذين هم للزكاة فاعلون ، والذين هم لفروجهم حافظون » . « التائبون
العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون ، الآمرون
بالمعروف ، والناهون عن المنكر ، والحافظون لحدود الله ،
وبشر المؤمنين » على أن الشخصية الاسلامية قد حافظت أيضاً
على خصائص عربية أصيلة ، عرفها الجاهليون وأكبروها كما أكبرها
الاسلام . من هذه الخصائص : الكرم والضيافة ، وحسن الجوار ،
والمروءة والاباء والحلم والعفو والعدل والشجاعة والعفة ، ونكران
الذات والرصانة والوقار وما الى ذلك من صفات تصلح لأن
تكون مبادئ لتربية الانسان في كل قطر وجيل .

والحق أن شخصية العربي بعد الاسلام لم تكن نقيضاً لشخصيته
قبله بالمعنى التام لكلمة النقيض ، وإنما هنالك جوانب قد زالت من هذه
الشخصية لتحل محلها جوانب أخرى كما ان هنالك جوانب كانت ضعيفة

فقويت ، وجوانب كانت قوية فغدت على شيء من الضعف ، كما يبدو من الرسم التالي :



وقد يكون من المفيد ، أن نذكر في هذا المقام صفات الشخصية المثالية التي يدعو القرآن الى تكوينها .

المسلم مؤمن بالله وبرسوله وباليوم الآخر ، وهو تقي ورع متواضع ، زاهد بالدنيا ، أميل الى التقشف منه الى حب الرخاء ، في ماله «حق معلوم» للسائل والمحروم» يساعد اليتيم ، ويحاض على طعام المسكين ، ويغيث أبناء السبيل هو شجاع يجاهد في سبيل الله ، ويرحم الأسرى ، لا يمثل بعدوه ، ولا يهتك الحرمات ،

ولا يسرق ولا يكذب ، ولا يعتدي على جيرانه ، ولا يراي ولا يقامر ، ولا يزني ، ولا يأكل الميتة والدم ولحم الخنزير ، وهو رجل صبور على الملمات متفائل ، يخاف الله وغضبه ، ويحب الناس ويحترمهم ، ولا يريد لأخيه إلا ما يريد لنفسه . يحافظ على الصلوات ، ويقوم بشعائر الدين ، فيصوم ويؤتي ، ويحج إلى بيت الله ، ويستغفر ربه ، ويستجير برسوله ، يعمل لدنياه كأنه يعيش أبداً ، ويعمل لآخريته كأنه يموت غداً ، يكبح شهوات نفسه وبالأخص ما هو منها محرم ، ويسعى في مناكب الأرض فيأكل من طيبات ما رزقه الله ، وهو غيور على الدين وعلى الفضيلة ، محب للعلم منكر للذات ، أبيّ على الدنيئة .

شعر المديح في أيام النبي والراشدين :

إن النهضة الشعرية التي عرفها العصر الجاهلي قد استمرت آثارها في الاسلام . ولكن ظهور الدين الجديد ، قد رافقه بفعل الظروف التي أحاطت به بعض الفتور لدى شعراء العصر ، وذلك بسبب الحملة التي شنها القرآن على الكافرين الذين اتهموا محمداً بأنه شاعر وقالوا عن القرآن : إنه شعر ، وغايتهم من ذلك الحط من قدر رسالة محمد وإظهاره بمظهر المشعوذ الذي يريد أن يوهم الناس بأنه نبي يوحى اليه القرآن إحياء من لدن الله ، في حين أنه يستمدّه في زعمهم من شياطين الجن على نحو ما كانت الشعراء

يستمدون أشعارهم^١ . ولقد جاء في القرآن الكريم : « والشعراء يتبعهم الغاؤون ، ألم تر أنهم في كل واد يهيمون ، وإنهم يقولون ما لا يفعلون ؟ » .

« وما علمناه الشعر وما ينبغي له ، إن هو إلا وحي وقرآن كريم » « وما هو بشاعر مجنون » « وما ينطق عن الهوى ، إن هو إلا وحي يوحى » .

أمام هذه الظواهر ، لم يكن بدّ من أن يبتعد بعض المؤمنين عن نظم الشعر وأن يطلقوا حياة الغواية التي كانت لهم ، فينصرفوا عن التغني بالمفاسد الى الصلوات والتراتيل ، وتوحيد الله وتسبيحه وامتداح النبي ورسالته وتمجيد الأبطال والمجاهدين في سبيل الله . ولكن عدداً وفيراً قد أقلع عن نظم الشعر إقلاءً نهائياً . أما الشعراء غير المسلمين فقد عادوا النبي ، واتخذهم الكفار سلاحاً ضد الاسلام . فأخذوا يهجون محمداً ويهجون رسالته وأصحابه . ولا تسل عن أثر هذا الهجاء في صفوف المسلمين ، وفي إضعاف حركتهم خصوصاً اذا استعدت في ذاكرتك أهمية الشعر عند العرب

١ - كان الجاهليون قد لاحظوا ما في الشعر من التفاتات غير عادية ، فأرادوا أن يفسروا العبقرية الشعرية ، ولكن لم تكن ثقافتهم آنذاك تؤهلهم لأن يفهموا سر هذه العبقرية - وهو حتى اليوم ما يزال يكتنفه بعض الغموض - فردوا هذا الخارق الجميل الى قوى غير بشرية ، هي قوى شياطين الجن الذين كانوا ينفثون الشعر في ألسن الشعراء ، فكل شاعر له شيطان يلقيه شعره ، والشياطين جميعاً يقطنون في واد وهمي يسمى وادي عبقر ومن هنا كلمة العبقرية .

وتعويلهم على الجيد منه سواء أكان في الهجاء أم في المديح أم في الحكمة أم في أي غرض آخر . ومن أشهر هؤلاء الشعراء : عبد الله بن الزبيري ، وأبو سفيان بن الحارث وعمر بن العاصي . هنا وجد النبي نفسه في حاجة الى نصرته من نوع آخر ، هي نصرته غير مادية ، واضطر أن يحارب الكافرين بسلاح مثل سلاحهم . فاتخذ من حسان بن ثابت وكعب بن زهير ، وعبد الله ابن رواحة شعراء يردون على هجاة النبي ويسفهون قولهم ، ويذكرون مثالبهم ويفندون كل مزعم من مزاعمهم .

ذكر صاحب الأغاني ^١ « ان حساناً وكعباً كانا يعارضان هجاة النبي بمثل قولهم بالوقائع والأيام والمآثر ، ويعيرانهم بالمثالب . وكان عبد الله بن رواحة يعيرهم بالكفر . وكان في ذلك الزمان أشد القول عليهم قول حسان وكعب . وأهون القول عليهم قول بن رواحة . فلما أسلموا وفقهوا الاسلام كان أشد القول عليهم قول بن رواحة . » .

والمشهور أن أبا بكر وهو نسابة ضليع ، كان يمد شعراء الاسلام بما يحتاجون اليه من معلومات حول مواضع النقص ومواطن الغمز في كل شاعر كافر . ولكن عمل شعراء النبي ، لم يقتصر على هجاء الأعداء ، وإنما كان يتجاوزه الى امتداح النبي وصحبه ، وذكر فضائل الدين وما يحمل للناس من بركات وخير . والحق ، أن شعر المديح في هذه الآونة ، قد ضعف كثيراً ،

لأنه مظهر من مظاهر الأبهة والكبرياء والتعظيم ، وكلها أمور نهى عنها الدين ، وأوصى بالوداعة والتواضع وخفض الجناح . فالنبي مثلاً لم يكن يجب أن يمتدح بما كان يمتدح به الملوك ، بل كان يحث الشعراء للالحاح على معطيات تخص الدين ، وتساعد على نشره والتمكين له في الأرض .

وعلى هدي الرسول سار الخلفاء الراشدون ، بحيث لم نر بينهم من يجعل مجلسه ندوة للشعراء . نقول مجلسه ولا نقول بلاطه ، لأن الراشدين لم تكن لهم بلاطات ، ولم يكن لهم أي مظهر من مظاهر الملك المعروفة عند الأعاجم أو التي ستكون للأمويين والعباسيين من بعد . وهكذا لا يبرز أمامنا زمن النبي والراشدين شعر في المديح يستحق الذكر ما خلا المدائح التي قيلت في محمد ودينه .

من شعر حسان بن ثابت :

كان حسان من أهل يثرب ، وكان على صلة بالغساسنة في الجاهلية ، ثم على صلة بالنعمان الثالث أبي قابوس ملك الحيرة وصاحب النابغة الذبياني . كرّس جانباً من شعره للتكسب ، وجانباً آخر للمنافحة عن قومه الخزرج ، وفي هذا الجانب شعر غير قليل تهاجى فيه وقيس بن الخطيم شاعر الأوس في يثرب . أسلم حسان يوم دخل محمد يثرب مهاجراً كما أسلم قومه الخزرج وأندادهم الأوس . وكان من فضل الاسلام أن أضعف الى حد بعيد تلك المنافسة الشديدة التي عرفت بين الجماعتين ، فتوحدت

الكلمة ، وأصبح اليرثيون جميعاً انصاراً للنبي في كل شأن من شؤون الحياة . آووا المهاجرين ، وأطعموهم وأكرمهم ، وحاربوا معهم ضد الكفار وشاركوهم في السراء والضراء .

أما نصيب حسان من الجهاد ، فكان في حقول الشعر ، إذ وقف قريحته وبلاغته على الاسلام ، يرد عنه ويمدح نبيّه ، ويتغنى بوقائع المسلمين ، ويدعو القبائل الى اعتناق الدين الحنيف ، وإذا حدث أن انهزم المسلمون ، فإن حساناً كان يحوّل الهزيمة الى مجال للفخر بما لديه من حنكة وشاعرية .

ولقد عمر حسان كثيراً ، فقليل : إنه عاش في الجاهلية ستين سنة وفي الاسلام ستين سنة . وسواء صح هذا الخبر أو لم يصح ، فإن لحسان خدمات جليلة في سبيل الاسلام لا تنكر ، ومكانة أحيطت بهالة من التقديس والاحترام بسبب الشعر الكثير الذي نظمته درءاً عن الاسلام وتغنياً بنبيّه .

ومن أشهر قصائده في المدح الاسلامي ؛ ١ - تلك التي تحدث فيها عن فتح مكة فقال :

عَفَتْ ذَاتُ الْأَصَابِعِ فَالْجَوَاءُ
إِلَى عَذْرَاءَ مَنْزِلِهَا خَلَاءُ

ديارٌ من بني الحسحاسِ قفرٌ
تُعَفِّيها الرّؤّامسُ والسّماءُ .

١ - لن نتحدث في هذا المقام عن مديحه في الجاهلية .

وَكَانَتْ لَا يَزَالُ بِهَا أَنْيْنُ
 خِلَالَ مُرُوجِهَا نِيعْمٌ وَشَاءُ
 فَدَعَ هَذَا ، وَلَكِنْ مَنْ بِطَيِّفٍ
 يُؤَرِّقُنِي إِذَا جَاءَ الْعِشَاءُ ١
 عَدَمْنَا خَيْلَنَا إِنْ لَمْ تَرَوْهَا
 تَشِيرُ النَّقْعَ مَوْعِدَهَا كِدَاءُ ٢
 يُبَارِينَ الْأَسِنَّةَ مُصْغِيَاتٍ
 عَلَى اكْتِافِهَا الْأَسْلُ الظِّمَاءُ ٣
 فَاِمْتَا تُعَرِّضُوا عَنَّا اعْتَمَرْنَا
 وَكَانَ الْفَتْحُ وَانْكَشَفَ الْغَطَاءُ ٤
 وَإِلَّا فَاصْبِرُوا لَجَلَادٍ يَوْمٍ
 يُعِينُ اللَّهُ فِيهِ مَنْ يَشَاءُ ٥
 وَقَالَ اللَّهُ قَدْ يَسَّرْتُ جُنْدًا
 هُمْ الْأَنْصَارُ عَرَضَتْهَا اللَّتَاءُ

١ - الطيف : صورة الانسان الذي نراه في المنام . يؤرقني : يمنع عني النوم .

٢ - النقع : الغبار المتصاعد من المعارك . كداء : موضع في مكة من مقابر المكين .

٣ - الأسل : الرماح الطويلة .

٤ - اعتمر الحاج : ادى فريضته :

٥ - الجلاد : القتال الطويل .

لنا في كل من يوم معدّ
قتال أو سباب أو هجاء

فنحكم بالقوافي من هجائنا
ونضرب حين تختلط الدماء.

وقال الله قد أرسلت عبداً
يقول الحق إن نفع البلاء

شهدت به وقومي صدقوه
فقلتم ما نجيب وما نشاء

وجبريل أمين الله فينا
وروح القدس ليس له كفاء^١

ألا أبلغ أبا سفيان غني
فأنت مجوّف^٢ نخب^٣ هواء^٢

بأن سيوفنا تركتك عبداً
وعبد الدار سادتها الإمام^٣

هجوت محمداً فأجبت عنه
وعند الله في ذاك الجزاء

١ - ليس له كفاء ؛ ما من أحد يسأله في القدر .

٢ - نخب : فارغ .

٣ - بنو عبد الدار : اجداد امية - الاماء جمع امة وهي الرقيقة

السوداء .

أتهجوهُ ولستَ له بكُفٌ
فشرُّكمُ خَيْرُكمُ الفِداءُ

فمن يهجو رسولَ الله منكم
ويمدحه وينصره سواءُ

فإنَّ أبي ووالدهُ وعِرضي
لِعِرضِ محمدٍ منكم وقاءُ .

هذه عيّنة من شعر حسان في مديح النبي والذود عن الاسلام ،
والردّ على اعدائه . بدأها بوصف الديار ، ديار حبيبته في ذات
الأصابع والجواء وعذراء ، وكلها منازل للغساسنة في بلاد الشام .
ولكن الشيء الذي يلفت النظر هو هذا العفاء في مواطن الأحبة ،
وقد القى على المكان وشاحاً قاتم اللون ، وإذا الشاعر في كآبة تزداد
حدة لهذا الخلاء الذي يترك في فؤاده فراغاً مؤلماً ، ويزيد من حرارة
الشوق الى الحبيبة ومن ألم الفراق . ومعلوم أن الوقوف على الأطلال ،
ووصف ديار الأحبة ، زي قديم في الشعر العربي ، تزيّناً به الجاهليون
جميعاً ، ثم استمر في الاسلام يحياً ، تماماً كما كان في العصر الجاهلي ،
ذلك أن انتقال العرب بين ليلة وضحاها من جاهلية الى اسلام لم
يكن ليغير في جوهر الشعر العربي من حيث أصالته ، ومن
حيث عناصره الفنية .

ويمضي حسان في الحديث عن الديار ، فيذكر أن العفاء ناتج
عن تلاعب الرياح بها ، تحمل معها أتربة ورمالاً فترمس أرضها
وتغطيها بحيث لا يظهر منها أثر ، ثم تساقط الامطار من كبد

السماء ، فتكون عوناً للرياح على تعفية أطلال الأحبة . ويأسف الشاعر لخلو الدار . ولكن ترابط الأفكار يعود به الى الماضي ، فينصت للذكرى ، ويخيل اليه أنه أمام الديار العامرة من جديد وقد ضجت فيها الحياة ، وبات الانيس يضي على العيش لذادة ، وكأنك تسمع بأذنك ثغاء الشاء ، أو ترى بعينك الى الانعام تسرح في المروج وتمرح .

وتأتي ساعة اليقظة ، فيودّ حسان بن ثابت أن يدع هذه الذكريات وأن يعدّي عنها كما كان النابغة يعدّي عن أمثالها من قبل . ولكن ، أنسى له النسيان ، وفي ظلمة الليل بعد انتهاء السهر ، يزوره طيف الحبيب فيؤرقه ؟

وبعد وصف الطلول وتذكر الأحبة ، يتحدث حسان عن الخمر رابطاً بين الغرضين بفكرة مفادها أن في ثغر حبيبته ما يشبه الخمر طعماً ورائحة وفعلاً . ولكن الاسلام قد حرم شرب الخمر ، وحسان واحد من الذين امتنعوا عن تناولها ، إلا انه يذكرها في هذا المقام لغرض فني فقط ، ويلقي عليها تبعة المساوىء التي يأتيها القوم الخمورون .

أما الغرض الثالث في قصيدته ، فهو التحدث عن بطولات الانصار ومن معهم من المسلمين ، يمتطون خيولاً تثير النقع في الجو ، وتدخل مكة من جانب كداء^١ وأنها لصورة جميلة جداً تلك الصورة التي كنسى بها عن سرعة الخيول ، فجعلها تسابق

١ - ثنية الجبل التي في اصلها مقبرة مكة ومنها دخل الزبير يوم الفتح .

الرماح المسددة الى الاعداء من فوق ظهورها ، كأنما هي في
مباراة مع هذه الرماح ، تريد أن تسبق أسنة فرسانها ،
والأسنة الى دم الكفار ظماء .

ثم يلتفت الشاعر الى المكين الكافرين ، فيقول لهم : أنتم
أمام أمرين : إما أن تسكتوا عنا وتسالمونا ، فندخل مكة صلحاً
ونعتمر بالحج لأداء فريضة دينية ، وإما أن تحاربونا فنفتك
بكم بعون الله الذي يعز من يشاء ويدل من يشاء بغير حساب .
أما تعلمون أننا جند الله نصرنا دينه ونصرنا نبيه ، ونحن قوم
أقوياء في الحروب مجربون ، لنا في كل يوم حرب مع بني معد ،
وعلى رأس معد قريش ، حرب تكون قتالاً أو تكون سباً أو
تكون هجاء ، وفي الساحتين معاً ؛ ساحة الدماء وساحة الشعر
يكون حليفنا النصر ، ولا جرم ، فديننا من الله ، وعلى رأسنا
رسوله ، نبي جاء بالحق يبشر به الناس في سبيل نفع الناس .
آمنت به وآمن قومي كذلك ، وصدقوه ، فكانوا الى الخير سباقين ،
وأما أنتم فتلكأتم عن الايمان ، وعنتم ، فذوقوا من شر ما
كفرتم ، والله لا ينصر غير المؤمنين .

إن فينا لقوة ما من كفاء لها ، قوة الهدي يأتي بها جبريل
أمين الله وروح القدس الذي يدفع الشر عن الدين ، وعمن يلوذ
بهذا الدين . فيا أبا سفيان ، أهكذا أنت طبل أجوف لا قلب
لك ولا عقل ولا شجاعة ، هواء فارغ ، خال من كل قدر ،
تذكر سيوفنا وقد تركتك عبداً في يوم أحد بالذات ، يوم حمل
لواءكم إمام ، فيا العظيم قدركم حين ترأسكم الاماء . هجوت محمداً

يا هذا ، وما كان محمد ليلحقه هجاء ؛ وأنا أجبت عنه ، لأنني
لسانه ، ولأنني مهند في يمينه . جل محمد عن أن يردّ على هجاء .
وإذا كنت أنا قد فعلت ، فجزائي عند الله خير ، تالله كيف
تهجو محمداً ولست بكفاء له ، جعلت فداه أنت وأمثالك ،
وسواء مدحتموه أو هجؤتموه فانكم لا ترفعون من قدره ولا
تخفضون . اكبر بمحمد ان يكون لكم عليه أثر . وليعلم كل من
في البلاد بأن حسناً ووالد حسان ، ووالد والده وعرضه وكل
ما يملك وقاء لمحمد من أي قول خبيث .

من شعر كعب بن زهير :

تخرج كعب بن زهير في مدرسة الشعر كأحسن ما يمكن أن
يتخرج شاعر في الجاهلية . فكان أبوه شاعراً ، ووالد أبيه أبو
سلمى شاعراً أيضاً . وكان بشامة بن العذير شاعراً وهو خال
زهير ، ومثله أوس بن حجر زوج أم زهير ، أما عمتا كعب :
سلمى والخنساء فكانتا من أشهر من قال شعراً في الجاهلية .

عني زهير بابنه ، فروّاه شعره وشعر سواه ، ممن كان يروي
لهم كأوس بن حجر وطفيل الغنوي ، وكان يتشدد عليه فيمنعه
من النظم حق لا يروى له شعر ردىء . وكان يتهدده بالحبس
حيناً وبالضرب حيناً آخر إن هو لم يعمل بما يوصيه به أبوه .
وكان لكعب أخ اسمه بجير ، هو شاعر أيضاً . خرجا معاً

ذات يوم في غنمها فدار بينها حديث عن النبي محمد ودينه
الجديد . فقال كعب لبجير : الحق الرجل وأنا مقيم هنا فانظر
ما يقول ^١

فسار بجير الى النبي ، وسمع منه ، فأعجبه الدين الجديد ،
فأسلم . وكان ذلك حوالي السنة السابعة للهجرة . وعرف كعب
بإسلام أخيه ، فغضب ؛ ويقال إنه هجا الاسلام ونبىه بأبيات
دفعته محمداً الى ان يقول « من لقي منكم كعباً فليقتله » ^٢ .
وما ندري مبلغ الصحة في هذه الرواية ، ولا مبلغ الصحة في
الرواية التي تجعل بجيراً يردّ على أخيه بأبيات شعرية ، فيها تغنّ
بالاسلام وتنديد بالوثنية ، وبعبادة اللات والعزّى . على أننا نعلم
علم اليقين بأن النبي قد غضب فعلاً على كعب . ولما ضاقت بكعب
السبيل نظم قصيدته المشهورة في مدح النبي . وفي رواية لابن
حجر العسقلاني ^٣ عن كعب انه قال : « عرفت رسول الله صلى
الله عليه وسلم بالصفة ؛ فتخطيت حتى جلست اليه فأسلمت ، ثم
قلت : الامان يا رسول الله ، أنا كعب بن زهير » فأمنه الرسول
وتلا قصيدته بين يديه وفيها رائحة تعريض بالانصار فعندما فرغ
من تلاوتها قال له النبي : « ألا ذكرت الانصار بخير ، فان
الانصار لذلك أهل ، وقال المهاجرون ، ما مدحنا من هجا

١ - الاغانى . ج ١٥ . ص ١٤٩ .

٢ - الاغانى . ١٥ - ص ١٤٩

٣ - من كتاب الاصابة في تمييز الصحابة - ج ٥ . ص ٣٠٣

الانصار فنظم كعب في الانصار قصيدة رائية جاء فيها :

من سرّه كرمُ الحياةِ فلا يزل
في مقنّبٍ^١ من صالحى الانصارِ
ورثوا السيادةَ كبراً عن كبرٍ
إن الخيارَ همُ بنو الأخيارِ
الناظرين بأعْينٍ مُحمرّةٍ
كالجمرِ غيرِ كيلةِ الأبصارِ
والذائدين الناس عن أديانهم
بالمشرفي وبالقنا الخطّارِ .
والباذلين نفوسهم لنبيّهم
يومَ الهياج وقبةِ الجبارِ
يتطهرون كأنه نُسكٌ لهم
بدماءٍ من علقوا من الكفارِ

وواضح أن كعباً قد امتدح الانصار بكرم الحياة، وبالصلاح، وبالسيادة المتوارثة والخير والتقوى والذود عن الدين والجهاد في سبيل الله وبذل النفس للنبي في كل يوم عصيب ، والقضاء على الكفر وأهله الى ما هنالك من مثل جديدة كانت قد نشأت بفعل الحركة التي قام بها محمد بن عبد الله في أرض العرب .

أما القصيدة التي نعول عليها كثيراً ونعتبرها من أشهر قصائد كعب ، فهي لامية في مدح النبي التي أنشده إياها يوم أسلم

١ - العدد ما بين الثلاثين والاربعين .

فأعجب النبي بشعر كعب ، وخلع عليه بردته التي أصبحت موضوعاً للأساطير كثيرة ، منها أن معاوية اشتراها من أبناء كعب بعشرين ألف دينار ، ومنها أنها ظلت تتوارث ويلبسها الخلفاء من الأمويين الى العباسيين حتى أحرقها هولاكو المغولي . وبعضهم يذهب الى أنها لم تحرق في بغداد بل انتقلت الى مصر ، ومنها الى الآستانة أيام خلفاء بني عثمان .

على أن الثابت هو كون القصيدة قد بلغت من الشهرة ما لم يبلغه كثير من جيد الشعر العربي وسميت بقصيدة البردة وقد عارضها البوصيري تحت عنوان « دخر المعاد في معارضة بانة سعاد » ومطلعها :

الى متى أنت بالذات مشغول

وانت عن كل ما قدمت مسؤول

كما شطرها عدد غير قليل من الشعراء ، واهتم بها شارحون والناشرون والمترجمون ، فكانت لها شروح كثيرة وطبعات كثيرة ، وترجمات لاتينية للمستشرق Gerardus Joannes lette (١٧٤٨) وفرنسية للمستشرق A. Raux وللمستشرق René Bosset وبولونية من عمل سكوبا- بيكوسلاوسكي والمانية نثرية لويل Weil وشعرية لروكرت Rükert وإنكليزية لرد هاوس Red House وإيطالية لكبريالي gabrielli وفارسية للسكاملي ، وتركية للملحق زاده .
وهناك القصيدة موضوع حديثنا .

أ - الغزل ووصف الديار

بانتُ سعادُ فقلبي اليوم متبولُ
متيمٌ إثرَها لم يُفد مكبولُ^١
وما سعادُ غداة البين اذ رحلوا
إلا أغنُ غُضِيضُ الطرف مكحولُ^٢
تجلو عوارض ذي ظلمٍ إذا ابتسمتُ
كأنه منهلٌ بالراح معلولُ^٣
شجّت بذي شيمٍ من ماءٍ مُحْنِيَةٍ
صافٍ بأبطحٍ أضحى وهو مشمولُ^٤
تنفي الرياحُ القذى عنه وأفرطه
من صوب ساريةٍ بيضٍ يعاليلُ^٥

-
- ١ - بانت : فارقت . متبول : من التبل وهو الهيام حتى المرض والضعف .
متيم . مذلل بالحُب . مكبول : مقيد .
- ٢ - أغن : صفة للغزال الذي في صوته غنة . غضيض الطرف : فافر النظر . مكحول : في جوانب عينيه سواد .
- ٣ - جلا السيف : ازال عنه الصدا . العوارض : الاسنان التي تلي الانياب . الظلم . ماء الاسنان .
- ٤ - شجت : مزجت . الشيم : البرودة . المحنية : منعطف الوادي -
الابطح : المسيل المتسع . مشمول : اصابته ريح الشمال .
- ٥ - القذى : ما يقع في الماء فيكدره . افرطه : ملأه . الصوب : المطر .
السارية السحابة . اليعاليل : السحب الطويلة .

أَكْرَمُ بِهَا 'خَلَّةٌ' لَوْ أَنَّهَا صَدَقَتْ
مَوْعُودَهَا أَوْ لَوْ أَنَّ النَّصِيحَ مَقْبُولُ

لَكِنَّهَا 'خَلَّةٌ' قَدْ سَيَّطَ مِنْ دِمِهَا
فَجَعُ 'وَوَلَعُ' وَإِخْلَافُ 'وَتَبْذِيلُ' ١

فَمَا تَدُومُ عَلَى حَالٍ تَكُونُ بِهَا
كَمَا تَلَوْنَ فِي أَثْوَابِهَا الْغُولُ ٢

وَلَا تَمْسُكُ بِالْعَهْدِ الَّذِي زَعَمْتَ
إِلَّا كَمَا 'يُمْسِكُ' الْمَاءَ الْغَرَابِيلُ

فَلَا يَغُرُّنَكَ مَا مَنَنْتَ وَمَا وَعَدْتَ
إِنَّ الْأَمَانِيَّ وَالْأَحْلَامَ تَضْلِيلُ

كَانَتْ مَوَاعِيدُ 'عُرْقُوبٍ' لَهَا مِثْلًا
وَمَا مَوَاعِيدُهُ إِلَّا الْأَبَاطِيلُ ٣

أَرْجُو وَأَمَلُ أَنْ تَدْنُو مَوَدَّتِهَا
وَمَا إِخَالُ كَلِينَا مِنْكَ تَنْوِيلُ ٤

. . .

١ - الخلة : الصديق والصديقة - سيط : خلط .

٢ - الغول : كل ما اغتال الانسان فأهلكه . وعند العرب حيوان

خرافي يتلون الواناً مختلفة ويفترس الناس .

٣ - عرقوب : رجل من يثرب يضرب المثل باخلافه الوعد .

٤ - التنييل : العطاء .

أمست سعادُ بأَرْض لا يُبلِّغها
 إلا العِتاق النّجّياتُ المراسيلُ^١
 ولن يبلِّغها إلا عُدافِرَة^٢
 فيها على الأئِن إرقالُ^٣ وتبغيلُ^٤
 من كل نضّاخَة الذّفرى إذا عرقتُ
 عُرَضَتُها طامس الإيلام مجهولُ^٥
 ترمي الغُيوب بعينَي مُفردٍ لَهقٍ
 إذا توقّدت الحزّانُ والميلُ^٤
 ضخَمُ^٥ مُقلّدُها معم مقيدُها
 في خلقها عن بنات الفحل تفضيل
 غلباءُ وجناء علكومُ مذكرةُ^٥
 في دفّتها سعةُ^٥ قدّامها ميلُ^٥

-
- ١ - العتاق : النوق الكريمة التي عتقت من العيوب . المراسيل : السهلة القوائم في السير .
 ٢ - العذافرة : الصلبة القوية . الأئِن : التعب . الارقال : السير السريع . التبغيل : سير البغال .
 ٣ - النضاخة : كثيرة السيلان فوق النضخ . الذفرى : ما تحت اذن الناقة . عرضتها : همها . الطامس : المدرس من الطرق .
 ٤ - الغيوب : كل ما غاب عن العين : المفرد : صفة للثور الوحشي - لهق : شديد البياض . الحزّان : جمع حزين وهو الأرض الصلبة الغليظة . الميل : جمع اميل وميلاء . ما تراكم ومال من الرمل .
 ٥ - غلباء : غليظة الرقبة . وجناء : عظيمة الوجنتين . علكوم : ضخمة . مذكرة : تشبه الذكر . الدف : الجنب . قدّامها ميل : عنقها طويل

وجلدها من أطوم لا يؤئسه
 طلع^١ ، بضاحية المتنين مهزول^١
 حرف^٢ أخوها أبوها من مهبجنة
 وعمها خالها قوداء^٢ شمليل^٢
 يمشي القراد عليها ثم يزلقه^٣
 منها لبان^٣ وأقرب^٣ زهاليل^٣
 عيرانة^٤ قدفت بالنحض عن عرض^٤
 مرفقها عن بنات الزور^٤ مفتول^٤
 كأنما فات عينيها ومذبحها
 من خطمها ومن اللحنين برطيل^٥
 تمر^٦ مثل عسيب النخل ذا خصل^٦
 في غارز^٦ لم تخونه الأحاليل^٦

-
- ١ - الأطوم : السلحفاة البحرية . لا يواسيه : لا يؤثر فيه . الطلع : قمل الحيوان . ضاحية المتنين : ما برز للشمس من ظهرها .
 ٢ - الحرف : الناقة الضامرة . مهبجنة : مؤصلة . قوداء : طويلة العنق . شمليل : خفيفة .
 ٣ - القراد قمل الحيوان . اللبان : الصدر . الأقرب : الخواصر . الزهاليل : جمع زهلول وهو الأملس .
 ٤ - عيرانة : صلبة كالعير . النحض : اللحم الكثيف . العرض : الجهة . المرفق : موصل الذراع بالعضد . بنات الزور . الاضلاع .
 ٥ - فات : تقدم . الخطم مقدم الأنف . البرطيل : الحجر الطويل .
 ٦ - عسيب النخل : الجريدة منه . الغارز : الضرع . لم تخونه : لم تنقصه الأحاليل : جمع إحليل وهو مخرج اللبن من الثدي

قنواء في حرّتها للبصير بها
 عتق مبين وفي الخدين تسهيل^١
 تخدي على يسرات وهي لاحقة^٢
 ذوابل مسهن الأرض تحليل^٣
 سمر العجايات يتركّن الحصى زيماً
 لم يقنهن رؤوس الأكم تنعيل^٤
 كأن أوب ذراعها إذا عرقت
 وقد تلفّع بالقور العساquil^٥
 يوماً يظلّ به الحرباء مصطخداً
 كأن ضاحيه بالشمس مملول^٥
 وقال للقوم حاديههم وقد جعلت
 ورق الجنادب يركضن الحصى قيلولاً^٦

-
- ١ - قنواء ؛ مؤنث اقنى ، وهو ما في انفه حذب . الحرة ؛ الاذن .
 ٢ - تخدي ؛ تسير بسرعة . اليسرات ؛ القوائم الخفاف . لاحقة ؛ ضامرة .
 ذوابل ؛ يابسة . تحليل ؛ قليل .
 ٣ - العجايات ؛ عصب قوائم الأبل والخيول . الزيم ؛ المتفرق الأكم ؛ جمع أكمة :
 المرتفع من الارض . التنعيل ؛ الحديد في الحوافر .
 ٤ - الأوب رجع اليدين وسرعة الحركة . القور ؛ الهضاب المرتفعة ؛
 العساquil ؛ جمع عسقول وهو السراي .
 ٥ - مصطخداً ؛ محترقاً ؛ من صخده الشمس . ضاحية ؛ ظاهرة .
 مملول ؛ موضوع في الملة اي الرماد الحار .
 ٦ - الورق ؛ جمع اوراق وورقاء ؛ الاغبر . قيلولوا ؛ استريحوا في القائلة .

شدَّ النهارِ ذراعاً عيطلٍ نَصَفٍ
 قامت فجأوبها 'نكد' مَثَاكِيلُ ١
 نوّاحةٌ رخوةٌ الضّبعين ليس لها
 لما نعى بكرها الناعون معقولٌ. ٢
 تفري اللّبان بكفّيتها ومِدرعُها
 مُشَقَّقٌ عن تراقِيا رعاييلُ. ٣
 تسعى الوشاةُ جَنَابِيا وقولهُمُ
 إنك يا ابن أبي 'سلمى' لمقتولٌ ٤
 وقال كل خليلٍ كنتُ آمِلُهُ
 لا أُلْهِينَكُ إني عنك مشغول
 فقلتُ خلّوا سبيلي لا أبالكمُ
 فكلُّ ما قدّر الرحمنُ معقولُ
 كلُّ ابن أنثى وإن طالّت سلامتهُ
 يوماً على آلهٍ حدباءُ محمولُ
 . . .

١ - شد النهار : اي في وقت ارتفاع النهار . العيطل : المرأة الطويلة .
 النصف : المتوسطة في السن . قامت : اخذت تبكي . النكد : جمع
 نكداء ، وهي التي لا يعيش لها ولد .

٢ - الضبعان العضدان . بكرها : اولادها .

٣ - تفري : تشق . اللبان : الصدر . التراقي : جمع ترقوة : وهو
 اعلى عظم الصدر مما يلي الكتف . الرعاييل : جمع رعايل : القطعة
 المتمزقة .

٤ - جنابيا : ناحيتها .

نَبَّئْتُ أَنْ رَسُولَ اللَّهِ أَوْعَدَنِي
وَالْعَفْوُ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ مَأْمُولٌ

مَهْلًا - هَذَا الَّذِي أَعْطَاكَ نَافِلَةً أَلَا
قُرْآنٍ فِيهِ مَوَاعِظٌ وَتَفْضِيلٌ

لَا تَأْخُذْنِي بِأَقْوَالِ الْوَشَاةِ وَلَمْ
أُذْنِبْ وَإِنْ كَثُرَتْ فِي الْأَقَاوِيلِ

لَقَدْ أَقُومُ مُقَامًا لَا يَقُومُ بِهِ
أَرَى وَأَسْمَعُ مَا لَوْ يَسْمَعُ الْفِيلُ

لَظَلَّ يُرْعَدُ إِلَّا أَنْ يَكُونَ لَهُ
مَنْ الرِّسُولُ بِإِذْنِ اللَّهِ تَنْوِيلٌ ١

مَا زِلْتُ أَقْتَطَعُ الْبِيدَاءَ مُدَّرَعًا
جَنَحَ الظَّلَامِ وَثُوبَ اللَّيْلِ مَسْبُولٌ

حَتَّى وَضَعْتُ يَمِينِي لَا أَنَا زَعَمَهَا
فِي كَفٍّ ذِي نَقَمَاتٍ قِيلَهُ الْقِيلُ ٢

لِذَاكَ أَهْيَبُ عِنْدِي إِذَا أُكَلِّمُهُ
وَقِيلَ إِنَّكَ مَنْسُوبٌ وَمَسْئُولٌ

١ - التَّنْوِيلُ : الْعَطَاءُ ، وَقَدْ أَرَادَ بِهِ الْعَفْوُ وَالْأَمَانُ .

٢ - وَضَعْتُ يَمِينِي : يَشِيرُ إِلَى مَصَافِحَتِهِ لِلنَّبِيِّ . ذِي نَقَمَاتٍ : وَفِي رِوَايَةٍ

أُخْرَى ذِي نَعَمَاتٍ .

من خادرٍ من ليوثِ الأرض مسكنه
 من بطنٍ عَثَرَ غِيلٌ^١ دونه غيلٌ^١
 يغدو فيلحمٌ^٢ ضرغامين عيشهما
 لحمٌ^٢ من القوم مغفورٌ خراذيلٌ^٢
 إذا يساورُ قرنًا لا يحلُّ له
 أن يترك القرنَ إلا وهو مجدولٌ
 منه تظلُّ سباعُ الحيِّ ضافرةً
 ولا تمشي بواديه الأراجيلُ^٣
 ولا يزالُ بواديه أخو ثقةً
 مطرَحُ البزِّ والدرسان مأكولٌ^٤

مدح المهاجرين من قريش:

إنَّ الرسولَ لسيفٌ يستضاء به
 مَهْنَدٌ^١ من سُيُوفِ الله مسلولٌ

-
- ١ - الخادر : الأسد في خدره ، أي في عرينه . عثر : مكان في اليمن .
 الغيل : الأجمة .
 ٢ - يغدو : يخرج في أول النهار . يلحم يطعم لحماً . ضرغامين : أسدين
 (شبل الأسد) . مغفور : مطروح على التراب . خراذيل : قطع صغيرة
 من اللحم .
 ٣ - الجو : الوادي الواسع . ضامرة : ساكنة . الأراجيل : الذي يسرون
 على أرجلهم .
 ٤ - أخو ثقة . موثوق بشجاعته . مطرَحُ : مطروح . البز : السلاح
 الدرسان : الاثواب البالية .

في عصبَةٍ من قريشٍ قال قائلهم
 ببطنِ مكّةٍ لما أسلموا زُولُوا^١
 زالوا فما زالَ أنكاسٌ ولا كُشفٌ^٢
 عند البقاءِ ولا ميلٌ مَعازيلُ^٣
 شَمُ العرّانينِ أبطالُ لبوسِهمُ^٤
 من نسجِ داوود في الهيّجا سراويلُ^٥
 بيضٌ صوابغٌ قد سُكَّتْ لها حلقُ^٦
 كأنه حَلَقُ القفعاءِ مجدولُ^٧
 لا يفرّحون إذا نالت رماحُهمُ^٨
 قوماً ، وليسوا مجازيعاً إذا نيلُو
 يمشون مَشيَ الجمالِ الزُّهرِ يعصمُهمُ^٩
 ضربٌ إذا عرّدت السُّود التّنايلُ^{١٠}
 لا يَقَعُ الطعنُ إلا في نحورِهمُ^{١١}
 وما لهم عن حياضِ الموتِ تهليلُ .

١ - زولوا : أي هاجروا ، واطرّكوا البلاد .

٢ - أنكاس : ضعفاء . كُشف : جمع أكشف ؛ وهو الذي ليس معه
 ترس . ميل : جمع أميل ؛ من لا يحسن الفرسية . معازيل : جمع معزال ؛ وهو
 الذي لا سلاح معه .

٣ - شَم العرّانين : انوفهم عالية .

٤ - صوابغ : جمع السابغة وهي الدروع . القفعاء : نبات ينبسط على
 الأرض له حلق كحلق الدروع .

٥ - عرد ؛ جبن . التنايل : جمع تنبال وهو القصير .

يطالعنا في هذه القصيدة منهج عربي قديم ، عرفناه في
الجاهلية لدى معظم الشعراء وعرفناه بنوع أخصّ لدى أبي امامة
النابعة الذبياني في اعتذارياته .

هذا المنهج ليس مقتصرأ على موضوع القصيدة ، بل ينتظم
أيضاً مظاهر التعبير وأسلوب القصيد .

أما موضوع الشعر فهو في أساسه مدح واعتذار . ولكن
الشاعر قد سلك اليه مسلك الغزل ، ووصف الديار ؛ ثم انتهى
الى وصف الناقة في أبيات طويلة ومنها تخلص الى المديح ،
مديح النبي ومديح المهاجرين ، واعتذر الى الرسول عما بدر
منه ، وخفف له جناحه ، مما يدل على أن توبة كعب وإسلامه
كانا صادقين كل الصدق .

ولم تكن المعاني التي جاء بها جديدة كل الجدة ، فهي في
معظمها معان شائعة بين شعراء العصر ، تتلمذ فيها كعب بن زهير
لأبيه وللنابعة الذبياني بنوع أخص ، كما اشترك فيها مع سواه من
أمثال طرفة والأعشى وامرئ القيس وليبد ، لا سيما في القسم
الغزلي وفي وصف الناقة .

وما حكاية الغزل في شعر كعب ، سوى حكاية فراق إثر
ترحل لسعاد حبيبته فغدا متبول القلب ، هائماً متيماً قيده حبه
لفتاة هي كالغزال في حسننها ، غناء الصوت ، غضيضة الطرف ،
مكحولة العينين ، ذات ثغر أسنانه بيضاء مجلوة . فيه رضاب
كأنه منهل بالراح ، مازجه ماء قراح أخذ من غدير ضربته ريح
الشمال ، فأمسى بارداً عذباً ليس فيه قذاة تكدره ، هطلت

عليه ديمة من سحابة بيضاء ، فغدا لذّة للشاربين .

أكرم بسعاد حبيبة لو أنها صدقت في وعدها أو قبلت نصح
الناصحين . ولكنها من أولئك الفتيات المداحيات اللاتي يتلاعبن
بقلوب الرجال ثم يتغيرن ويخلفن بوعودهن ، حتى أنها لا تمسك
عهوداً تقطعها على نفسها إلا كما تمسك الغرابيل ماء ، فمن أين
للرجاء لديها تحقق .

نأت حبيبة الشاعر عنه ، فكيف يبلغها ؟ إنها الناقة سفينة
الصحراء هي التي توصله الى بغيته كما أوصلت أسلافه من قبل .
أوصلت النابغة وأوصلت طرفة ، وأوصلت الأعشى ومن فرى
فريتهم من الجاهليين .

ويمضي الشاعر في وصف ناقته ، فيطول نفسه ، وتجدود
قريحته ، وما ذلك إلا لأن حديثه يتناول شيئاً عزيزاً عليه ،
فيفيض في وصف الناقة ؛ من سرعتها الى قدرتها على السير في
الأماكن المجهولة ، الى صبرها في المفازات ، الى ضخامتها ومثانة
أعضائها وقوة أعصابها ، الى كرم أصلها ، وكثرة لحمها وشحمها ،
الى مزاياها وجمال أعضائها كالأنف والذيل والعنق والمثن والقوائم
والبطن الى ما هنالك من أوصاف للناقة الكريمة ، وبعدها ينتهي
الى مدح النبي ، متخلصاً اليه بأبيات قليلة ، تصور جزعه وقلقه
على أثر وعيد من النبي جاء فيه : « اذا لقيتم كعباً فاقتلوه » وتعيد
الينا ذكرى النابغة حين أهدر النعمان دمه فاعتراه الخوف وضافت
به أرجاء الأرض وصور ذلك في شعر جيد جعل النقاد يقولون :
« أشعر الشعراء النابغة اذا رهب » . حاول كعب أن يستجير

بأصحابه ، فما أجاروه وسلم أمره الى الله ورجا عفو النبي ، ثم اعتذر
اليه بمثل اعتذار النابغة ، مردداً صيغاً ومعاني شبيهة بما قاله أبو
أمامة من قبل طالباً الى النبي ألا يأخذه بأقوال الوشاة . على ان
الفرق بين الاعتذارين إنما يكمن في تلقيح ما قاله كعب بلفاح من
الاسلام وتعاليمه فاذا أنت أمام شاعر يقول للنبي :

مهلاً هداك الذي أعطاك نافلة الـ قرآن فيه مواعيط وتفصيل
ان الرسول لسيف يستضاء به مهند من سيوف الله مسلول
في حين أن النابغة أقسم يمينا وثنية فقال :

فلا لعمر الذي مسحت كعبته وما هريق على الأنصاب من جسد
على أن أكثر ما في المديح والاعتذار مشترك بين الرجلين .
وقد أضاف كعب الى مديح النبي مديح المهاجرين من قريش
فوصفهم بالاخلاص والشجاعة والنبيل والرصانة والحنكة في
الحروب والصدق والصبر على الشدائد . ولهذا الشاعر قصائد
كثيرة في المديح الاسلامي ، نثبت منها الأبيات الآتية في مديح
الانصار .

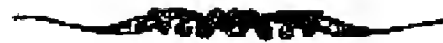
من سرّه كرم الحياة فلم يزل	في مقنب من صالحى الانصار
ورثوا السيادة كابراً عن كابر	ان الخيار هم بنو الأخيار
الناظرين بأعين محمرة	كالجمر غير كلية الأبصار
والذائدين الناس عن أديانهم	بالمشرفى وبالقنا الخطار
والبازلين نفوسهم لنبيّهم	يوم الهياج وقبة الجبار
يتطهرون كأنه نسك لهم	بدماء من علقوا من الكفار

صدموا الكتيبة يوم بدر صدمة ذلت لوقعتها رقاب نزار
واذا حلت ليمنعوك اليهم أصبحت عند معاقل الأعفار
لو يعلم الأقوام علمي كله فيهم لصدقني الذين أماري

فانت ترى في هذا المديح إعظاماً للأنصار ونعتاً لهم بالصلاح
والسيادة التي ورثوها كابراً عن كابر . إنهم من خيار الناس
وأشجعهم وأقواهم ، يذودون عن دينهم بسيوف مشرفية ورماح
طويلة صلبة . لأنهم بذلوا نفوسهم الكريمة في أشدّ الايام هولا
وأعظمها خطراً .. ومن دماء الكافرين كانوا يتطهرون . لله
درهم في يوم بدر ، حين صدموا الكفار صدمة ذلت لها رقاب من
كانوا يعادون الاسلام وله يكيدون .

لا ريب في أن بعض التغير قد طرأ على شعر كعب بعد أن
دخل في الاسلام . تغير نلمس أثره في بعض المعاني التي كانت
وليدة أحداث الحياة آنذاك ، وفي بعض النفحات الدينية التي
صبغت الشعر بصبغة من الهدوء والترصّن والخلق الحميد ، والاتجاه
نحو العفة والوقار ، وهذه حال جميع الشعراء تقريباً ، الذين
اعتنقوا الاسلام ديناً . ولا ريب في ان المثل العليا في الاسلام قد
أضافت الى شعر المديح مادة ومعاني جديدة . غير أن النهج
الشعري بقي هو هو . وكأنما كان للشعر العربي دائرة مقفلة ،
الشعراء في داخلها يتحركون من غير أن يحرؤ واحد منهم على
تحطيم الاطار ، والخروج منه الى آفاق جديدة غير التي قد
جاسها الأقدمون .

وهكذا نرى كعباً بن زهير يسير على نهج سالفه ويترسّم
خطى النابغة مستمداً منه مدداً في التعبير ومدداً في الفكر ،
تحقيقاً لما كان لدى الشعراء الذين عاصروه والذين جاءوا بعده
كذلك من نزعة نحو التقليد ونحو المحافظة على قيم هي في نظرهم
عنوان الكمال .



المدّيح في العصر الأموي

لمحة تاريخية :

قد يكون من المفيد ، قبل التحدث عن ظروف العصر الأموي ، ربط أحداثه بما كان مهداً لها من قبل .
ما إن قبض الرسول الى رحمة ربه ، حتى وجد المسلمون أنفسهم أمام مشكلة كبرى تتطلب الاسراع في الحل وتقتضي الحكمة . ذلك أن النبي قد ترك بعده فراغاً كبيراً شعر المسلمون بخطرهِ . فانبرت فئات منهم تسعى الى إيجاد من يخلفه في حكم المسلمين وفي إمامتهم الدينية .

ومن أول المبادرين إلى هذا العمل كان الانصار ، أهل المدينة . اجتمعوا في مكان يدعى سقيفة بني ساعدة ، وأرادوا أن يولّوا بعد النبي رجلاً منهم ولكنهم اختلفوا بين أوس وخزرج .

وعلم بأمر الاجتماع أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب ، وأبو عبيدة بن الجراح وجميعهم من صحابة الرسول ، ومن خلصائه

ومن القرشيين المهاجرين معه ومن الدهاة كذلك . فسارعوا الى السقيفة ، واطلعوا على ما كان يدور فيها ، وبلعبة سياسية ناجحة من عمر بن الخطاب وأبي بكر ، ببيع لأبي بكر بالخلافة ، وأعلن ذلك على الملأ .

وتقاطر الناس إلى الصديق يبائعونه ، وحمل أبو بكر على عاتقه تبعة حكم المسلمين ، وإكمال ما كان قد بدأه من إرساخ لقواعد الدولة وتبشير بدين الله ، وتنظيم للحياة في مختلف مرافقها .

غير أن علياً لم يبائع أبا بكر ، اعتباراً منه أن الخلافة له ، بناء على وصية صريحة من النبي محمد . فأبو بكر يكون قد خالف وصية النبي وطمع بما ليس له حق فيه . وكما امتنع عليّ عن المبايعة ، امتنع كذلك قوم من الهاشميين أصحاب علي وأقاربه .

ومن هنا بدأ الصراع السياسي بين المسلمين . ولكن روح التقوى وقرب العهد بالاسلام ، وظلّ النبيّ الذي بقي مخيماً فوق الصحابة مدة من الزمن ، كلها عوامل ساعدت على إخفاء الضغائن وعلى تخفيف حدتها بحيث أن علياً قد عاد الى مبايعة أبي بكر بعد موت فاطمة على أثر مصالحة قد جرت بينهما . وتقدم عليّ مخلصاً لخدمة الدولة ولخدمة الدين . فساعد أبا بكر ، وتولى القضاء في المدينة ، وهو بعد أقضى الناس وأفهمهم بالشرعية وحقيقة الدين .

والذي لا يجوز أن يغفل ، هو أن أبا بكر كان رجل دولة

بالفعل ، وكان جديراً بتولي الخلافة . فقام بأعبائها خير قيام ، الى أن حضرته الوفاة . فجاءه نفر من وجهاء المسلمين وسألوه : لمن توصي بعدك بالخلافة فقال من غير تردد : «لعمري الخطاب» . وهكذا بويع لعمر ، فتسلم مقاليد الحكم نحواً من سبع سنوات كانت من أخصب أيام الدولة الراشدية ، ومن أكثر العهود تمكيناً لدولة المسلمين في الأرض . ولم يكن علي راضياً كل الرضى عن تولي عمر الخلافة ولكنه كظم غيظه أيضاً ، وساعد عمر في كثير من الشؤون . ولعلّ عدل عمر وحزمه وإخلاصه لقضية المسلمين ، وذكاءه في توجيه السياسة وانتصاراته التي أحرزها في مختلف الحقول ، هي التي جعلت المعارضة تسكت طيلة حكمه ، حتى إذا دنت منه المنية ، سأله القوم عن يولي بعده ، فقال : اجعلوا الامر شورى بين ستة من الرجال قد مات النبي وهو عنهم راض : علي بن أبي طالب ، وعثمان بن عفان ، وسعد بن أبي وقاص ، وطلحة والزبير ومحمد بن أبي بكر - وتفادياً للانشقاق في حال وقوف ثلاثة ضد ثلاثة ، اجعلوا بينهم عبد الله بن عمر ، على أن لا يكون له من الامر شيء .

وبعد موت عمر ، اجتمع المتشاورون ، وكانت الأنظار موجهة نحو اثنين منهم : علي وعثمان . فعرضت الخلافة على عليّ شرط ان يسير بها حسب ما سار بها سلفاه (ابو بكر وعمر) فقبل تولي الخلافة ، ولكنه رفض أن يترسم بها خطى سابقيه . ولعل هذا الرفض دليل على أن علياً كان يرى ضرورة التعديل في نظام الخلافة ، وأسس الحكم عند المسلمين .

إزاء هذا الوضع ، عرضت الخلافة على عثمان بنفس الشروط ،
فقبلها ، وهكذا ببيع له .

تري ، هل كان المتشاورون متفقين ضمناً على إخراج عليّ من
الخلافة ؟ وهل اختارهم عمر بطريقة تكفل إبعاد عليّ وتولية
عثمان ؟

ليس من ذلك شيء ثابت . ولكن الثابت أن عثمان لم يستطع
أن يضبط شؤون الدولة كما ضبطها عمر . وإنما أفسح المجال امام دهاة
الأمويين أقاربه ، كي يحققوا غاياتهم ، ويكيدوا للهاشميين الذين
يتزعمهم علي . والصراع بين أمية وهاشم قديم منذ الجاهلية ،
أضعفه الاسلام كثيراً ولكن لم يقض عليه حتى اذا مات عثمان
على أثر ثورة قامت بها الامصار ، وببيع لعلي بالخلافة ،
نهض معاوية داهية الدهاة ، يتهم علياً بمقتل عثمان ويلوح بقميص
الخليفة المقتول ، وغايته من ذلك ، إبعاد عليّ عن الخلافة وأخذها
لنفسه .

ولم يكن معاوية الوحيد الذي ثار ضدّ عليّ . فلقد ثارت
ضده عائشة كذلك ومعها طلحة والزبير ، فحاربها علي في معركة
الجمل ، وقضى على معارضتها . ثم انصرف الى إخماد الفتن الناشئة
هنا وهناك والى محاربة معاوية وصحبه ، فكانت معركة صفين
الشهيرة ، وكان التحكيم الذي أدى الى انشقاق في صفوف
الطالبين والى ظهور حزب رابع هو حزب الخوارج ، الذين
خرجوا على طاعة علي لقبوله بالتحكيم واصبحوا يناصرونه العداء
كما يناصرون الامويين والزبيريين . وما كان التحكيم ليحل نزاعاً

وإنما زاد الأمر تعقيداً ، فقويت الأحقاد ، واشتد الصراع بين الأحزاب السياسية ، وكان كل حزب يستند الى مبدأ مستمد من الدين ، اعتباراً أن الدولة في الاسلام إنما نشأت بفعل الحركة التي جاء بها محمد . وكان محمد أول رئيس ديني للمسلمين ، وأول رئيس زمني في آن معاً . ثم تبعه خلفاؤه الراشدون ، فكانوا حكاماً وكانوا أئمة .

والذي حدث من جراء ذلك ، أن علياً قد تذرع بالقداسة الدينية ، وبوصية محمد المنبثقة عن أرادة الله ، لأن محمداً منزّه عن الخطأ ، ولأنه لا يأتي عملاً الا ويكون الله راضياً عنه . فخلافة عليّ إذاً خلافة شرعية . والله قد أرادها له بواسطة رسوله . أما الخوارج ، فقد كفروا علياً لقبوله بالتحكيم ، وذهبوا الى ان هذا القبول هو شك ضمني من جانب عليّ بحقه في الخلافة ، فهو شك بإرادة الله ، ولذلك ، فهم في حل من مناصرته . وكان شعارهم : « لا حكم إلا لله »

وأما الأمويون ، فانهم يعتبرون عثمان بن عفان هو الخليفة الشرعي . قتل ظلماً ، ولم يثأر له ، والذي قتله هو من يدعي الخلافة لنفسه . فهل يجوز لقاتل أن يتولى الخلافة . وبعد ، فبنو أمية هم اهل عثمان الاقربون ، اليهم ينبغي أن يعود البتّ في شأن الخلافة من بعده . ثم ، أليسوا هم من بني قريش ؟ أو لم يكن لهم في الاسلام جهاد ؟ فلماذا تكون الخلافة لفلان ، ولا تكون لمعاوية مثلاً ؟ ومعاوية رجل قدير ، ومعه فئة غير قليلة من المسلمين تسانده ، فبلاد الشام بكاملها تؤيد معاوية ، وترتضي حكمه

بالإضافة الى أقوام آخرين في الحجاز وفي العراق .
أما جماعة الزبيريين ، فكانوا يريدون الخلافة لعبد الله بن
الزبير ، أو لأخيه مصعب .

في هذا الخضم من الأهداف المتضاربة ، نشبت حروب عنيفة
كانت على صعيد السيف وعلى صعيد اللسان .

أما حروب السيف ، فتم فيها الانتصار لبني أمية ، بعد أن
قتل علي بيد واحد من الخوارج يسمى عبد الرحمن بن ملجم
المرادي ، وبعد أن دوّخ القواد الأمويون أرض الحجاز وأرض
العراق حيث كانت مواطن المعارضة .

وأما حروب اللسان ، فانها لم تكن لتخمد . فاذا الخطباء
والشعراء في الندوات والاسواق والمساجد وسائر المحافل
يدافعون عن الاحزاب التي اليها ينتمون ، ويمتدحون الزعماء
الذين ينضوون تحت ألويتهم ، ويهجون الاعداء ، ويظهرون
مثالبهم .

والذي يهمنا نحن من هذه الحركة الأدبية هو شعر المديح
الذي كان يقال في تلك المناسبات .

لم يكن فن المديح شيئاً جديداً على العرب في البيئة الأموية ،
فلقد عرفوه من قبل في الجاهلية وفي الاسلام أيضاً . ولكن
الجديد هو في كون هذا الشعر قد ازدهر كثيراً بعد ركود ،
وقوي أكثر مما كان عليه في الجاهلية ، وداخلته مقومات
جديدة ، ومعان جديدة واتجاهات جديدة كذلك .

أما اسباب الازدهار فالصراع السياسي الذي تحدثنا عنه

منذ قليل ، والذي حدا بالزعماء السياسيين وبخلفاء أمية خاصة ، الى استخدام الشعراء واستقدامهم من كل مكان من أجل أن يمدحواهم ، ويروجوا للسياسة التي كانوا اليها يدعون .

وأما امتداح الخلفاء الأمويين والتغني بفضائلهم ، فكان يرضى كبرياءهم وحبهم للزهو والظهور والرياسة . ولكن ليست هذه هي الغاية الأولى التي جعلتهم يستقدمون الشعراء المداحين ويغدقون عليهم الاعطيات ؛ بل كان همهم أن يكسبوا مؤيدين لهم في ذلك المعترك . وغير خفي ما كان للشعر في نفوس العرب من تأثير ؛ والعهد غير بعيد من الجاهلية والقبلية قد عادت الى الظهور بعد أن كان الاسلام قد خنق صوتها . فكان الشاعر بمثابة داعية الى الالتفاف حول بني أمية ، ولو كان مديحه صادراً من لسانه ؛ ولو كان هو أيضاً من المعارضين . فالأمويون يعرفون من يؤيدهم ومن لا يؤيدهم ؛ ومع ذلك فقد كانوا يعمدون الى مختلف الوسائل كي يجتذبوا اليهم زعماء المعارضة ، وكانوا يجيزون الشعراء على مديحهم مع علمهم بانهم متشيعون او أنهم ميالون الى الزبيريين او الى الخوارج . ولعلمهم كانوا يعلقون أكبر الاهمية على صدور الاشعار المتمدحة بهم عن أعدائهم لأنها تكسبهم نصراً في أعين الناس - هذا بالإضافة الى شعراء كانوا مخلصين لبني أمية وكانوا يقفون الى جانبهم في كل مسألة .

ولقد توافد الى بلاط دمشق كل من الفرزدق وجريز والاختل ، ومسكين الدارمي وأبي العباس الأعمى ، وعبد الله

ابن خارجة الشيباني ، وعدي بن الرقاع وأبي صخر الهذلي ،
والنابغة الشيباني ، وعبد الله بن الزبير الأسدي ونصيب
وغيرهم .

أما شعراء الخوارج « فكان منهم قطري بن الفجاءة وعمران
بن حطّان . والطرمّاح بن حكيم وعمرو بن الحصين .
وأما شعراء الشيعة فاشهرهم الكميت بن زيد الأسدي ،
وكثير عزّة وأمين بن خريم الأسدي ، والسيد الحميري ومن
شعراء الزبيريين والأنصار النعمان بن هرم ، وعبد الله بن قيس
الرقيات . وحسان بن ثابت ، وابنه عبد الرحمن .

من شعر الكميت :

الكميت بن زيد الأسدي شاعر شيعي قدير ، ولد بالكوفة
سنة ٦٠ هـ وبها نشأ وتثقف . وكانت الكوفة مركز المعارضة
الشيعة ومستقر الهاشميين ، فربا على التشيع والتعصب لبني
هاشم وأنشد فيهم أجود أشعاره ، قصائد جمعت تحت اسم
الهاشميات . ولقد كان الكميت يجمع الى الشعر معرفة واسعة
باللغة والفقه والأخبار والأنساب حتى عدّ من النسابين البارزين ،
« فمن صحح الكميت نسبه صحّ » ، ومن طعن فيه وهن .

وكان الكميت في بدء حياته معلماً للصبية ، ثم انصرف الى
الشعر بعد أن أشار عليه الفرزدق بإذاعة شعره في الناس . ولقد
تميز هذا الرجل عن سائر الشعراء في عصره بأنه لم يكن مداحياً ،
ولم يجعل شعره مطية للنفاق والتكسب . بل أخلص للهاشميين

ومدحهم غير طامع في ما لهم أو جاههم . وكثيراً ما رفض
جوائزهم فلم يكن يقبل منها إلا ثيابهم التي تلي أجسادهم يلبسها
تبركاً بها . وكان يقول :

« والله ما أحببتكم للدنيا ، ولو أردتها لأتيت من هي في يديه ،
ولكنني أحببتكم للآخرة . »

ومما كان يذكر عنه أيضاً ، أنه كان متعصباً للعدنانية ضد
القحطانية في زمن كانت فيه العصبية القبلية قد عادت إلى
الاضطرام . وله في ذلك قصائد شهيرة أطلق عليها اسم
النزاريات أو غرت صدور اليمانية ، وكثير منهم كانوا مواليين
للأمويين ، بل إن الأمويين انفسهم كانوا يتعصبون لليمنية ضد
القيسية .

بسبب هذا أيضاً ، أعرض الكميّت عن الأمويين ردحاً طويلاً
من الزمن ، حتى إذا وقع في قبضتهم أيقن أنه هالك لا محالة
إن هو لم يعدّل في موقفه . فمدح هشاماً بن عبد الملك فأطلقه ،
وصانع الأمويين منذ ذلك الحين ، ومدحهم وولاتهم بعض
المدح .

غير أن واحداً من هؤلاء الولاة يدعي يوسف بن عمر الثقفي ،
ابن عم الحجاج قد ضاق ذرعاً بالكميّت ، فأمر بقتله لموالاته أحد
أخصام الأمويين الألداء : زيّداً بن علي^١ وكان ذلك سنة
١٢٦ هـ .

١ - وقد قتله يوسف بن عمر الثقفي نفسه .

واليك نموذجاً من شعره في مدح الهاشميين .
 طربتُ وما شوقاً الى البيض أطربُ
 ولا لعباً مني وذو الشيب يلعبُ
 ولم يلهني دارٌ ولا رسمُ منزلٍ
 ولم يتطربني بنانٌ مخضبٌ^١
 ولا انا ممن يزجرُ الطير همّةُ
 أصاح غرابٌ أم تعرض ثعلبٌ^٢
 ولا السانحات النازحات عشيّةُ
 أمرٌ سليم القرن أم مرٌّ أعضبٌ^٣
 ولكن الى اهل الفضائل والنهي
 وخير بني حواء والخير يُطلبُ
 الى النفر البيض الذين بحبهم
 الى الله فيما نابني أتقربُ
 بين هاشمٍ رهط النبي فاني
 بهم ولهم أرضى مراراً واغضبُ

-
- ١ - لم يشغلني طلل ولم يستخفني حب امرأة ذات اصابع مخضوبة .
 ٢ - زجر الطير : اطاره ليستدل بحركاته على المستقبل . تعرض :
 تصدى وظهر . كانت العرب تتطير من صوت الغراب ورؤية الثعلب .
 ٣ - السانح من الطير : ما ولاك ميامنة . وعكسه البارح ، والأول قال
 والثاني شؤم ، الثور الاعضب هو الثور المكسور القرن ، وهو دليل شؤم
 كذلك .

يشيرون بالأيدي إليّ وقولهم
 ألا خابَ هذا والمشيرون أخيبُ
 فطائفةٌ قد كفرتني بحبِّكم
 وطائفةٌ قالوا مُسيءٌ ومذنب
 فما ساءني تكفير هاتيك منهم
 ولا عيب هاتيك التي هي أعيب
 وقالوا ترابيُّ هواه ورأيه
 بذلك أدعى فيهم وألقبُ^١
 على ذاك إجرياي فيكم ضريبتى
 ولو جمعوا طرّاً عليّ وأجلبوا^٢
 وأحملُ أحقادَ الأقارب فيكم
 وينصبُ لي في الأبعدين فأنصبُ^٣
 وقالوا : ورثناها أبانا وأمنّا
 وما أورثتهم ذاك أم ولا أب^٤

١ - ترابي : نسبة الى علي بن ابي طالب الذي قيل عنه ان النبي لقبه بأبي تراب .

٢ - الاجريا : الخلق والعادة . والضريبة : الطبيعة . طرّاً جميعاً من طر الأبل أي جمعها . اجلب القوم : تجمعوا وتوعدوا بالشر فكان لهم جلبه .

٣ - نصب له : عاداه . أنصب : اتعب .

٤ - ورثناها : أي الخلافة . أبانا وامنا : أي من امنا وابينا وقد نصبتا على نزع الخافض .

يَرَوْنَ لَهُمْ حَقًّا عَلَى النَّاسِ وَاجِبًا
سَفَاهًا ، وَحَقُّ الْهَاشِمِيِّينَ أَوْجِبُ
يَقُولُونَ : لَمْ يُورَثْ ، وَلَوْ لَا تَرَاثُهُ
لَقَدْ شَرَكْتَ فِيهِ بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ ١
فَإِنْ هِيَ لَمْ تَصْلُحْ لِقَوْمٍ سِوَاهُمْ
فَإِنْ ذَوِي الْقُرْبَى أَحَقُّ وَأَقْرَبُ
فِيَا مَوْقِدًا نَارًا لَغَيْرِكَ ضَوْءُهَا
وَيَا حَاطِبًا فِي غَيْرِ حَبْلِكَ تَحْطَبُ
أَلَمْ تَرْنِي مِنْ حَبِّ آلِ مُحَمَّدٍ
أَرْوَحُ وَأَعْدُو خَائِفًا أَتَرْقُبُ
كَأَنِّي جَانٍ مُحَدَّثٌ وَكَأَنَّمَا
بِهِمْ أَتَقَى مِنْ خَشْيَةِ الْعَرِّ أَجْرِبُ
عَلَى أَيِّ جَرْمٍ أَمْ بِأَيَّةِ سِيرَةٍ
أُعْنَفُ فِي تَقْرِيطِهِمْ وَأَوْئِبُ
أَنَاسُ بِهِمْ عَزَّتْ قَرِيْشٌ فَأَصْبَحُوا
وَفِيهِمْ خَبَاءُ الْمَكْرَمَاتِ الْمُطَنَّبُ ٢
لَيْسَتْ هَذِهِ الْأَبْيَاتُ هِيَ كُلُّ الْقَصِيدَةِ . فَالْقَصِيدَةُ بِالْغَةِ نَحْوُ
مِنْ أَرْبَعِينَ وَمِئَةِ بَيْتٍ . وَلَكِنَّهَا جُزْءٌ كَافٍ لِمُطَالَعَتِنَا عَلَى نَوَاحٍ عِدَّةٍ
مِنْ شَعْرِ الْكُمَيْتِ بْنِ زَيْدٍ .

١ - بِكَيْلٍ وَأَرْحَبُ : قَلِيلَتَانِ مَغْمُورَتَانِ لَا شَأْنَ لَهَا .
٢ - الْخَبَاءُ : هُوَ الْخِيْمَةُ مِنْ وَبَرِ الْإِبِلِ . وَالْمُطَنَّبُ : الْمَشْدُودُ بِالْأُطْنَابِ .

مطلعها يشير الى استمرار التقليد العربي القديم ، وهو أن تبدأ القصيدة بأبيات غزلية تصف حب الشاعر وصبوته ، وحنينه الى الحبيبة والى الديار المهجورة . ولكن الكميت المغرم لم يتيه قد ولا جيد ، ولم يكن يستخفه طرب الى البيض ، وميل الى لهو أو لذة . ثم إن الدنيا نفسها لا تستخفه ولا ينفق أيامه في الحرص على المال ، ولا يبيت على خوف من الأيام ، ولا يبالي أبالسوء أته أم بالخير . وهو لا يؤمن بخرافات الناس ولا يجعل همهم .

إن الذي قد أغرم به ابن زيد هو حب الهاشميين « أهل الفضائل والنهي » و « خير بني حواء » قاطبة . ولقد بلغ من حبهم واحترامهم مبلغ التقديس إذ أضحى يتقرب بمحبتهم الى الله . ولم يكن الكميت هو الوحيد الذي يؤمن هذا الايمان . فالشيعة جميعاً يتبركون بمحبة آل البيت ويعتبرون أن هذه المحبة من صلب العقيدة الدينية الصادقة .

ولقد تعرض الكميت بسبب محبته للهاشميين وامتداحهم الى كثير من العنت والتضييق والايذاء الذي كان يسومه إياه أعداء بني هاشم ، وكثرت فيه الأقاويل واتهم بالضلال والخيبة ، بل وبالكفر قد قذف ، ونعت بالاساءة والذنب . فما كان ذلك ليفت في عضده لأنه أخلص لآل البيت إخلاصاً لم يكن يزعزعه عرض من أعراض الدنيا ، ولم يكن يثنيه عنه ظلم يعانیه او تهديد يوجهه اليه ، أو عذاب يسامه .

والملاحظ أن المديح في عصر بني أمية ، إنما كان أكثره

سياسة ، بسبب أن السياسة قد طغت آنذاك على كل شيء ، وطبعت وجوه الحياة جميعها بطوابعها . فتفكير الناس كان يتأثر بالسياسة ، وأحاديثهم كانت تدور حولها ، وتصرفاتهم تحدث وفقاً لها . وكان في خدمتها الشعر والخطابة ، حتى الدين نفسه قد خربت بعض تعاليمه تخريباً يدعم سياسة الأحزاب .
أمام هذه الظواهر ، لم يكن للكميت بدّ من الضرب على وتر السياسة ، والتهكم بالأمويين وغير الأمويين ، وتسفيه آرائهم وهجائهم أيضاً .

والتمدح ببني هاشم والتغني بحقهم في الخلافة .
والملاحظ ، أن الكميت كان يلحّ على قرابة الهاشمين من النبي محمد ، لما كانت تضيف هذه القرابة عليهم من هالة قدسية . وهو ينقد الحكم ، ويعيب تعنتهم ضده لغير ما ذنب ، اللهم إلا لأنه يحب آل النبي . فالمفروض ألا يرى في تشييعه إساءة ، بل أن يعتبر ذلك التشيع فخراً من المفاسخ ، ومحمدة من محامد الكميت .

أليس من سخرية الزمان ، أن تنقلب مقاييس الناس ، وتتحور الحقيقة وينتصر الفساد ؟
ولا تظن أن الكميت كان يقول كلامه مجاملة ، كما كان سائر الشعراء ينظمون مدائحهم ، وإنما أنت تحس في هذا الشعر ، حرارة العاطفة الصادقة وإيمان الشاعر بما يقول ، كما تلمح في شعره احتجاجاً للهاشميين ، ودفاعاً منطقياً عن إمامتهم مما دفع الجاحظ إلى القول : « ما فتح للشيعه باب الحجاج الا الكميت بقوله :

يقولون لم يورث ولولا تراثه

لقد شركت فيه بكيل وأرحب

فان هي لم تصلح لقوم سواهم

فان ذوي القربى أحق وأقرب

والجديد في شعر الكميت واضح في نواح عدة : جديد في مطالعه حين عدل عن جعل هذه المطالع غزلاً بالنساء ، ووقفها على التغني بمحبة بني هاشم ، وجديد في إهمال وصف الناقة الذي كان يتخذ وسيلة للتخلص الى المدح في زمانه وقبل زمانه ، بل وبعد زمانه أيضاً .

أما النفس الشعري العام الذي يقصده أصالة الشعر وحقيقة عمليته فلم يكن جديداً في شيء ، ما خلا حاجة عقلية أدخلها الكميت هي بدء الجدل الذي ظهرت تباشير حركته في العصر الأموي ، والذي أدى الى قيام الفرق الكلامية واتساع علم الكلام وتباين الآراء في شرعية الخلافة .

ومن جديد الكميت أنه فتح في الشعر فتحاً مبيناً ، فلأول مرة في تاريخ الشعر العربي ، ترى رجلاً يقف جانباً كبيراً من شعره على الدفاع عن مذهب سياسي او ديني .

فلقد كان الشعراء من قبله يكتفون بأبيات او بقصيدة ، او بقصائد قليلة يؤيدون بها مذاهبهم ، وسائر أشعارهم للتكسب . وهذا عكس ما ذهب الكميت اليه .

وليست الهاشميات جديدة في موضوعها فحسب ، بل هي جديدة في طولها كذلك فمعظمها لا تقل أبياته عن مئة بيت .

ويلفتنا في هذه الهاشميات كون عدد منها يبدأ بالوعظ والتقريع كقوله :

ألا هل عم في رأيه متأمل وهل مدبر بعد الاساءة مقبل؟
وفي أسلوب الكميت جزالة في اللفظ ، وفخامة وقوة ، هي
انعكاس لقوة الايمان والانفعال في نفس الشاعر ، وشعره معرض
لثقافته الواسعة ، ومعرفته بأنساب العرب وأيامها .

ولقد لقي هذا الشعر من الرواج ما جعل أبياته تطير في أفواه
الناس ، ويتناشدها الشيعة كباراً وصغاراً ، ورجالاً ونساء حتى
قيل : « من لم يرو قول الكميت : « طربت وما شوقاً الى البيض
أطرب ، فليس بشيعي » .

من شعر الأخطل التغلبي :

على أثر ذلك الصراع العنيف بين الأحزاب المتعددة ، كان
شعراء الشيعة وشعراء الأنصار ، يتناولون بني أمية بالهجاء .
ويظهرونهم مظهر المعتدي الذي لم يرع للدين حقاً ولا حرمة .
ولقد بلغ الكيد للأمويين مبلغ التشبيب بالنساء الأمويات ،
ومن بينهن رملة بنت معاوية شبيب بها عبد الرحمن بن حسان
ابن ثابت ولم يكن معاوية وابنه يزيد ليسكتا عن هذه الإهانة ،
ولكن معاوية آثر التريث ، أما ابنه يزيد ، فراح يفتش عن
شاعر يهجو الأعداء ، وخصوصاً الأنصار وشعراءهم كالنعمان
بن بشير وحسان بن ثابت وابنه عبد الرحمن . ولقد وفق الى
الأخطل باعتباره تغليبيّاً ، وتغلب حليفة لبني أمية وقفت الى

جانبهم في صفين ، ضد ابن أبي طالب وناصرت يزيد في موقعة
الحرّة ، حيث هزم الأنصار ، وظلت على ودّ مع الأمويين
فحاربت الى جانب مروان بن الحكم في موقعة مرج راهط ضد
القبائل القيسية .

أمّن يزيد الاخطل من غضب معاوية . فاندفع الأخطل يهجو
الانصار . وكان أول شعر سياسي قاله قصيدة جاء فيها :
ذهبت قريش بالمكارم والعلا واللؤم تحت عمائم الانصار
فذرّوا المعالي لستم من أهلها وخذوا مساحيكم بني النجار
وقد أشار فيها بصورة خاصة الى عبد الرحمن بن حسان بن
ثابت الملقب بابن الفريعة بقوله :

وإذا نسبت ابن الفريعة خلته كالجحش بين حمارة وحمار
ومرت الايام ، فاذا العلاقة بين الاخطل وبين زعماء أمية تتوثق ،
فيصبح هذا الرجل ذا مركز سياسي هام في بلاط الأمويين .
يدافع عنهم ويمدحهم ، ويندد بأعدائهم ، وينشر لبني أمية فضائل
تجعلهم أولى الناس بالحكم ، ويذكر للشيعه والخوارج والانصار
مثالب وأخطاء تسكتهم وتدلّل على تعنتهم . ولم يكن هذا
الشاعر لينسى قومه في أي حال . فراح يشدد أواصر الصداقة
بين بني تغلب والأمويين ، يسهّل عليه مهمته في ذلك ، كون
تغلب عدوة للقيسية ، وكون القيسية مناهضة للحكم الأموي .
والحق ، أنه ما من شاعر استطاع كما استطاع الأخطل أن يمثل
السياسة الأموية ، والخصومات القبلية ، التي كانت تحدث في ذلك
الزمن ، مشدودة الى عجلة الخلافة في معظم الاوقات .

واليك الآن نموذجاً من مديحه في عبد الملك بن مروان .

خفّ القطينُ فراحوا منك أو بكروا

وازعجتهم نوى في صرفها غير^١

كأنني شاربٌ يوم استبد^٢ بهم

من قرقفٍ^٣ ضمّنتها حص^٤ أو جدر^٥

جادت بها من ذوات القار مترعة^٦

كلفاء ينحت^٧ عن خرطومها المدر^٨

لذّ^٩ أصابت حميها مقاتله

فلم تكد^{١٠} تنجلي عن قلبه الخمر^{١١}

كأنني ذاك أو ذو لوعة خبلت^{١٢}

أوصاله وأصابت قلبه النش^{١٣}

١ - القطين : القوم المسافرين . راحوا : عادوا عند المساء . بكروا :

ذهبوا في الصباح . ازعجتهم : ابعدهم .

٢ - استبد بهم : غلب عليهم . والقرقف : الخمرة التي تقرقف صاحبها

وترعده .

٣ - ذوات القار : الخواوي المطلمية بالقار وهو صمغ اسود كالزفت . كلفاء :

أصاب لونها كلف وتغير . ينحت : يتفتت . خرطومها : فوهتها . المدر : الطين الذي طينت به فوهتها .

٤ - اللذ : الرجل ذو الحديث اللذيذ . الحميا : حدة الخمرة . مقاتله :

كبدته وقلبه وكل ما يقتله اذا اصيب فيه . الخمر : الشكسل بفعل الخمرة .

٥ - اللوعة : الحزن . خبلت : أفسدت وأضعفت

شوقاً اليهم ووجداً حين أتبعهم
 طرفي ومنهم يحبني كوكب زمر^١
 حثوا المطي فولتنا مناكبها
 وفي الخدور إذا باغمتها الصور^٢
 يبرقن للقوم حتى يحتبلنهم^٣
 ورأيهن ضعيف حين يختبر^٤
 يا قاتل الله وصل الغانيات إذا
 أيقن أنك ممن قد زها الكبير
 أعرضن لما حنى قوسي موترها
 وابيض بعد سواد اللثة الشعر^٥
 ما يرعوين الى داع حاجته
 ولا هنن إلى ذي شيبة وطر
 شرقن إذ عصر العيدان بارحها
 وأيبست غير مجرى السنة الخضرة

١ - الطرف: كناية عن النظر . زمر : جماعات .

٢ - حثوا المطي : حملوها على الامراع في السير . الخدور : جمع خدر ، وهو ما تستتر فيه المرأة . باغمتها : حدثتها حديثاً جميلاً . الصور : الوجوه الحسنه .

٣ - يبرقن للقوم : يشرن اليهم . يحتبلنهم : يوقعنهم في حبالهن . حنى قوسي موترها : كناية عن انحناء الظهر . اللثة : الشعر الجاني في الرأس .
 ٥ - عصر العيدان بارحها : اي جفت العيدان من الريح . مجرى السنة : مكان سكة الفلاحة

فالعين عانيةٌ بالماء تسفحه
 من نيةٍ في تلاقي أهلها ضررٌ^١
 منقضين انقضاب الحبل يتبعهم
 من الشهيقي وعين المقسم الوطر^٢
 حتى هبطن من الوادي لغضبتيه
 أرضاً تحلُّ بها شيبانٌ أو غبرٌ
 حتى إذا هنَّ ورُكن القصيم وقد
 أشرفن أو قلن هذا الخندق الحفر^٣
 وقعن أصلاً وعجنا من نجائبنا
 وقد تحنَّ من ذي حاجةٍ سفرٌ^٤
 إلى امرئٍ لا تعدّينا نوافله
 أظفَره اللهُ فليهنئ له الظفر^٥
 الخائض الغمر والميمون طائرُه
 خليفةُ الله يستسقى به المطر

١ - عانية ؛ متعبة . تسفحه ؛ تذرفه

٢ - المنقضب ؛ المنقطع . الشهيقي ؛ ارضون متباعدة . عين المقسم ؛
بئر في الجزيرة.

٣ - ورك ؛ جعله حيال وركه . القصيم ؛ موضع الحفر . واراد بالخندق
خندق سابور في بركة الكوفة .

٤ - وقعن اصلاً ؛ نزلن بعد العصر - عجنا ؛ عطفنا .

٥ - لا تعدّينا ؛ لا تخلُّ منا .

واهمُّ بعدَ نجيِّ النفسِ يبعثه
 بالحزمِ والأصمغانِ القلبُ والحدَرُ^١
 والمستمرُّ به أمرُ الجميعِ فما
 يفتَرُهُ بعدَ توكيدٍ له غررُ
 وما الفراتُ إذا جاشت حوالبه
 في حافتيه وفي أوساطه العُشرُ^٢
 وذعدعته رياحُ الصيفِ واضطربت
 فوق الجأجىءِ من آذِيَّهِ غدرُ^٣
 مسحنفرُ من جبالِ الرومِ يستره
 منها أكافيفُ فيها دونه زورُ^٤
 يوماً بأجود منه حينَ تسأله
 ولا بأجهرَ منه حينَ يَحْتَمِرُ^٥
 ولم يزل بكِ واشيهمُ ومَكْرهمُ
 حتى أشاطوا بغيبِ لحمٍ من يسروا^٥

-
- ١ - الهم : ما هم به الرجل واراد فعله . الاصمغ الذكي القوي .
 ٢ - حوالبه : امواجه . العشر : جمع عشرة وهي نوع من الشجر .
 ٣ - ذعدعته : حركته بشدة . جأجىء : جمع جؤجؤ - وهو صدر السفينة .
 ٤ - المسحنفر : السريع الجري . أكافيف : مناكب . زور : اعوجاج .
 ٥ - - اشاطوا : فرقوا .

فمن يكن طاوياً عنا نصيحته
وفي يديه بدنينا دوننا حَصْرُ^١
فهو فداءُ أمير المؤمنين إذا
أبدى النواجذَ يومَ باسلٍ ذكرُ^٢

...

مفترشٌ كافتراشِ اللَّيْثِ كُلِّهِ
لوقعةٍ كائنٍ فيها له جَزَرُ^٣
مقدمٌ مثي الفِ لمنزله
ما إن رأى مثلهم جنٌ ولا بشرٌ
يغشى القناطر يبنيتها ويهدمها
مسوّمٌ فوقه الراياتُ والقترُ^٤
حتى يكون لهم بالطَّفِّ ملحمةٌ
وبالثَّوِيَّةِ لم ينبض بها وكرُ^٥
وتستبينَ لأقوامٍ ضلالتهم
ويستقيمَ الذي في خده صَعَرُ .

١ - الحصر : ضيق الصدر .

٢ - باسل : كريه . شديد . ذكر : قوي .

٣ - جزر : كل ما هو مباح للذبح .

٤ - مسوّم : معلم . القتر : الغبار .

٥ - الطف : ارض في ضواحي الكوفة فيها قتل الحسين . الثوية : موضع قريب من الكوفة . لم ينبض بها وتر : لم تستعمل النبال لقرب المتحاربين .

ثم استقل^١ بأثقال العراق وقد ،
كانت له نعمة^٢ فيهم ومُدَّخِر

في نبعة^٣ من قريش يعصبون بها
ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر^٤

تعلو الهضاب وحلثوا في أرومتها
أهل^٥ الرباء وأهل الفخر إن فخرُوا^٦

حشد^٧ على الحق عيافو الحنا أنف^٨
إذا ألمت^٩ بهم مكروهة^{١٠} صبروا^{١١}

وإن تدجّت^{١٢} على الآفاق مظلمة^{١٣}
كان لهم^{١٤} مخرج^{١٥} منها ومعتصر^{١٦} .

أعطاهم^{١٧} الله جدًّا ينصرون به
لا جدًّا إلا صغير^{١٨} بعد^{١٩} محتقر^{٢٠} .

لم يَأْشَرُوا^{٢١} فيه إذ كانوا موالية^{٢٢}
ولو يكون^{٢٣} لقوم^{٢٤} غيرهم أَشْرُوا^{٢٥}

١ - النبعة : شجرة صلبة تؤخذ منها القسي . يعصبون بها يلتفون حولها .

٢ - الرباء : العظمة .

٣ - حشد : جمع حاشد . من لا يتخلف عن نصرته القوم بلا سبب .
عيافو الحنا : يأنفون الذل .

٤ - المعتصر : الملجأ أو المعقل .

٥ - أشر : بطر .

شمسُ العداوةِ حتى يستقَادَ لهم
 وأعظم الناسِ أحلاماً إذا قَدَرُوا .
 لا يستقلُّ ذوو الأضغانِ حربَهُمْ
 ولا يُبَيِّنُ في عيْدانهم خَوَرُ
 همُ الذين يبارون الرياح إذا
 قلَّ الطعامُ على العافين أوقَتروا .^١
 بني أميةُ نِعْمَكم مُجَلَّةُ
 تَمَّتْ فلا مِنَّةُ فيها ولا كَدَرُ
 بني أميةٍ قد ناضلتُ دونكم
 أبناءَ قومِهم أَوَوْا وهم نصروا
 أفحمتُ عنكم بني النجَّار قد علمت
 علياً معدِّ وكانوا طالما هَدَرُوا^٢
 حتى استكانوا وهم مني على مضض
 والقولُ ينفذُ ما لا تُنفذُ الإبرُ .
 بني أميةُ إني ناصحٌ لكم
 فلا يبيتنَّ فيكم آمنةٌ زُفَرُ .
 واتَّخذوهُ عدوًّا إن شاهدته
 وما تغيبُ من أخلاقهِ دَعَرُ

١ - قَتَرُوا بَخَلُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ .

٢ - بنو النجار : قبيلة من الحزرج من أنصار النبي . علياً معد : بنو قريش .

إِنَّ الضَّغِينَةَ تَلْقَاهَا وَإِنْ قَدُمْتَ
 كَالْعُرِّ يَكُنْ حِيناً ثُمَّ يَنْتَشِرُ .
 وَقَدْ نَصَرْتَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَا
 لَمَّا أَتَاكَ بِبَطْنِ الْغَوَاطَةِ الْخَبْرُ
 يَعْرِفُونَكَ رَأْسَ ابْنِ الْحَبَابِ وَقَدْ
 أَضْحَى وَلِلسَيْفِ فِي خَيْشُومِهِ أَثَرُ
 لَا يَسْمَعُ الصَّوْتَ مُسْتَكْماً مَسَامِعُهُ
 وَلَيْسَ يَنْطِقُ حَتَّى يَنْطِقَ الْحَجَرُ
 أَمَسْتُ إِلَى جَانِبِ الْحَشَاكِ جِيفَتَهُ
 وَرَأْسَهُ دُونَهُ الْيَحْمُومُ وَالصُّوَرُ ١
 يَسْأَلُهُ الصَّبْرُ مِنْ حَسَّانٍ إِذَا حَضَرُوا
 وَالْحَزَنُ ، كَيْفَ قَرَأْتَ الْغَلَمَةَ الْجَشْرُ ٢ ؟
 وَالْحَارِثَ بْنَ أَبِي عَوْفٍ لَعَبْنَ بِهِ
 حَتَّى تَعَاوَرَهُ الْعُقْبَانُ وَالسُّبْرُ ٣
 وَقَيْسَ عَيْلَانَ حَتَّى أَقْبَلُوا رُقْصاً
 فَبَايَعُوكَ جَمْعاً بَعْدَ مَا كَفَرُوا

-
- ١ - الحشاك : نهر بين دجلة والفرات . اليحموم موضع بالشام .
 ٢ - الصبر : بطن من غسان . الحزن : حي من غسان . الجشر :
 الذين يخرجون بداوهم .
 ٣ - السبر : طائر شبيه بالصقر .

فلا هدى الله قيساً من ضلالتهم
ولا لعلماً لبني ذكوان^١ إذ عثروا^٢
ضجّوا من الحرب إذ عضّت غواربهم^٣
وقيس عيلان من أخلاقها الضجر^٤
كانوا ذوي إمة حتى إذا علقت^٥
حبال للشیطان وابتهروا^٦
صكّوا على شارب صعب مراكبها
حصاء ليس لها هلب ولا وبر^٧

هي قصيدة من أشهر قصائد الأخطل وأجودها وأطولها
نفساً . يبدأها بوصف الطلول وترحال الأحبة . وما ذاك بغريب
لأن الأخطل قريب عهد بالجاهلية أولاً ، ولأنه بدوي عريق في
بداوته ثانياً . غير أن الذي يجعله مختلفاً عن سائر الشعراء في
مطالعهم هو تكريس قسم في المطالع للخمرة ووصفها ووصف
مجالسها ، وذكر مفعولها في النفس وفي الجسد ، وما كان ليبرر
هذا النزوع إلى الخمرة والاهتمام بها ، والتصريح بشربها ، إلا
كون الأخطل نصرانياً لا سلطة لخليفة المسلمين عليه من هذا
الوجه . وكأننا بهذا الشاعر ، حين يقدم الخمرة في شعره على سائر
الأغراض إنما يكرس منهاجاً اختطّه شاعر تغلبي من قبله ، هو

-
- ١ - لالماً لفلان : لا اقامه الله . ذكوان : رهط عمير بن الحباب .
 - ٢ - عضت غواربهم : ازعجتهم كثيراً .
 - ٣ - ذوي إمة : ذوي نعمة . ابتهروا : كذبوا .
 - ٤ - صكوا : حملوا . الشارب : الناقة المسنة .

عمرو بن كلثوم حين قال في بدء معلقته :

ألا هبّ بصحنك فاصبحنا ولا تبقي خمور الأندرينا
مشعشة كأن الحصّ فيها إذا ما الماء خالطها سخينا
والملاحظ أن الاخطل في مطلعته الخمرى بقصيدة «خف
القطين» يستطرد استطراداً، ذلك أن الموقف لا يستدعي الحديث
عن الخمر . ولكن الشاعر حشره حشراً مصطنعاً . فالقارىء لا
يحتاج الى كثير من التدقيق حتى يدرك هذه الحقيقة . كان
الشاعر في معرض الحديث عن ترحّل الاحبة ، يصور حالته
بسبب هذا الترحل ، فبداه أنه قد أصيب بشيء من الخبل
وفقدان الواعية أمام هذا الحدث المزعج . ولكي يوضح لنا هذا
الخبيل ، شبهه بما يحدث للشارب حين يكثّر من احتساء الخمر ،
خصوصاً اذا كانت خمر قرقفا من صنع حمص أو جدر .

وهنا طاب للاخطل أن يفتح هلالين ليصف ضمنها خمرته ،
حتى اذا أعطانا فكرة عنها انتقل الى تمة الحديث عن احبته .
وأكبر الظن ، ان للفطرة أثراً في تكوين القصيدة على هذا
الشكل . فلو لم يكن الاخطل على شيء من العلوّ بالفطرة
وبحياة السذاجة ، لما استطرد الى الخمر ووصفها . والحقيقة أنه
ما أطال الحديث في استطراده لكونه أيضاً على جانب من
الحساسية الفنية والذوق الشعري . انتقل الشاعر الى الحديث
عن أحبته المرحلين ، فذكر شوقه اليهم ووجده بهم ، ووقوفه
عند الديار يتأمل رحيلهم ، وفؤاده معهم ونظراته ترافقهم في

ابتعادهم عنه ، وفي نفسه حنين الى ذوات الخدور من الحسان .
وهنا يعود الاخطل الى فتح هلالين أيضاً ، ليصف أخلاق
النساء ووسائلهن في اجتذاب الرجال ، وصدودهن عن أصابه
الهرم ، «فما هن الى ذي شيبة وطر»

رافق الشاعر موكب الاحبة بناظريه الى ان غاب الموكب
عن العين ، وهبط في الوادي عند الاصيل - إذ ذاك عطف
الشاعر عنق مطيته ورأى أن موعد السفر قد حان فتوجه حيثما
يقصد .

الى أين ؟

الى عبد الملك بن مروان ، الى ذاك الذي عمت الناس فواضله ،
الله اظفره فنهياً له النصر .

ويمضي الاخطل في امتداح الخليفة الأموي فيخلع عليه كل
فضيلة عربية ويجعله مثلاً أعلى للحكام .

هو الخواض للغمرات العظام ، وهو الذي يتبع اليمن ظله ،
به يتبرك الناس وباسمه يرفعون صلاة الاستسقاء . ما كان الحزم
سوى جانب بسيط من جوانب خلقه . هو كبير القلب ، به
منوط تدبير أمور القوم كلهم ، كريم يتدفق عطاؤه على الناس
تدفق نهر الفرات في إبان فيضانه . ولكن ما جميع الناس اوفياء .
هنالك قوم يكرهون عبد الملك فيشون به ، ويمكرون له
ويحاولون بمختلف الوسائل أن ينكسوا رأيته ، والله يأبى أن
تظل مرفوعة .

والخليفة رجل شجاع ، خواض للمعارك جبار في قيادة

الجيش ، مئتا ألف من الليوث يقدمهم بين يديه ، ثم يغشى
القناطر يبنيتها ويهدمها ، والانظار اليه متجهة ، والرايات فوقه
والغبار قد سدّ معارج الفضاء .

وإذا مدح الأخطل الأمويين عرّض بأعدائهم من بني هاشم
وغير بني هاشم فهو هنا يذكر الطفّ (على مقربة من الكوفة)
حيث جرت المعركة الكبرى بين الأمويين والطلالين وفي هذه
المعركة قتل الحسين وكان النصر لبني أمية .

ويستغل الشاعر هذه المعركة ليشير الى بأس ممدوحيه ويرهب
الناس جوانبهم ويجعل من الطالين عبرة لمن يعتبر . وكأنما يريد
من وراء ذلك أن يقول :

أيها الناس ، لا يساور أحداً منكم ريب في أن عبد الملك بن
مروان هو خير من يحكم ، وأعظم من يفىء الناس اليه ، ولا يخطر
ببال أحد منكم عصيان أو انتقاض على أراذله ، حتى لا يكون
مصيره مصير الثائرين في الكوفة . ثم يعير الطالين وأهل العراق
صفارهم ، وخضوعهم لعبد الملك ، بعد أن كانوا يصعّرون
خدودهم تصعيراً ، وبعد أن كانوا يضمرون له في نفوسهم كل شر .
وواضح أن الأخطل خفيف اللهجة هنا في تعريضه ، فهو لا
يقذع ولا يتشفى بل يحافظ على الاتزان والرصانة احتراماً لمكانة
الممدوح ، ومسايرة لارستوقراطية البلاط الأموي وجلاله .

على أن الأخطل لا يكتفي بامتداح الأمويين أفراداً ، بل
يمتدحهم جملة كذلك ، فيجعلهم في نبعة من قریش يلتف الناس
حولها ويلوذون باظلالها ، وهي مرتفعة مرتفعة ، تعلو الهضاب

حتى لا يوازيها في علوها شجر ، وفي أرومتها قد حل فرع بني مروان أهل الرباء والعظمة وأهل الفخر إن فخروا .

ولست أحسبك غافلاً عن قوله « في نبعة من قریش يعصبون بها ، فلقد استعار لفظة النبعة للفرع الأموي ، والنبع شجر متين الأغصان طويلها ، جميلها ، هو احسن ما يؤخذ منه الرماح وبنو أمية شجرة ، أغصانها رجال أقوياء ، أذكاء ، ذوو رفعة ووقار ووسام وحسن محدد ، وكما تخرج النبعة رماحاً ، كذلك بنو أمية يخرجون خلفاء وامراء وحكاماً ، وكما يفيء الناس الى ظل شجرة النبع ، كذلك يفيئون الى ظل بني أمية . والنبع يحيا في الأعالي ، والأعالي مواطن الأمويين .

والحق أن شاعرية الأخطل ، وإن تجلت في كثير من أقواله ، إلا أنها أكثر ما تتجلى في مثل هذا المديح . وما نظن أن شاعراً قبل الأخطل أضفى من العظمة على ممدوح ما أضفاه الأخطل على الاسرة الاموية في أبياته الواقعة بين قوله « حشد على الحق ... » وقوله : « تمت فلا منة فيها ولا كدر » .

فهل يستطيع أن يقال في قوم أكثر من أنهم حماة للحق ، عتافون للذل ، يصبرون على المكاره ، ويخرجون من كل ضائقة والنصر يكلل رؤوسهم ؟

إذا كان بنو أمية خلفاء ، فبإرادة الله . هو الذي نصرهم ، وهو الذي اختارهم قادة للامة . كل قوم شأنهم دون شأن أمية . ومع ذلك فانك لا تراهم يأشرون ولا يعتريهم غرور أو بطر ، ولا يتسرب الى نفوسهم الصلف لرجحان في عقولهم ، واتزان في

شخصياتهم .

جاء في كتاب الاغاني ^١ أن أبا العباس السفاح قد قيل له :
ان رجلاً شاعراً قد مدحك ، فتسمع شعره ؟ قال : «وما عسى
أن يقول فيّ» بعد قول ابن النصرانية في بني أمية :

شمس العداوة حتى يستقاد لهم
واعظم الناس أحلاماً اذا قدروا

والحق أنه بيت من أمدح الشعر وأفخره ؛ فيه جمع بين
الشدة واتساع السطوة من ناح ، وبين الحلم من ناح ثان ، وهذا
جلّ ما يرتجيه الحاكم .

ومن المعاني التي مدح بها الأخطل بني أمية الكرم . ولكنه
كرم مثالي يجعلهم يبارون الرياح الى العطاء حتى في أعصب
الايام وأشدّها جفافاً .

وجودهم لا يقتصر على فئة من الناس ، بل يشمل الجميع
ويحتلهم ولا يعكّره منّة او كدر .

بعد هذا المديح ، ينبري الأخطل لأغراض سياسية خاصة
تهمّه بالذات وتهم قومه التغلبيين ، فيتحدث عن مكانته من بني
أمية ومنافحته عنهم ، ووقوف تغلب بجانبهم في كل حين ، وهو
يعرض باعداء قبيلته ، ويظهر معاداتهم للخلافة ، آملاً أن تتوثق
العلاقات بين الأمويين والتغليبيين ، وأن يبعد الأمويون في الوقت
نفسه قيس عيلان ، وبني عامر بن صعصعة وبني سليم ، ويهجو

جريراً من بني كليب بن يربوع وقومه ، وسواهم ممن كانوا يذاوئون
قبيلة الاخطل .

من يرسل النظر في هذه القصيدة ، وفي قصائد اخرى
للأخطل ، لا بد من أن يلاحظ الامور الآتية :

١ - إن الأخطل بدوي توافرت فيه طباع البدو ودارت
على لسانه ألفاظهم واستمد معانيه من حياتهم .. فمن مظاهر
البداءة في شعره ؛ خفُّ القطين ، وحثُّ المطايا ، وعصر البارح
للعيدان ، وانقضاب القافلة كانقضاب الحبل ، وهبوط القوم لغضبة
الوادي ، والعوج من النجائب ، وجميع الفضائل التي ينسبها الى
الممدوح والى بني أمية جملة . ولم يقف مظهر البداءة عند المعاني ،
بل تعداها الى الألفاظ ، فانفرطت في قصيدته هنا وهناك ، منها
القطين ، ومجرى السنة ، ووركن القصيم ، والخائض الغمر ،
ومنها مسحفر ، وأشاطوا ويوم ذكر ، والقتر ، والمعتصر ،
والعافين ، والجشر ، والحصاء ، والعيارات والهداجون ،
والسؤر ... الخ

٢ - انه كان ذا مركز سياسي هام في بلاط أمية ، مستجاب
الطلب ، مسموع الكلمة ، كثير الدل ، يقدم اليهم النصائح كأنه
مستشار سياسي لهم .

٣ - إن الاخطل كان سفيراً لبني تغلب في البلاط الأموي ،
يدبر شؤون قبيلته ويرعى مصالحها ويجعل بينها وبين أمية وحدة
في الهدف ووداً .

٤ - إنه كان في مديحه يلحّ على قضية الخلافة ، وكان يروج

لرأي بني أمية الذي أرادوا اقراره في خلد العالمين ، وهو أن
الخلافة قد جاءتهم من الله وإرادة الله لا مرد لها . فلو كان جلّ
جلاله راضياً عن خلافة علي لجعل علياً يفتصر ، ولو أرادها لغير
الامويين لنفذت ارادته .

تمت جـودهم والله فضّلهم
وجد قوم سواهم خامل نكد .

هم الذين أجاب الله دعوتهم
لما تلاقت نواصي الخيل فاجتلدوا

ويوم صفين والأبصار خاشعة
أمدّهم إذ دعوا من ربهم مدد
على الأولى قتلوا عثمان مظلمة

لم ينههم نشد عنه وقد نشدوا
وأنتم أهل بيت لا يوازنهم

بيت إذا عدت الاحساب والعدد

ولعلك قد لاحظت كيف أن الاخطل يردد لفظة الله ويجعل
كل شيء منه ، ضرباً على وتر العاطفة الدينية وإفحاماً لكل مكابر .

وما من أحد يستطيع أن يشك في قدرة الله وقضائه . ولم
يعد الخليفة الأموي خليفة للنبي وخلفاء النبي ، بل هو خليفة الله
مرة واحدة . هو ظله على الارض وحامي كلمته ومنفذ إرادته .

الى امرئ لا تعدينا نوافله

أظفره الله فليهنئ له الظفر

الخائض الغمر والميمون طائره

خليفة الله يستسقى به المطر

والأخطل هنا ينسجم كل الانسجام مع زياد بن أبيه في سياسة بني أمية . ويروج لما كان يروج له زياد في قوله : « أيها الناس ، إنا أصبحنا لكم ساسة وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي اعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة في ما أحببنا ولكم علينا العدل في ما ولينا . ولكن زياداً لم يضع نفسه تحت شروط كتلك التي وضع ابوبكر نفسه تحتها حين قال : « اطيعوني ما أطعت الله فيكم ، فإذا عصيته فلا طاعة لي عليكم » . بل عقب على كلامه بقوله :

« فاستوجبوا عدلنا وفيئنا بناصرحتكم لنا ، قرب مبيتئس بقدومنا سيسر ، ومسروور بقدومنا سيبتئس » .

٥ - في مديح الأخطل انعكاس لكثير من المعتقدات الاسلامية ، وتعظيم للأمويين وتحليل لسياستهم من داخل التعاليم الحمدية ، مما يدل على أنه قد ألم بالدين ومعطياته على الرغم من كونه نصرانياً .

وفي مديحه أيضاً ، صورة للنزاع القبلي بين القيسية واليمنية وارتباط هذا النزاع بعجلة الخلافة ، وصورة للصراع الحزبي السياسي على أوسع نطاق ، وكيف كان ينظر اليه من نوافذ بني أمية .

٦ - كان الأخطل تلميذاً للناطقة ، يتبع خطاه في شعره ،

ويعارضه ويكتسب منه . فعاني النابغة كثيراً ما شاعت في شعر
الاخلط ، وصوره كثيراً ما طابت لشاعر أمية فضمنها أشعاره
كذلك الوصف للفرات الذي لا يختلف إلا في بضع كلمات عما قاله النابغة
في تشبيه الممدوح به . ولم تقتصر تلمذته على الشعر ، بل تعدته الى
الحياة الشخصية . فكما ترك النابغة الصحراء الى القصور في الحيرة
وفي الشام ، كذلك ترك الاخلط البادية الى العيش في بلاط دمشق
إبان عزه وأهته . فتلون شعره بألوان الحضارة مثلما تلون شعر
النابغة من قبل .

غير أن المركز الذي أحرزه الأخلط لدى الامويين ، كان
أقوى بكثير من المركز الذي ناله النابغة لدى أيّ من الدولتين ،
اللمخمية ، أو الغسانية . وقد يكون السبب في ذلك ، أن
الامويين علقوا أهمية كبرى على وجود الأخلط في صفهم لا لأنه
شاعر ينافح عنهم فحسب ، بل لأن وراءه قوة مادية ايضاً هي
قبيلة تغلب العاتية ، فهم محتاجون اليه أكثر من حاجته اليهم ، بينما
كان النابغة أكثر حاجة الى الغسانية ، والمناذرة منهم اليه ، وكان
مضطراً الى مراعاة الطرفين خدمة لقبيلته ، مما اضطره ايضاً الى اللعب
على حبلين ، وهذا الترجيح هو الذي أضعف مركزه ايضاً ؛ في
حين كان الأخلط ، مخلصاً كل الاخلاص للامويين وقف شعره
عليهم وتصدى لاعدائهم بكل عنف ومقدرة .

ناهيك بأن سياسة الاخلط ، كانت أكثر تعقيداً ورقياً من
سياسة النابغة . هي سياسة الحزب في الدرجة الاولى ، وإن
كانت مظاهر القبيلة ما تزال عالقة بها .

كان جرير بن عطية بن الخطفي ينتسب الى قبيلة كليب بن يربوع التميمية . وكان مولده في عهد عثمان بن عفان بأرض اليمامة . نشأ هذا الشاعر قليل ذات اليد ، وترعرع في ضعة من قومه ، بببيت والد فقير الحال حقير الشأن ، شحيح جاهل ، فرعى المواشي في صباه . ولقي من شظف العيش وقسوته شيئاً كثيراً . . غير إن جده الخطفي كان شاعراً عالماً بأنساب العرب ، فاكتسب منه حفيده شاعرية ومعارف ورفناً . وتشبّع جرير بطباع البدو ، وأخذ عنهم صفاء اللغة ، وبساطة العيش ، كما أخذ عنهم النزق وسرعة الانفعال والخشونة والأنفة ، ومقابلة الشر بمثله ، والتعصب الشديد للقبيلة . ثم إنه دان بالاسلام على نحو ما كان كل بدوي يدين به ، من غير ما تعمق أو تغلغل الى داخل القلب .

التف حوله قومه منذ أن كان في صباه ، حين هجا غسان السليطي لأن السليطي هجا قوم الشاعر . ووجدوا فيه رجلاً عبقرياً لا يجوز الزمان بمثله إلا نادراً ، ودار التهاجي بين الشاعرين ، فما لبث جرير أن ظهر على خصمه مما اضطر بني سليط الى الاستعانة بشعراء آخرين يهجون جريراً .

ما إن أصاب جرير الشهرة ، حتى أخذ الشعراء يتحرشون به ، متخذين من هجائه وسيلة لشهرتهم . غير أن أعظمهم في ذلك وأكثرهم ثباتاً أمام أبي حذرة كان الفرزدق . فلقد استمر التهاجي بينهما سنين طوالاً ، ولم تنطفئ جذوته الا بموت الفرزدق .

والذي يستفاد من روايات الأغاني : أن نحواً من أربعين شاعراً كانوا ينهشون جريراً ، وأن الحجاج قال له ذات يوم ' إيه يا عدو الله ، علام تشتم الناس وتظلمهم ؟ فقال : جعلني الله فداء الأمير ، والله إني ما أظلمهم ، ولكنهم يظلمونني فانتصر » ثم راح يعدد له الشعراء الذين هاجاهم وأسباب مهاجاته لهم حتى قال الحجاج : « قاتله الله اعرابياً انه لجرو هراش » .

أما أبرز هؤلاء الشعراء ؛ فالأخطل التغلبي ، والراعي النميري ، فضلاً عن الفرزدق . وما حكاية جرير مع الراعي بمجهولة ، وما هي مجهولة كذلك قصيدة جرير الدامغة التي حطم فيها الراعي وبني نمير أجمعين حين قال :

أنا البازي المطل على نمير أتحت من السماء لها انصبابا
ولو وضعت حلوم بني نمير على الميزان ما وزنت ذبابا
فصبراً يا تيوس بني نمير فان الحرب موقدة شهابا
وغض الطرف إنك من نمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا
ويذكرون أن كل امرئ من نمير ، قد أصبح بعد هذه القصيدة ينجل من الانتساب الى قبيلته ، فينتسب الى غيرها هرباً من الوصمة التي وصمهم بها جرير .

على أن الهجاء ليس الفن الوحيد الذي أتقنه ابن عطية . بل إن له مديحاً لا يقل جودة عن هجائه ، فيه شاعرية سمحة دفّاقة ، وفيه بلاغة وصفاء وشدة أسر . قال جرير هذا المديح تكسباً .

فلقد اتصل ببلاط بني أمية إبان حكم يزيد بن معاوية . ولما شبت نار الفتنة بين ابن الزبير و مروان بن الحكم اختار جرير جانب الزبيرين لما بدا من عداوة أمية للقيسية التي كان جرير يتعصب لها ، ومن تقرب لليمانية أعداء قومه ، حتى اذا قضى الأمويون على ابن الزبير ، عاد جرير يتلمس طريق العودة الى أمية فاتصل ببشر بن مروان شقيق عبد الملك ، وكان والياً من قبل أخيه على العراق فمدحه . ثم اتصل بالحجاج خليفته ، فقال فيه مدائح رائعات . وقد رضي الحجاج عن جرير كثيراً وحاول مساعدته لدى عبد الملك كي يكون شاعراً للبلاط الأموي . ولكن عبد الملك على تقديره لجرير وشعره كان يحفظ له انحيازه الى الزبيرين من ناح وانصرافه الى الحجاج من ناح ثان ، ليقول فيه خير مدائح . لذلك لم يأذن له بالدخول عليه إلا بعد لأي ، وأنشد جرير عبد الملك قصيدته الشهيرة ومنها قوله :

سأمتاح البحور فجنذبيني	أداة اللوم وانتظري امتياحي
ثقي بالله ليس له شريك	ومن عند الخليفة بالنجاح
أغثني يا فداك أبي وأمي	بغيث منك إنك ذو ارتياح
فاني قد رأيت علي حقاً	زيارتي الخليفة وامتداحي
سأشكر إن رددت علي ريشي	وأنبت القوادم في جناحي
ألستم خير من ركب المطايا	وأندى العالمين بطون راح ؟

فرضي عبد الملك عنه ، وكافأه بجائزة كبرى ، وراق له أن يكون فحل من فحول الشعراء كجرير في جانبه . ومنذ ذلك الحين

كثرت مدائح جرير في الأمويين الى ان توفي سنة ١١٠ هـ بعد
ان مات الأخطل والفرزدق قبله .

مدح الحجاج :

سئمتُ من المواصلة العتبا
وأَمسى الشَّيبُ قد ورث السَّبابا
غدت هوجُ الرياحِ مبشراتِ
الى بينِ نزلتِ به السَّحابا^١
لقد أقررتِ غيبتنا لِواشِ
وكنا لا نُقرُّ لكِ اغتيا^٢
أناةٌ لا النُّموم لها خدينُ^٣
ولا تُهدي لجارتها السَّبابا^٤
تطيبُ الأرضُ إن نزلت بأرضِ
وُتسقى حين تنزلها الرِّبابا .^٥
كأنَّ المسكَ خالطَ طعمَ فيها
بماءِ المزنِ يطرَدُ الحبابا .^٥

١ - الهوج : جمع هوجاء وهي الرياح الشديدة . البين : الناحية من الأرض .

٢ - الغيبة : ذكر المرء بما يسوءه اثناء غيابه .

٣ - الأناة : الرزينة الوقور . النعموم : المفسدة بين الناس بالكذب .

الحدين : الصديق .

٤ - الرباب : السحاب الأبيض .

٥ - المزن : السحاب . حباب الماء : نفاضاته التي تعلوه .

أَلَا تَجْزِينَنِي وَهْمُومُ نَفْسِي
 بِذِكْرِكَ قَدْ أُطِيلَ لَهَا اِكْتِنَابًا ١
 سُقِيتِ الْغَيْثَ حَيْثُ نَأَيْتِ عَنَّا
 فَمَا نَهَوَى لَغِيرِكُمْ سُقَابًا ٢
 أَهَذَا الْبَخْلُ زَادَكَ نَأْيَ دَارٍ
 فَلَيْتَ الْحَبَّ زَادَكُمْ اقْتِرَابًا .
 لَقَدْ نَامَ الْخَلِيٌّ وَطَالَ لَيْلِي
 مَجْبُوكٍ مَا أَبَيْتُ لَهُ اِنتِحَابًا .
 أَرَى الْهَجْرَانَ يُحْدِثُ كُلَّ يَوْمٍ
 لِقَلْبِي حِينَ أَهْجُرَكُمْ عِتَابًا .
 وَكَائِنْ بِالْأَبَاطِحِ مِنْ صَدِيقٍ
 يَرَانِي لَوْ أَصَبْتُ لَهُ الْمَصَابَا ٣
 وَمَسْرُورٍ بِأَوْبَتِنَا إِلَيْهِ
 وَآخِرُ لَا يَجِبُ لَنَا إِيَابَا
 دَعَا الْحَجَّاجُ مِثْلَ دُعَاءِ نُوحٍ
 فَاسْمَعْ ذَا الْمَعَارِجِ فَاسْتَجَابَا ٤

١ - ألا تجزينني ؛ يريد بها ان يقول الا تصلينني .

٢ - النأي ؛ البعد . السقاب ؛ القرب والجوار .

٣ - كائن ؛ من كنايات العدد بمعنى كم الخبرية التي تفيد التكثير . وهي تفترق باقتران تمييزها بمن . الاباطح ؛ جمع ابطح وبطحاء ؛ مسيل واسع فيه دقاق الحصى .

٤ - دعا نوح ربه فقال ؛ « رب لا تذر على الارض من الكافرين ديارا . »

ذو المعارج ؛ هو الله والمعارج ؛ السموات .

صبرتَ النفسَ يا ابنَ أبي عَقيـلٍ
 'محافظةً فكيفَ ترى الثوابا ؟
 ولو لم يرضَ ربُّكَ لم يُنزلْ
 مع النَّصرِ الملائكةَ الغضابا
 إذا سَعَرَ الخليفةُ نارَ حربٍ
 رأى الحجاجَ أثقبا شهابا^١
 ترى نصرَ الإمامِ عليكَ حقاً
 إذا لبسوا بدينهم ارتيابا^٢
 تشدُّ فلا تكذبُ يومَ زحفٍ
 إذا الغمراتُ زعزعتِ العقابا^٣
 عفاريتَ العراقِ شفيتَ منهم
 فأمسوا خاضعين لك الرقابا
 وقالوا لن 'يُجامعنا أمير'
 أقام الحدَّ واتَّبع الكتابا
 إذا أخذوا ، وكيدُهم ضعيفُ
 ببابٍ يَمكرونَ فتحتَ بابا

١ - سَعَرَ ؛ أشعل . ثَقَبَتِ النارُ ؛ اتقدت ، والكواكب ، اضاءت .
 والشهاب ؛ الكوكب .

٢ - الإمام ؛ أمير المؤمنين عبد الملك . اللبس ؛ الاتصال والاختلاط .
 والاشتباه .

٣ - تشد ؛ تحمل على الاعداء . الغمرات ؛ الشدائد . العقاب . الراية .

وَأَشْمَطَ قَدْ تَرَدَّدَ فِي عِمَاهُ
 جَعَلَتْ لِشَيْبٍ لَحِيَّتِهِ خَضَابًا^١
 إِذَا عَلِقَتْ حَبَالُكَ حَبْلَ عَاصٍ
 رَأَى الْعَاصِي مِنْ الْأَجْلِ اقْتِرَابًا
 بَأَنَّ السَّيْفَ لَيْسَ لَهُ مَرَدٌ^٢
 إِذَا أَفْرَى عَنِ الرَّئَةِ الْحِجَابًا^٣
 كَأَنَّكَ قَدْ رَأَيْتَ مُقَدَّمَاتٍ
 بِصِيْنِسْتَانَ قَدْ رَفَعُوا الْقِبَابَا^٤
 جَعَلَتْ لِكُلِّ مُحْتَرِسٍ مَخَوفٍ
 صَفُوفًا دَارِعِينَ بِهِ وَغَابَا .^٥

في هذه القصيدة يقدم الشاعر بين يدي مديحه أبياتاً في
 النسب . ولكنه نسيب رقيق يستمد رفته من حساسية جرير
 وعواطفه وسعة شعوره ، فيتحدث عن الهجران ، والتوق الى
 المواصلة والعتب الشديد الذي يبعث به الشاعر الى حبيبته ، ثم
 يستسقي الغمام لكل أرض تطأها الحبيبة . والذي كان يؤلمه ،
 هو استماعها الى الوشاة وتصديق اقوالهم ، في حين انه ما كان
 يوماً ليصفى الى واش . . والحبيبة في شعر جرير امرأة رصينة

١ - الاشمت ؛ الذي وخطه الشيب .

٢ - مرد : مصرف . أفرى : شق وقطع .

٣ - مقدمة الجيش ؛ الطائفة المتقدمة منه . صينستان ؛ بلاد الصين .

٤ - المحترس : المكان الخطر . دارعين : لابسين دروعهم . الغاب ؛

جمع غابة .

عاقلة ، حسنة السيرة ، عالية الخلق ، لا تم ولا تشتم ، ولا يكرهها جيرانها . اذا نزلت بارض بوركنت هذه الارض ، ونما فيها الخير ، وكثر الرزق . والملاحظ ، أن جريراً يهتم بأخلاق المرأة أكثر من اهتمامه بمحاسنها الجسدية ، وان كان لا يهمل هذه المحاسن كل الإهمال . وهو يعنى بإظهار لوعته وما يسبب له حبه من هموم ومع ذلك فإنه لا يقلع عن صوابته ، بل يزداد تعلقاً بمن يحب . والناس بين عاذل يلوم ، وهو يضحك في سره وصاديق يرثي لحال صديقه ويشاركه بعض وجده .

فاذا انتهى جرير من النسيب ، وثب الى المدح ، فبدأ له الحجاج كنوح نبي الله ، يبيد الكفر ، ويستأصل جذور الفساد ، ويقضي على كل شر في ولايته . وهو حرب على أعداء الدين وأعداء الخلافة ، يأتيه نصر من الله ذي المعارج ، وتستجاب دعواته . هو رجل صبور يحمل النفس على الشدة فيحارب أعداءه بمعونة من ملائكة الله المكرمين . لذا ، كان الحجاج درعاً تقى الخلافة الأموية كل سوء وتكفيها كل حرب ، وما كان الحجاج في يوم من الايام نصيراً للخلافة إلا في الحق ، وذوداً عن الدين بنوع أخص .

ويستمر جرير في إضفاء البطولة على صاحب العراق ، ويتغنى بفوزه ، وكسره شوكة كل من سولت له نفسه معارضة الطاغية الثقفى ، فويل لمن يغضب الحجاج عليه ولا ينسى جرير المناسبة التي أرسل فيها الحجاج أول جيش الى الصين ، فيذكر ذلك ويتغنى به كمأثرة من مآثر الرجل ، كما يتغنى بحكم الحجاج عامة ، ونشره

الآمن في كل ربع من ربوع البلاد ..

خصائص جرير في هذه القصيدة

١ - إن أول ما يسترعي انتباه الدارس لهذه القصيدة هو المطلع الغزلي ، وجميع قصائد جرير كانت تستهل بالغزل على سنة الشعراء في ذلك العصر ، وفي عصر الجاهلية .

غير أن هنالك شيئاً تمتاز به مطالع هذا الشاعر الغزلية هو الإطالة فيها إطالة ملحوظة حتى تستغرق هنا بضعة عشر بيتاً وقد تتجاوز العشرين في غير هذا الموضع .

٢ - والنسيب في شعر جرير رقيق شفاف عذب الاصوات منسجم النغم ، صادق العاطفة رزين ينساب هادئاً ليناً وقد أودع من رهافة الحس وصقل الذوق شيئاً كثيراً . تناقل عنه الرواة أنه كان يقول : « ما عشقت قط ، ولو عشقت لنسبت نسيباً تسمعه العجوز فتبكي على ما فاتها من شبابها .

والواقع أن جريراً لم يتح له أن يتفرغ إلى الحب كما تفرغ ابن أبي ربيعة وابن الرقيات وكثير . فلقد شغل بالشعراء ينهشونه وهو يقارعهم ويرد عليهم واحداً واحداً ، ولو تيسر له أن يحيا حياة هادئة ، لكان قد أعطى الكثير من الشعر الجيد الذي لا عهد للناس به .

٣ - في شعر جرير طبيعية وسهولة وتعبير أنيقة ، لا في غزله فحسب ، بل في مديحه وفي هجائه وفي رثائه وفي كل فن نظم فيه هذا الرجل . فهو من هذا القبيل لا يعتمد إلا على فطرته الشعرية

ولا يفهم الشعر الا عملية غنائية ، عاطفيه وجدانية على النحو العربي الأصيل . واذا كان عمود الشعر العربي قد حوفظ عليه لدى رهط كثير من شعراء العرب فإن جريراً والبحثري هما أبين من حافظ عليه وعلى الديباجة العربية الحقيقية .

٤ - اذا أراد جرير أن ينتقل من النسيب الى المديح كان انتقاله مفاجئاً لا تطف فيه ولا جسر يربط بين الجزئين . وأكبر الظن أن هذه الظاهرة هي وليدة التقليد المتبع منذ الجاهلية ، والذي لم يكن جرير ليشذ عنه أيما شذوذ .

٥ - كان جرير رجلاً بدوياً كما كان صاحبه الأخطل وكان لبداوته أثر بـين في شعره ، إن في قوة التركيب أو في جزالة الألفاظ أو في بساطة المعاني أو في الصور والأخيلة . وقد يكون عدم تخرجه من استخدام التعابير المكشوفة أثراً من آثار هذه البداوة .

٦ - في شعر جرير أثر إسلامي واضح المعالم يدل على ايمان جرير أولاً ، ويدل على تأثره ببلاغة القرآن ثانياً ، وعلى أنه كان يدرك ما للدين من أهمية في النفوس ثالثاً ، وما يمكن أن يخلع من القداسة على أعمال رجل يربط بينها وبين أرادة الله . ولم يك جرير في ذلك شاذاً ، بل ان السياسة على اختلاف مذاهبها ورجالاتها ، كانت تسعى الى تلقيح وجهة النظر لديها بلقاح ديني . والأمويون بنوع أخص ، وولاتهم كانوا يروجون أن الله هو الذي أعطاهم السلطان على نحو ما رأينا في شعر الأخطل .

ولقد ذهب جرير الى ابعاد من ذلك ، فضمن شعره أقوالاً

قرآنية أو معاني قرآنية فالحجاج يدعو كدعاء نوح حين قال :
« رب لا تذر على الأرض من الكافرين دياراً . إنك إن تذرهم
يضلوا عبادك ، ولا يلدوا ألا فاجراً كفّاراً . » فاستجاب له الله
« ذو المعارج » وإذا مكر الكافرون رأيت الحجاج يأخذهم بمكر
كمكرهم اقتباساً من الآية الكريمة : « ومكروا مكراً ومكرنا
مكراً ، وهم لا يشعرون » .

وله في مديح عبد الملك أبيات توضح هذا النفس الديني أشد
إيضاح منها قوله :

لولا الخليفة والقرآن تقرأه
ما قام للناس أحكام ولا جمع
أنت الأمين أمين الله لا سرف
فيما وليت ولا هيابة ورع
مثل المهند لم تبهر ضريبتيه
لم يغش غريبه تغليل ولا طبع .
أنت المبارك يهدي الله شيعته
إذا تفرقت الأهواء والشيعة .
فكل أمر على يمن أمرت به
فينا مطاع ومهما قلت مستمع
يا آل مروان إن الله فضلكم
فضلاً عظيماً على من دينه البدع
إن البرية ترضى ما رضيت لها
إن سرت ساروا وإن قلت اربعوا ربعوا

ونرانا في غنى عن تبيان العلاقة بين هذه الأبيات وبين
السياسة الأموية ، فهي تنضح بما كان الامويون يسعون الى نشره
بين الناس وإرساخه في أذهانهم .

٧ - إن الفضائل التي خلعها جرير على الحجاج هي الفضائل
التي ينبغي أن يتحلى بها كل وال . فهو أولاً مسموع الدعاء ،
وهو صبور يلقي دائماً نتيجة صبره خيراً ولا غرابة ، فالله عن
أعماله راض والخليفة يوكل اليه كل أمر جليل . والحجاج يدافع
عن الدين ويرفع كلمة الله ، وهو شجاع حازم خواض للغمرات ،
مقيم لحدود الله ، متقيد بتعاليم كتابه . قادر على بسط سلطانه
وعلى ضبط الشؤون في جميع مرافق ولايته . العصاة يرتعدون
منه رهبة ، والسيوف لا يذبو بكفه .

وما أغفل جرير عنصر الدهاء ، وما كان الحجاج ليعوزه
هذا العنصر وهل بعد هذه الصفات من صفة تنقص الوالي المثالي؟

٨ - كان جرير يتكسب بمديحه ، ويلمح الى تكسبه بكلام
يضمنه شعره . وإن لم نلمح مثل هذه الاشارات في القصيدة التي
بين أيدينا ، ففي الأبيات السابقة التي مدح بها عبد الملك تصريح
ظاهر وتزلف أيضاً .

أغثنى يا فداك أبي وأمي
بسبب منك إنك ذو ارتياح
سأشكر إن رددت عليّ ريشي
وأنبت القوادم في جناحي

٩ - يختلف المديح لدى جرير عن المديح لدى الأخطل ،
في أن جريراً لم يحتد حذو إنسان في شعره كما فعل الأخطل إذ
اتبع خطى النابغة الذبياني .

من شعر عبيد الله بن قيس الرقيات :

هو شاعر من قريش ، لقب بالرقيات لانه شبيب بثلاث نسوة
كل منهن كان اسمها رقية . أما في السياسة فكان زبيري الهوى
يناصر الحزب مناصرة فعالة ، ويتعصب كثيراً لصديقه مصعب
ابن الزبير .

فلما خرج مصعب لقتال عبد الملك ، خرج الشاعر معه ،
وظل في صحبته حتى قتل مصعب عام ٧٢ هـ . وما أشد ما كانت
نقمة الأمويين عليه فراحوا يطلبونه ، وهو يفر من مكان الى مكان
حتى انتهى به المطاف عند عبد الله بن جعفر بن أبي طالب .
فاستجار به فأجاره ، وكتب حفيد أبي طالب الى أم البنين زوجة
الوليد بن عبد الملك ، فوفد الشاعر عليه ، ومدحه بقصيدة
جاء فيها :

يعتدل التاج فوق مفرقه على جبين كأنه الذهب
فقال له عبد الملك : « يا قيس ، تمدحني بالتاج كأنني من العجم ،
وتقول في مصعب :

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
ملكه ملك عزّة ليس فيه جبروت ولا به كبرياء ؟
أما الأمان فقد سبق لك ، ولكن والله لا تأخذ مع المسلمين

عندها ترك عبيد الله دمشق الى مصر حيث يوجد عبد العزيز ابن مروان ، شقيق عبد الملك . فلزمه حتى مات سنة ٧٥ هـ .
واليك واحدة من أشهر قصائده في امتداح مصعب بن الزبير :
قال بعد أن وصف الطلول وذكر الأجابة .

حبذا العيشُ حين قومي جميعٌ لم تُفرِّقْ أمورها الأهواءُ
قبلَ أن تطمعَ القبائلُ في ملكِ قريشٍ وتشمّتَ الأعداءُ
أيها المشتبهُ فناءَ قريشٍ بيدِ الله عمرُها والفاءُ
إن تُودَّعُ من البلادِ قريشٌ لا يَكنُ بعدهمُ حيٌّ بقاءُ
لم نزلْ آمنينَ يحسدُنا الناسُ ويجري لنا بذلك الثَّراءُ
فرضينا فمُتْ بدائكُ غمٍّ لا تَمَيّنْ غيرَكَ الأدواءُ
لو بَكَتْ هذه السماءُ على قوٍ مِ كرامٍ بَكَتْ علينا السماءُ
إنما مُصعَّبٌ شهابٌ من الله تجلّتْ عن وَجْهِهِ الظلماءُ
مُلكُهُ ملكٌ قوّةٍ ليس فيه جَبَروتٌ ولا به كبرياءُ
يتَّقِي الله في الأمورِ وقد أفلحَ من كانَ همّه الإِتِّقاءُ
عينِ فابكي على قريشٍ وهل يُرِجِعُ ما فات إن بكيتِ البكاءُ
مَعشَرٌ حَتَفَهُمُ سيوفُ بني العِـ كرامٍ يَخْشَوْنَ أن يَضِيعَ اللّواءُ
كيفَ نومي على الفراشِ ولما يَشْمَلُ الشَّامَ غارةٌ شَعْوَاءُ
تَذِهلُ الشيخَ عن بنيهِ وتبدي عن بُراها العقيلةُ العذراءُ
أنا عنكم بني أُميّة مُزورٌ وأنتم في نفسِي الأعداءُ
إنّ قَتَلِي بِالطَّفِّ قد أوجعتني كانَ منكمُ لئن قَتَلْتُمُ شِفاءُ

هكذا كان الرقيات يفكر ، وكان يعنيه كثيراً ان يجتمع
شمل قريش ، فلا يكون هذا الانقسام بين هاشميين وأمويين
وزبيريين يتطاحنون ويفني بعضهم بعضاً ، ويجعلون العداوة
والبغضاء ، غرساً في نفوسهم .

كان يعتبر أن السبب في هذا التفكك يعود الى مطامع أمية ،
وعليهم تقع التبعات في جميع الدماء الزكية التي أريقت على
مذابح السياسة والذي يمض الشاعر أن تصبح القبائل التي لم
يكن لها متنفس في يوم من الايام ذات مطامع في الخلافة وفي
زحزحة قريش عن زعامة المسلمين .

أهكذا تريدون يا أيها القرشيون ؟ ان يشمت الناس بكم
وأن يشتهوا فناءكم ؟ ثم يلتفت الشاعر الى الذين يتربصون الدوائر
بقومه ، فيغيظهم ويكيد لهم كيلاً ويبلغهم أن تمنياتهم ومساعيهم
سوف تذهب هباء ، فقريش لن تذلل ، ولن يكون لها وداع من
البلاد ، هي في نعمة وستبقى ، فمت بدائك غمّاً أيها المبغض
اللدود . ولا يغفل الرقيات ما لقريش من قداسة وما لها في السماء
من إكرام . ولكن الرجل الذي هو اكرم من في قريش وأعظمها
شأناً وأحقها بالسيادة ليس إلا مصعب بن الزبير .

إنما مصعب شهاب من الله تجلت عن وجهه الظلماء
يهديه يجب ان يهتدي الناس ، وعلى نوره فليسيروا ، ملكه ملك قوة
وهو الحليم الذي لا يسمو اليه جبر ولا كبرياء . أما ترى أن في
هذه الصفات ما يذكرنا دائماً بشيخ القبيلة العربية ؟ ولكنه شيخ
قد أصاب رقياً ، فدان بالاسلام ، واكتسب منه خلقاً وأدباً

وفضيلة وطهارة وأضفى عليه التقى هيبة لم تكن قبل الاسلام
معروفة عند العرب .

وإنها لدمعة حرّى يذرفها عبيد الله على أولئك القرشيين الذين
لقوا حتفهم على أيدي قرشيين من إخوانهم تحقيقاً للمطامع السياسية .
وفي هذا المقام تشتد لوعته وتقوى نغمته على الذين كانوا السبب في
كل هذه الجرائم ؛ على بني أمية الذين هتكوا الحرمات واستخفوا
بقوانين الدين والأخلاق ، ثم يرسلها صرخة مدوية في الثائرين
يدعو بها الى الاغارة على بلاد الشام إغارة عنيفة عامة تذهل
الشيخ عن بنيه وتملأ الارض هولاً وذعراً . ويختم الشاعر قصيدته
بهجاء الأمويين ويكشف عن عداوته لهم ، ثم يعرض بقتلى الطف
وفيهم الحسين بن علي ، ويتمنى لو كان الموت من نصيب الامويين
وخدمهم فبموتهم فقط شفاء نفسه .

والذي لا يسعنا إغفاله قبل أن نغادر هذه القصيدة هو أن
ابن الرقيات كان قرشي الهوى أكثر منه زبيرياً . وكانت نغمته
على الأمويين متأتية في معظمها من تقريبيهم لليمانية وابتعادهم
عن قريش ، وعدم اعتمادهم عليها ، ومتأتية أيضاً من
استبدادهم الشام بالحجاز عاصمة لهم . أما الخوارج فعداوته
لهم ناجمة عن مناداتهم بجمهورية عربية تتساوى فيها القبائل . وابن
الرقيات لا يريد إلا حكماً أريستوقراطياً تتزعمه قريش . وما نجد
من تفسير لامتداحه الامويين بعد ذلك إلا في كونه قد وجد فيه
هذه الاريستوقراطية القرشية التي كان ينشدها والملاحظ أنه كان
يعطف على الطالبين ، وكان يندد بإيذاء بني أمية لهم باعتبارهم

في لب قريش ، ومكان عظمة منها .

وإذا كان هذا الشاعر قد نظم في الشعر السياسي مدحاً
وهجاء ، فان شهرته لم تقم على ذلك بمثل ما قامت على غزله .
فهو من الغزلين المعدودين ، ينتمي الى مدرسة عمر بن أبي ربيعة
الحضرية ، ان في معانيها وموضوعاتها ، أو في رقتها ودمائة
أسلوبها وغنائيتها . ولقد كانت الرقة طابعاً مميزاً لكل شعره ،
فهي بارزة حتى في القصيدة التي بين أيدينا ، حيث تجد العاطفة
الحزينة الصادقة تمدّ هذا الشعر بما يحتاج اليه من عذوبة ولين ،
وحيث تجد الذوق الرهيف يركب الكلام ويختار مفرداته بطريقة
لا تحس معها بأية خشونة أو اضطراب .



المدّيح في عصر بني العبّاس

كيف انتقل الحكم من الامويين الى العباسيين ؟

لقد كان من نتائج الصراع السياسي الذي عرفه عصر بني أمية ، أن قتل الحسين بن علي في كربلاء ، ومات أخوه الحسن ، وتمت السيطرة للأمويين ، ولجأ الطالبيون الى التقيّة . وكان لعلي امرأة اسمها حنيفة ، او الحنفية ، تركت منه ولداً هو محمد بن الحنفية كان تقياً ورعاً ذا فضل ، تسلّم إمامة الشيعة ، وقضى عمره في خدمة مصالحهم ، والدفاع عن حقوقهم . ولما مات خلفه في الامامة ابنه إبراهيم . والذي يؤثّر ، أن عبد الملك بن مروان ، دعا إبراهيم الى دمشق ، ودسّ له سمّاً ، وفيما هو عائد مسموماً ، عرج على الحميمة ، وكان فيها رجل من أحفاد العبّاس عم النبي محمد وعمّ علي بن أبي طالب ، هو محمد ابن علي بن عبد الله بن عبّاس . فبايعه إبراهيم سرّاً ليؤم الشيعة ، وليتابع العمل على استنقاذ الخلافة من أيدي الأمويين ، وإعادتها الى الطالبين أصحاب الحق الشرعي .

قام محمد العباسي يثبت العيون في خراسان والعراق ، وكل منها موطن للشيعة ، فأيدته فرقة الكيسانية العلوية ، واشتدت دعوته في بلاد فارس أيضاً وفيها نصر بن سيار ، فشعر هذا بأن البلاد تكاد أن تفلت منه . فاستنجد بمروان بن محمد ، آخر الخلفاء الأمويين .

ولكن الخليفة لم يستطع نجده ، لانه كان منصرفاً الى الانشغالات القريبة منه ، والتي شطرت البلاد الى شطرين كبيرين . القيسية واليمانية . فتخاذل عن إمداد بن سيار بما يحتاج اليه من جنود ، مما سهل على أبي مسلم الخراساني ، الذي انضم الى المعارضة أن يثبت الدعوة العباسية ، ولو سرّاً . عندها ، هرب نصر بن سيار الى العراق ، ومات فيه ، وبايع الكيسانية السفاح بن محمد العباسي ، الذي اكتسح مرو سنة ٧٤٧ م والكوفة سنة ٧٤٩ م وانساحت جيوشه في أقطار كثيرة ؛ عندها بدأ مروان بن محمد الأموي يستعد للمعركة الحاسمة . فجهز جيشاً يربي على خمسة عشر ألف مقاتل والتقى بالعباسيين على نهر الزاب ، فكان النصر حليفاً للسفاح ، وانهزم مروان بن محمد وجنوده ، ففرّ الى مصر حيث لحق به أعداؤه واحتزّوا رأسه ، ثم أرسلوه الى مقر رئاستهم مع شارات الخلافة . حاصر السفاح دمشق مدة اسبوع سقطت على أثره ، فتم له الأمر ، وأعلن انتهاء الحكم الأموي ، وبداية العهد العباسي .

ما الذي يميز هذا العهد ؟

أ - إنه طويل المدى ، قد تجاوز خمسة من القرون ؛ وأنه لم يكن عصراً واحداً ، بل كان عصوراً أربعة متتابة ؛ انماز الأول منها بقوة الدولة وزهوها ، وباستقرار الحياة ، وغلبة النفوذ العربي وإن يكن الفرس قد نالوا بعض العطف والتقريب . أما الثاني ، فميزته في أن امارات التصدّع والتفكك قد بدأت تظهر في جهاز الدولة ؛ وأن الأتراك قد حلّوا محل الفرس في النفوذ والقرب من الحاكم ، وأن السيادة العربية قد انهار جانب عظيم منها ، حتى أصبح الخليفة ألعوبة في أيدي الجنود الأتراك .

إزاء هذا الوضع ، تفككت الأمبراطورية الاسلامية ، واستقل الولاة عن الخلافة ، فضربوا بسلطات « أمير المؤمنين » عرض الحائط ، اللهم إلا نفرأ من العرب الخلتص كانوا بمثابة حماة للخليفة ، كبني حميد الطوسي ، وبني حمدان وسواهم .

وهنا دخلت الدولة العباسية في دورها الثالث ، دور الدويلات والصراع بين الحكّام ، واضطراب الحياة العامة .

وأما الدور الرابع ، فمن مزاياه أن السلاجقة الأتراك هم الذين أصبحوا أصحاب الأمر والنهي ، يحكمون البلاد حكماً فيه شيء كثير من الاعتباط والفوضى ؛ إلى أن جاء التتار بقيادة هولاكو المغولي فخربوا بغداد ، وسحقوا الخلافة العباسية . ثم كانت الحملات الصليبية فلم تعرف بلاد العرب بعد ذلك يوماً من العزّ إلا في العصر الحديث ، وإن يكن قد انتشلها بين الحين والحين

رجال أشداء من أمثال صلاح الدين الأيوبي .

ب - في العصر العباسي تكوّن ما نسميه القومية العربية وعوامل هذا التكوّن ترجع الى مظاهر ثلاثة :

١ - افتتاح العرب لبلدان كثيرة واستقرارهم فيها .

٢ - امتزاجهم بعناصر أجنبية ، وقيام نوع من الصراع الاجتماعي بينهم وبين تلك العناصر .

٣ - ذوبان الأمم المغلوبة في بوتقة العرب ديناً ولغة وأدباً وسياسة .

ج - كان العصر العباسي عصر عمران وازدهار في الحياة الاجتماعية ، فيه أنشئت المدن ، وأقيمت القصور والمساجد والمستشفيات والمدارس والمتنزهات ودور اللهو . وفيه تفنّن العرب في اقتباسهم عن الروم والفرس كثيراً من مظاهر التمدن .

د - ولقد عرفت الحياة العباسية ثروات طائلة وترفاً ورغداً في العيش وإن لم تكن هذه الثروات موزعة توزيعاً عادلاً على مختلف طبقات المجتمع .

وانغمس الناس في اللذائذ ، وافتنوا في طلبها حتى بلغوا المفاسد ، وشاعت في المجتمع عادات وأساليب سيئة أدّت الى الانهيار الخلقي لدى نفر غير قليل من الشعب .

ومن نتائج الترف كثرة الجوارح والغلمان والعبيد في ذلك المجتمع ، وانتشار الخمرات هنا وهناك على مرأى من الخلفاء والناس .

هـ - لكن العصر العباسي كان عصر رقي في الفكر ، وازدهار

في العلوم ، واتساع في الأدب ، وتجريد في العقل ، وتشعب في مجاري المعرفة . فلقد كثرت فيه المدارس ، وأقبل الناس على اغتراف العلم ، واتسعت حركة الترجمة والتأليف ، فنقل الى العربية معظم التراث اليوناني والتراث الفارسي ، والتراث الهندي وغيرها ، من كتب في الرياضيات والفلك والطب وعلوم النبات والكيمياء والحيوان ، والهيئة والفلسفة والمنطق والتاريخ والجغرافية وما عدا ذلك من العلوم ، كما اتجه أهل الفكر الى التأليف في مختلف الحقول ، واكتشاف الكثير من أسرار الكون والسير بالمعرفة خطوات جبارة الى الأمام .

ومما شجع الحركة الفكرية على الازدهار ، الامور الآتية :

١ - انتشار النسخ والتدوين ، وازدياد عدد القراء .

٢ . إقامة المكتبات العمومية الكبرى كدار الحكمة في بغداد مثلاً .

٣ - تنافس الملوك والامراء في تشجيع العلم ، وسعي كل منهم الى أن يجمع أكبر عدد ممكن من الشعراء والادباء والعلماء والفلاسفة في بلاطه .

٤ - الرحلات العلمية بين الاندلس والشرق .

٥ - تعقد الحياة وتطلبها لفكر غزير يعبر عنها ويعالج مشكلاتها .

٦ - كثرة المذاهب الدينية والفكرية ، ونشاط أصحابها في الدفاع عنها ونشرها بين الناس .

٧ - اختار العقلية العربية بالعلوم الطبيعية والفلسفية ،

والذي لم يكن منه بدّ ، هو أن تؤثر هذه الحركة الفكرية الواسعة تأثيراً عظيماً في شعر العرب وفي فن المديح بالذات ، كما لم يكن بدّ من أن تؤثر الحياة كلها في هذا المديح .

خصائص المديح في العصر العباسي عموماً :

من يقبل على دراسة شعر المديح ، وينظر في تطوراته عبر العصور ، يلحظ أنه قد كان منذ الجاهلية يسير في اتجاهات ثلاثة :

- اتجاه أول ، قوامه الإعجاب بالفضيلة وبمن يتحلى بها من الناس ، والمساهمة في بلورة المثل العليا ، والدعوة الى اعتناقها ، والشد بالانسان نحو العلاء في أخلاقه وتصرفاته . وهذا الشعر لم تكن غايته الكسب الفردي ، بل الإصلاح الاجتماعي ، والتعبير عن اهتزاز في الضمير أمام الأعمال العظيمة .

- واتجاه ثان ، قوامه الشعور القبلي ، والعصبية الدموية ، وخدمة أغراض القبيلة التي ينتمي الشاعر اليها . وفي هذا الاتجاه بالذات ، نجد الشعر السياسي الذي يعرض نزعات القبائل وينافح عن مصالحها ، ويرعى كيائها ويذب عنها الأعداء ، ويحميها من التفكك ، ويجمع حولها الأحلاف وينشر مآثرها بين العرب ، ويمدح كل من والاه ، ويهجو من عاداها . أما الغاية من هذا الشعر ، فأداء واجب كان يفرضه نظام العيش في الجاهلية ؛ هو واجب الشاعر نحو قبيلته التي تحميه والتي تعتبر كلاً متماسكاً ، والشاعر جزء منها غير مستقل . وفي هذا النظام تجد القبيلة مسؤولة عن كل فرد من أفرادها ، وتجد الأفراد جميعاً مسؤولين

عن كل القبيلة .

● واما الاتجاه الثالث فهو اتجاه التكسب ، وبيع الشعر بالدينار . اتجاه أولئك الذين اتخذوا من المديح صنعة يتعيشون بها ، وراحوا يتقربون الى الملوك والى العظماء ، ويلفقون القول فيهم لينالوا مالا ينفقونه في مختلف شؤون العيش .

وظهر الاسلام ، فبدل في أحوال العرب كثيراً ، ولم يكن بد من أن يصيب شعر المديح شيء من هذا التبديل ، فخفت صوت الفئة الثالثة من المداحين ، واقتصر هذا الفن على الاتجاهين الأولين . ولكن بديل أن تكون القبيلة هي محور المديح ، أصبح الدين الجديد محوراً له . وأصبحت الرابطة الاسلامية هي التي تحمل الشعراء على التمدح بجماعة المؤمنين ، وبنبِيِّهم محمد ، وعقيدتهم القويمة . وجدير بالذكر ، أن الحركة الجديدة التي أدت الى انقلاب عام في حياة العرب ، قد شجعت الاتجاه الاول من اتجاهات المديح ، وزادت في الحث على الفضيلة والتمسك بها .

ثم جاء العصر الأموي ، وحلت بحلولة المنازعات والاضطرابات والفتن ، فعاد العرب الى ما يشبه الفوضى الجاهلية ، واستيقظت في بلادهم تلك الخصومات القديمة والاهواء الفاسدة ، ونهض شعر المديح يخدم السياسة ويواكبها ، ويتأثر بمؤثراتها ، فضعف فيه الاتجاه الأول ليقوى الاتجاهان الآخران ، فاذا التكبس بالمديح يتسع ويرتحب مداه ، ويقبل عليه الشعراء نهمين ، وقد اشتد في نفوسهم حب المادة ، لما جاءت به الحياة من تطورات تستدعي كثرة الانفاق وازدياد مطالب العيش ؛ ويقبلون عليه

كذلك لان الخلفاء الامويين قد انتهجوا سياسة اصطناع الشعراء واستخدام ألسنتهم في الثناء على بني أمية ونشر آرائهم ، والدفاع عن حقهم بالحكم ، والرد على أعدائهم . وما الى ذلك من مآرب كان الأمويون يسعون الى تنفيذها .

هذا بالاضافة الى كون الشعر قد اتخذ سلاحاً جماعياً في الأحزاب ، وتجنّد الشعراء للدفاع عن أحزابهم كما كان الجاهليون يدافعون عن قبائلهم .

والذي قد أصاب هذا الاتجاه من التبديل ، هو تحوله من نطاق القبيلة الى نطاق الحزب ، ومن نطاق العاطفة الى نطاق العقيدة ، كما هي الحال في شعر الخوارج والطلبين بنوع أخص . وفي عهد بني العباس لم يمت شعر المديح ، بل ظل ينمو باطراد الى جانب الفنون الأخرى ، ولكن الصبغة التي سيطرت عليه هي صبغة التكسب ، وأما الاتجاهان الآخران فقد ضعفا كثيراً وأوشكا أن يتلاشيا .

ولقد أصبح الشاعر العباسي بلبلاً في القصر ، يغرد بفضائل الممدوح ويتغنى بعظمته وجاهه وسعة سلطانه ، واتخذ المملوك نديماً لهم ، يطربون لقوله ، ويخلعون عليه ، ويخصونه بالمال .

والذي يلاحظ ، أن التطور الذي أصاب الشعر العربي في عصر بني العباس ، لم يتطرق الى الفنون بمثل ما تطرق الى داخل العملية الشعرية . وإنه ليندر أن تجد بين الشعراء العباسيين من ابتدع فناً جديداً ، ولكنك مع ذلك تحسّ بأن شعر أبي نواس ، وشعر بشار بن برد ، وابن الرومي ، ومسلم بن الوليد وأبي تمام ،

والمتنبى ، والمعري ، هو غير شعر الجاهليين وشعر الأمويين . حافظ المديح على كيانه ، وبقي يسير على تقاليده القديمة ، وخصائصه الاولى ، وعناصره الجوهرية ، وشخصيته التي فرضها على أصحاب الجديد . ولكنه لم ينج من تبدل في معانيه ، وتعقد في أخيلته ، وتجدد في أساليبه وتنميق في إخراجيه ، وزخرفة في صياغته . والذين نظموا في فن المديح هم كل الشعراء تقريباً ، فأكثرها منه إكثاراً لم يكن للعرب به عهد من قبل . والتفوا حول الملوك وحول الامراء والعظماء يستبدون أكفهم ، ويستغلون ميولهم ، ويستجدون منهم العطف والعطاء .

ولقد زاد في توجيههم نحو التكسب ذلك البذخ الذي عرفته البيئة العباسية ، والترف الذي شاع بين الناس ، وإقبال القوم على ملذات الدنيا ، وحب التنعم بالعيش والتزيّد من متعه . وساد العصر العباسي مادية مغرقة في تهالكها ، وعدم انتظام في توزيع الثروات ونشأ مقابل الفئة المترفة فئات أخرى يلفتها الشقاء ، فعظم الدرهم في أعين الشعراء ، وأراقوا ماء وجوههم في سبيله ، ووقفوا شعرهم عليه . والذي لا ريب فيه ، أن ذلك الشعر لم يكن من غير قيمة . وإذا كنا لا ننكر أن الشعراء قد ترسم بعضهم خطي بعض ، وصدحوا جميعاً بأصوات متشابهة وكثر في شعرهم التزوير والخداع والمناقضة والغلو الباطل ، فاننا لا نغفل أبداً كون المديح العباسي يحتوي على ثروة فنية جديدة بالدراسة والاكبار . هذه الثروة تتجلى في الغنى الفكري الذي بثوه أشعارهم ، والرؤى التي انكشفت لهم ، واللوحات المختلفة التي

عرضوها في مدائحهم . وإنك لتلمح في تضاعيف تلك المدائح وجوه الحياة العباسية بزورها ونضارها ورقى أحوالها وتعقد مسالكها واتساع أرجائها ، كما تلمح آثار العلوم والفنون والتقدم المحمود في مختلف الجوانب . وفي هذا الشعر أيضاً صورة لتطور الشخصية العربية مع الأيام وتبدل معادلتها ، واكتمال مثلها - وفي ما يلي نماذج من مديح العصر العباسي لشعراء مختلفين زمنياً وبيئة وظروفاً وجنساً وثقافة وتفكيراً .

من مدائح العصر العباسي الاول :

مديح أبي نواس

حمل أبو نواس على دعاة القديم في الأساليب الشعرية ، ولكنه لم يحمل على فن المديح ، ولم يخالف الشعراء في منحاهم المتكسب ، واتخاذهم الشعر تجارة يتعيشون بها . فلقد وجد نفسه مضطراً الى الاقتداء بالسابقين من حيث الاتجاه نحو المدح وحسب ، بل من حيث اللجوء الى مختلف الوسائل القديمة في مديحه ، والى مجارة الأقدمين في الشكل والمحتوى .

والذي قد حمل أبا نواس على ذلك ، هو كون الفئة التي مدحها هي ممن يعود اليهم البت بشأن الشعر وقيمه . والحق أن مديح الرجل كان على نوعين ، تبعاً لكون المدوحين في الواقع فئتين - فئة الأريستوقراطية المترصنة التي لم تكن تربطها بالشاعر أية صلة من مجون أو تهتك أو صداقة متينة . وفئة الشباب من الأمراء

الذين توطدت بينهم وبين أبي نواس أواصر الالفه فوق مائده
للخمر ، او في مجلس من مجالس السمر .

أما النوع الأول من هذا الشعر ففيه وقوف على الأطلال
ووصف للناقة ، وانتقال الى الغرض المقصود شبيه بانتقال الجاهليين
والأمويين ، وفيه الى ذلك تحيّر لعسير اللفظ واستخدام لغريب
الكلام وصيغه الشاذة ، وعناية بالاجراج ، وكذا وإعناات للروية ،
وقصد الى المعميات والالغاز ، حتى يبدّ بذلك دعاة القديم ومتبّعيه ،
وحتى يرضي أذاوق الخلفاء والامراء وعلية القوم وجلّهم من العرب
الأقحاح التواقين الى أساليب القدامى والمغرمين بكل ما هو
عربي أصيل . وواقع الحال ، أن هذا المديح ذاته ، ليس قديماً
بكل ما فيه ، بل هو قديم قد نسج بنحیوط جديدة ، خيوط من
البيئة العباسية بترفها ، ومن الفكر العباسي باتساع مراميه ،
والعلوم العباسية بتشعبها وأعماقها ، ومن أبي نواس ، الشاعر
العبقري ، الذي تأبى عبقريته مهما يحاول إخضاعها للتقليد إلا
أن تلتمع في الحين بعد الحين ، لتحمل القراء على الالتفات اليها
والنظر في مزاياها .

وأما النوع الثاني ، فيمتاز بشيء من الحرية التي تركها الشاعر
لنفسه وبخروج على الأساليب القديمة إن في اختيار المطالع أو في
اختيار المعاني أو الألفاظ . ولكن المديح لدى أبي نواس ، هو
على الغالب في حالیه مديح مصنوع ، سعي فيه صاحبه الى أن
يثبت وجوده بين الشعراء كواحد من كبارهم ، فوعاه جزءاً
جزءاً ، وتنخله في اللفظ والقافية وصب عليه كل ما عنده من جد

ليتناسب هذا الشعر ومراكز الأشخاص الذين رفع اليهم .

مدح الرشيد :

حَيِّ الدِيَارَ ، إِذِ الزَّمَانُ زَمَانُ
وَإِذِ الشُّبَّاكُ لَنَا حَرِي وَمَعَانُ^١
يَا حَبِذَا سَفْوَانُ مِنْ مُتَرَبِّعٍ
وَلَرُبَّمَا جَمَعَ الْهُوَى سَفْوَانُ^٢
وَإِذَا مَرَرْتُ عَلَى الدِّيَارِ مُسَلِّمًا
فَلغَيْرِ دَارِ أُمِيمَةِ الْهَجْرَانِ .
إِنَّا نَسَبْنَا وَالْمُنَاسِبُ ظَنَّةُ^٣
حَتَّى رُمِيتِ بِنَا وَأَنْتِ حَصَانُ^٤
لَمَّا نَزَعْتَ عَنِ الْغِيَايَةِ وَالصَّبَا
وَخَدَّتْ بِي الشَّدْنِيَّةُ الْمَذْعَانُ^٥
سَبَطُ^٥ مَشَافِرَهَا دَقِيقُ خَطْمِهَا
وَكَأَنَّ سَائِرَ خَلْقِهَا بُنْيَانُ^٥

١ - الشُّبَّاكُ : اسم ماء على طريق الكوفة . حري : جبل - معان : منزل
يحل فيه القوم .

٢ - سَفْوَانُ : اسم محل .

٣ - الظَّنَّةُ : التهمة . المرأة الحصان : العفيفة المحصنة من سوء .

٤ - وَخَدَّتْ الناقة : أسرع في سيرها . الشَّدْنِيَّةُ : المنسوبة الى شدن
وهو موضع باليمن .

٥ - السَّبَطُ : المسترسل الذي ليس فيه تجميع . المشفر شفة البعير . الخطم :
مقدم الاذن والفم .

واحتازها لونٌ جرى في جِلدها
يَقْقُ كقرطاس الوليدِ هِجَانُ^١

وإلى أبي الأمناء هرون الذي
يحيا بصوبِ سمائه الحيوانُ^٢
ملكٌ تصور في القلوبِ مثاله
فكأنما لم يخلُ منه مكانٌ .

ما تنطوي عنه القلوب بفجرةٍ
إلا يكلمه بها اللحظانُ^٣

فيظلُّ لاستنبائه وكأنه
عينٌ على ما غيب الكتمانُ

هرونُ أَلَفْنَا ائتلافَ مودَّةٍ
ماتت لها الأحقاد والأضغانُ

في كل عامٍ غزوةٌ ووفادةٌ
تنبتُ بين نواها الأقرانُ^٤

١ - اليقق : اللون الأبيض ، والهجان من الأبل ؛ ذوات اللون الأبيض .

٢ - أبو الامناء : هرون الرشيد وابناؤه الأمين والمأمون والمؤتمن .

٣ - الفجرة ؛ المخالفة . اللحظان ؛ مصدر من لحظ أي نظر بمؤخر

عينه .

٤ - تنبت ؛ تنقطع - النوى ؛ الوجه الذي يذهب فيه . الأقران ؛ جمع

قرن وهو الحبل يقرن به بعيران .

حجٌ وغزوٌ ماتَ بينهما الكرى
 باليَعْمَلَاتِ شِعَارُهَا الْوَخْدَانُ^١
 يرمي بهنَّ نِيَاطَ كُلِّ تَسْوِفَةٍ
 في الله رَحَالٌ بها ظَعَانٌ^٢ .
 حتى إذا واجهنَّ أَقْبَالَ الصِّفَا
 حَنَّ الحَظِيمُ وَأَطَّتْ الأَرْكَانُ^٣ .
 لأَعْرُ يُنْفِرُ الدُّجَى عن وجهه
 عدلُ السِّيَاسَةِ حُبُّهُ إِيْمَانٌ .
 يُصَلِّي الهَجِيرَ بَغْرَةً مَهْدِيَّةً
 لو شاءَ صَانَ أَدِيمَهَا الأَكْنَانَ^٤ .
 لكنه في الله مَبْتَدِلٌ لها
 إِنْ التَّقَى مَسَدُّهُ وَمُعَانٌ .
 أَلِفَتْ مَنَادِمَةُ الدَّمَاءِ سَيُوفَهُ
 فَلَقْلَقَمًا تَحْتَازُهَا الأَجْفَانُ
 حتى الذي في الرَّحِمِ لم يكْ صُورَةً
 لِفُؤَادِهِ مِنْ خَوْفِهِ خَفَقَانُ

١ - اليعملات؛ جمع يعملة وهي الناقة النجيبة - الوخدان السير السريع.

٢ - النياط من المفازة : بعد طريقها كأنها نيطت بمفازة أخرى .
والتسوية المفازة الخطرة .

٣ - أطّ؛ صوت .

٤ - الأكنان ؛ مفردا كن . وهو وقاء الشيء وستره .

حذرَ امرئٍ نصرت يدها على العدى
كالدهر فيه شراسةٌ وليانُ
متبرِّجُ المعروفِ عريضُ التدى ،
حصِرٌ بلا ، منه ، فمٌ ولسانُ
للجودِ من كلتا يديه 'محرِّكُ'
لا يستطيعُ بلوغه الإسكانُ .

أرأيت كيف يعمد أبو نواس ، وهو ابن البيئة العباسية ،
حامل لواء الثورة على القديم الى استخدام الطريقة الجاهلية في
المديح ، فيحيي الديار ، ويذكر أسماء المرباع في الصحراء
كالشباك وحري ومعان وسفوان ؟

والذي يستلفت الانتباه ، نفس جريري ، وضعه الشاعر
نصب عينه وسعى الى تقليده ، خصوصاً في بيته القائل :

يا حبذا سفوان من متربّع
ولربما جمع الهوى سفوان .

فهو شبيه ببیت جرير :

يا حبذا جبل الريان من جبل
وحبذا ساكن الريان من كانا .

ونمضي مع الشاعر ، فاذا هو ينسب كما كان القدماء ينسبون في
مطالع شعرهم ، ويختار اسم أميمة ، وهو اسم قديم وبدوي خالص ،
ويتكلف الحب من غير أن يهزّه حب ، ثم ينتقل من النسب الى
وصف الناقة وأنسى له أن يعرف الناقة ، فيستنجد بطرفة ،

ويستمد منه بعض معانيه ، فترى ناقة أبي نواس ناقة شذنية
مذعانا تخذ به وخدا سريعا . هني ناقة « سبط مشاferها » دقيق
خطمها » مشدودة الأوصال موثقة الخلق ، يققية اللون ، مالمسة
الجلد ، تحمل صاحبها الى بلاط أبي الامناء هرون الرشيد .

ولكن لا تظنن أن أبا نواس كان يقصد الى التقليد في مجموع
القصيدة . فهو لم يحاول أن يخفي آثار العلوم التي تلقاها ، والثقافة
التي ثقفها ، والعقل الذي تشبع بمنطقه . لذلك ، فقد حشد الى
جانب القديم ومضات من جديده ، تقع في قوله : « يحيا بصوب
سمائه الحيوان »

« ملك تصور في القلوب مثاله

فكأنما لم يخل منه مكان » .

فنعم الممدوح على الناس شبيهة بنعم السماء ، وهو عظيم الى
درجة الألوهة صورته في القلوب قد انطبعت وظله في كل مكان
ينجم . أما ترى كيف خلع أبو نواس على الرشيد من صفات الله ؟
أما ترى كيف يستمد معانيه من علم الكلام وفلسفة الدين ؟ وإنها
للمرة الاولى التي ينعت بها المادح خليفة بأنه ملك . وما ذاك
بغريب ، لان نظام الخلافة قد أصابه تبديل كثير منذ عهد بني
أمية ، فلم يعد الخلفاء دراويش على نحو ما كان عمر بن الخطاب ،
وأبو بكر الصديق وعلي ابن أبي طالب ؛ بل أصبحوا يعيشون
عيش الترف ويتزيون بأزياء الملوك من أهل فارس ، وبلاد الروم .
ولكن الأمويين كانوا يأنفون أن يدعوا ملوكا ، وكانوا يغضبون

إذا مدحوا بما يمدح به الملوك ، وما حكاية عبد الملك وابن الرقيات بمجهولة . أما خلفاء بني العباس ، فقد تبادوا في مظاهر الملك ، ولم يأنفوا أبداً من أن يدعوا ملوكاً . ويعود الشاعر الى ألفاظ البدو ، والى مألوف دعاة القديم ، فيرى للرشيد غزوة في كل عام ، ووفادة الى الحج ، « تنبت بين نواهما الأقران » ويروق له الغريب فيلح في استخدامه . ولكن في هذا الغريب معاني جديدة ، وصوراً جديدة ، ونفساً نواسياً واضحاً .

والممدوح في شعر أبي نواس ، ليس بدوي الطبع ، ولا هو بالظالم ولا المتكبر . بل إنه رجل أغرّ ينفرج الدجى عن وجهه ، « عدل السياسة حبه إيمان » أرايت تعظيماً أكثر من هذا ، حتى يشترط الايمان بمحبة هرون الرشيد ؟ لا نقول إن أبا نواس هو الذي ابتكر هذا التعظيم ، فلقد جرى اليه الكميت من قبل ، ولكن المعنى لم يمت ، بل ظل يتألق مع الشاعر العباسي في ثوب جديد .

وفي هذا المديح ، كما في سائر المدائح مبالغات وتهويلات تريك الرشيد شجاعاً ، تنادم سيوفه الدماء من غير أن تتغمدتها الأجفان ويهابه الولدان في أرحام أمهاتهم . وإنه ليندر أن يهتدي شاعر الى هذه المناداة ، كما يندر جداً أن يهتدي الى تشبيه الانسان بالدهر من حيث اتساع سلطته على الناس ، وتصرفه بمقدراتهم وتقدير مصائرهم . كما أنه جديد كل الجدة قول الحسن بن

هاني :
للجود من كتبا يديه محرك
لا يستطيع بلوغه الإسكان
هو يتضمن معنى - فلسفياً - ، كان الأقدمون يلتفتوا إليه
بفعل الحدود التي كانت تحد ثقافتهم ، وتقيدها ،
مدح العباس بن عبيد الله بن أبي جعفر المنصور :

لأبي نواس في هذا الرجل نوعان من المديح : أحدهما مترصن
مصنوع كمدح الرشيده وليكنبه - تختلف عنه في نوعيته الفنية ،
والثاني يعتمد فيه الشاعر على صداقته للممدوح ، ويعفي نفسه من
القيود التي كانت تقيد بها أريستوقراطية البلاط . وسوف نمثل
على ذلك بقصيدة من كل نوع .

الشعر المصنوع
أيها المنتاب من عُفْره

ليست من ليلى ولا سمرة
لا أذود الطير عن شجرتك
قد يلوئ المرء من ثمره
فاتصل إن كنت متصلاً
يقوى من أنت مبن وطره
خفت مأثور الحديث غداً
وغداً أدنى المنتظره

خَبَابٍ مِنْ أُسْرِى إِلَى بَلَدٍ
غَيْرِ مَعْلُومٍ مَدَى سَفَرِهِ
وَسَدَّقَهُ ثَنَى سَاعِدِهِ
سِنَّةٌ خَلَّتْ إِلَى شُفْرِهِ
فَامْضِ لَا تَنْنِ عَلَيَّ يَسْأَلُ
مَنْكَ الْمَعْرُوفَ مِنْ كَدَرِهِ
رَبُّ فَتَيَانٍ رِبَاثَتُهُمْ
مَسْقُطُ الْعَيُّوقِ مِنْ سَحَرِهِ
فَاتَّقُوا بِي مَا يَرْتَبُهُمْ
إِنْ تَقْوَى الشَّرَّ مِنْ حَذَرِهِ
وَإِنْ عَمَّ لَا يَكْشِفُنَا
قَدْ لَبَسْنَا عَلَى غَمَرِهِ
كَمَنْ الشَّنَآنُ فِيهِ لَنَا
كَكُمُوتِ النَّارِ فِي حَجَرِهِ
وَرُضَابٌ بَتَّ أَرْشَفَهُ
يَنْقَعُ الظَّمَاثُ مِنْ خَصَرِهِ
عَلَّيْنِهِ خُوطُ اسْحَابِهِ
لَا مَتْنَاهُ لِمَهْتَصِرِهِ
ذَا وَمَغِيرٌ مَخَارِمُهُ
تَحْسِيرُ الْأَبْصَارِ عَنْ قُطْرِهِ

لا ترى عينُ البصيرِ بهِ
ما خلا الآجالَ من بقَرِه

خاض بي لُجِّيَّهٍ ذو جَزَرٍ
يُفَعِّمُ الفضلينَ من ضُفَرِه

يَكْتَسِي عَثْوُنَه زَبَدًا
فَنَصِيْلَاهُ إِلَى نَخْرِه

ثم يَغْتَمُّ الحِجَاغُ بِهِ
كَاعْتِمَامِ الْفُؤُفِ فِي عَشْرِه

ثم تَذَرُوهُ الرِّيحُ كَمَا
طَارَ قُطْنُ النَّدْفِ عَنْ وَتْرِه .

كلُّ حَاجَاتِي تَنَاوَلَهَا
وَهُوَ لَمْ تُنْقَضْ قُوَى أَشْرِه

ثم أَدْنَانِي إِلَى مَلِكٍ
يَأْمَنُ الْجَانِي لَدَى حَجَرِه

تَأْخُذُ الْأَيْدِي مَظَالِمَهَا
ثُمَّ تَسْتَذْهِي إِلَى عَصْرِه

كَيْفَ لَا يُدْنِيكَ مِنْ أَمَلٍ
مَنْ رَسُولُ اللَّهِ مِنْ نَفَرِه

فَاسْلُ عَنْ نَوَى تَوْمَلِه
حَسْبُكَ الْعَبَّاسُ مِنْ مَطَرِه

ملكٌ قلَّ الشبيهُ له
 لم تقعْ عينٌ على خطرهِ
 ذُللتْ تلكَ الفجاجةُ له
 فهو مختارٌ على بصرهِ
 سبقَ التفريطَ رائدُهُ
 وكفاه العينَ من أثرهِ
 وإذا حجَّ القنا علقاً
 وتراءى الموتُ في صورهِ
 راح في ثني مفاضتِهِ
 اسدٌ يُدمي شبا ظفرهِ
 تتأبى الطيرُ غدوته
 ثقةً بالشَّبعِ من جزرهِ
 وترى الساداتِ مائلةً
 لسيلِ الشمسِ من قمرهِ
 فهمُ شتى ظنونهمُ
 تحذرُ المكنونِ من فكرهِ
 وكريمُ الخالِ من يمنٍ
 وكريمُ العمِّ من مضرهِ
 قد لبستَ الدهرَ لبسَ فتى
 أخذَ الآدابَ عن غيره .

مما يؤثر عن أبي نواس أنه قال: « إني إذا أردت الهزل نظمت
في الحمرة ، فإذا أردت الجّد قلت مثل قولي : « أيها المنتاب من
عفّره »

والذي لا ريب فيه ، أن هذه القصيدة هي من خير ما قاله
أبو نواس ، بل هي من روائع الشعر في ذلك العصر ، قصد فيها
النواصي ما قصده في سابقتها التي مدح بها الرشيد . ولكن فيها
من الألوان الجديدة ما يهتق تلك الألوان التي ضمنها مديحه لأمر
المؤمنين .

فأنظر أولاً إلى المطلع ، تجده مشتملاً على خواطر النفس ،
وعلى مناجاة داخلية يحاول فيها الشاعر أن يعبر عن كوامنه ،
وأن يصور لنا حالة وجدانية محض . فأين الطلل ، وأين الحبيبة
الظاعنة ، بل أين النوى والإحجار ؟ ليس في القصيدة شيء
من ذلك .

ولكن لا تظن أن الشاعر قد خرج هنا كل الخرويج عن
معطيات البداوة بل لا تظننه قد خرج على أساليب القدماء .
فألفاظه هنا ليست ألفاظ الشعب في بغداد . وتراكيبه ليست
تراكيب أهل العصر . وأكبر الظن ، أن الشاعر قد جعل في وكده
قبل كل شيء تحدّي اللغويين وأصحاب البلاغة العربية الأصيلة
من غير أن يكون مقلداً .

فهو هنا مبدع ، قد وثب إلى القمة في شعر العرب آنذاك ،
حتى أن القاريء لا يجد كبير فرق بين هذه القصيدة ، وبين روائع

الشعر العباسي ، التي نظمها أبو تمام وأبو الطيب المتنبي ، وغيرها
من عمالة الشعر .

ومن هنا كان أبو نواس سباقاً ، استطاع أن يتجاوز عصره
بعض التجاوز وأن يكون من البارزين الذين خطوا للمذهب
الثقافي في شعر العرب خطوطه الأولى ، كما أنه كان سباقاً لأهل
التصنيع في الشعر ورائداً قبل أبي تمام لهذه الطريقة التي بلورها
الحبيب مذهباً . فانظر إلى أثر الثقافة في قصيدة أبي نواس ، تجده
واضحاً كل الوضوح في قوله :

خاب من أسرى إلى بلد غير معلوم مدى سفره
قامض لا تمن علي يداي منك المعروف من كدزه
رب فتيات رباتهم مسقط الغنوق من سحره
فاتقوا بي ما يريهم أن تقوى الشر من خذره

ألست تلمح في هذه الأبيات ما يشبه حكمة المتنبي ؟ أو
لست تلمح فيها أيضاً ، وفي القصيدة إجمالا صناعة كصناعة
أبي تمام ؟

وما بالك بالغريب يحشده ، وبالتراكيب يرصها رصاً ،
وبالجزالة يوفرها لكل لفظة ؟ حتى أن النجاة وأهل اللغة ، قد
أعياهم فهم جزء غير قليل مما جاء في هذه القصيدة ، وأعجبوا بها
كل الإعجاب ، حتى قال بعضهم في أبي نواس : «لولا مجونه وفسقه
لاحتججنا بشعره» .

أما معاني المديح فلن نخرج عن كونها تدور حول الفضائل

وإذا كانت الظروف السياسية قد تبدلت ، وتبدلت معها الظروف الاجتماعية والاقتصادية بعض التبدل ، فإن المثل العليا لم يلحقها كبير تغيير زمن أبي نواس . لأن هذا التغيير في معادلة الشخصية المثالية لا يمكن أن يحدث إلا على أثر ثورات عنيفة جذرية تتناول جواهر الأشياء وأصولها الراسخة فتطوِّح بها لتُحلَّ محلها جواهر جديدة وأصولاً جديدة .

والشخصية العربية لم تتبدل فعلاً إلا بظهور الاسلام . وأما في العصر الأموي وفي العصر العباسي ، فقد تغيرت فيها مظاهر خارجية وحسب ، وبقي الجوهر هو هو . لهذا ، لن يكون أبو نواس قادراً على إيجاد فضائل جديدة ، ولكن هذه الفضائل نفسها ، يختلف الشعراء في مدى فهمها ، وفي طريقة تصويرها ، والافتنان في نسبتها الى الممدوح .

والذي لا ريب فيه ، أن أبا نواس لم يقصر في هذا المجال . فلقد جعل من حفيد المنصور ملاذ المستأمنين ، وموئل العدل ، ومستقر القداسة .

كيف لا يدنيك من أمل

من رسول الله من نفسه ؟

والممدوح لدى النواسي ، كريم كالغيث يحيي الناس صوبه ، ووحيد في عظمته وجوده وسعة سلطانه ؛ ذلت له فجاج الارض ، وكشف حده عن عالم الغيوب ؛ وهو في شجاعته وشدة فتكه « أسد يدمي شباظفره » إذا خاض معركة ملأ

ميدانها من جثث أعدائه ، حتى أن الطيور لتتأبى غدوته
وتنتظرها ثقة منها بالشبع .

هذه معان قديمة من غير شك . شائعة بين الشعراء منذ
الجاهلية . ولكن لباسها نواسي خالص .

على أن من المعاني الواردة في القصيدة ما هو جديد كل الجدة ،
مبتكر كل الابتكار ، وخاصة ما جاء في الأبيات الأربعة
الآخيرة حيث يبدو لك الممدوح ، سليلاً للشمس ، والسادات
أمامه مائلون ، وهم في حيرة من أقواله وأعماله ، يذهبون في
تأويلها مذاهب شتى ، وتتضارب عندهم الظنون ، لعجزهم عن
فهم المكنون من أفكاره . وما نطن أن ممدوحاً قبل حفيد المنصور
قد لبس الدهر لبس فتى أخذ الآداب عن غيره « وتقلبات أحواله .

٢ - مديح مطبوع :

ديارُ نوار ، ما ديار نوار ؟

كسوتك شجواً هن منه عوارِ

يقولون : في الشيب الوقار لأهله ؛

وشيبي ، بحمد الله ، غير وقار

إذا كنت لا أنفلك عن طاعة الهوى

فان الهوى يرمي الفتى ببوار

فها إن قلبي لا محالة مائلٌ

الى رشاً يسعى بكأس عقار^١

١ - الرشاً : ولد الغزال . والعقار : الحرة .

شمول ، اذا شجيت ، تقول عقيقة^١

تنافس فيها السوم بين تجار^٢

كان بقايا ما عفا من حباها

تفاريق شيب في سواد عذار

ترددت به ، ثم انقري عن اديها

تفري ليل عن بياض نهار^٣

تعاطيكها كف كان بنانها

إذا اعترضتها العين صف مداري^٤

حلفت يميناً برة لا يشوبها

فجار ، وما دهري يمين فجار

لقيد قوم العباش للناس حجبهم

وساس برهبانية ووقار

وعرفهم اعلامهم وأراهم

منار الهوى موصولة بمتار

وأطعم حتى ما بمكة آكل

وأعطى عطايا لم تكن بضار^٥

١ - شج التراب بالماء : مزجه - الحوم : محاولة لتحديد الثمن في البيع والشراء

٢ - ترددت به : لبسته - انقري : انشق وانكشف

٣ - المداري : جمع مدرى : وهو المشط

٤ - الضار من المال : الذي لا يرجى رجوعه

وَحَمَلَاتُ أَبْنَاءِ السَّبِيلِ تَرَاهُمْ

قَطَارًا إِذَا رَاحُوا أَمَامَ قَطَارِ

أَبْتَ لَكَ يَا عَبَّاسُ نَفْسَ سَخِيَّةٍ

بِزَبْرِجٍ دُنْيَانَا ، وَعَتَقَ نَجَارٍ^١

وَإِنَّكَ لِلْمَنْصُورِ ، مَنْصُورٌ هَاشِمٍ

وَمَا بَعْدَهُ مِنْ غَايَةِ لَفْخَارِ

فَجَدَّكَ هَذَا خَيْرَ قَحْطَانٍ وَاحِدًا

وَهَذَا إِذَا مَا عَدَّ خَيْرَ نَزَارِ

إِلَيْكَ غَدَّتْ بِي حَاجَةٌ لَمْ أَبْجِ بِهَا

أَخَافُ عَلَيْكَ شَامِتًا فَأَدَارِي

فَارْخَ عَلَيْهَا سِتْرَ مَعْرُوفِكَ الَّذِي

سَتَرْتُ بِهَا قَدَمًا عَلَيَّ عَوَارِي^٢

لَقَدْ نَسَبْنَا هَذِهِ الْقَصِيدَةَ إِلَى الشَّعْرِ الْمَطْبُوعِ ، وَمَا كُنَّا نَرْمِي

بِذَلِكَ إِلَى أَنَّهَا عَفْوِيَّةُ التَّأْلِيفِ ، فَمَا كَانَ الْفَنُّ الْجَمِيلُ فِي يَوْمٍ مِنْ

الْأَيَّامِ وَلَيْدِ عَفْوِيَّةٍ . وَلَكِنَّهَا مَطْبُوعَةٌ مِنْ حَيْثُ ابْتِعَادُ صَاحِبِهَا

عَنِ طَلِيبِ الْغَرِيبِ ، وَمِنْ حَيْثُ تَحَلُّهُ مِنْ قِيُودِ التَّقْلِيدِ ، وَخُرُوجِهِ

بَعْضَ الشَّيْءِ عَلَى طَرِيقَةِ الْقِدَمَاءِ .

٢ - الزَّبْرِجُ : الذَّهَبُ أَوْ كُلُّ شَيْءٍ ذُو قِيَمَةٍ . عَتَقَ النَّجَارُ : خَلَّصَ الْأَصْلَ

وَكْرَمَهُ .

٣ - الْعَوَارِ : الْخَرَقُ أَوْ الشَّقُّ فِي الثَّوْبِ ، وَيُسْتَعْمَلُ بِمَعْنَى الْعَيْبِ .

والذي يعن النظر في هذه القصيدة ، يتبين أن الشاعر لم يقصد من ذكره للديار في مطلعها الحفاظ على ما يرضي أهل القديم ، كما رأينا في مدحه للرشيد ، ولكنه يزري بالديار هنا وبنعتها بعض الازراء ؛ ويظهر دالته على الممدوح ، كأنه في هذه المدحة غير هيّاب لفئة المحافظين ؛ بل كأنه يعبر عن ثورته على وصف الطلول حين يتساءل ، والسخرية تملأ فاه وترتسم على وجهه ، ما ديار نوار ؟ ويرتجب مدى سخريته في عجز البيت حين يقول : « كسونك شجواً هن منه عوار » وكأنما يريد أن يحملك على تسأل نفسك : أليس من السخف والتفاهة أن تشجي الديار الخالية شاعراً ، فيكسو نفسه الهم ، والديار غير حافلة بهم .

ويتمادى أبو نواس في دالته ، وفي تحرره من قيود الأريستوقراطية وآدابها ويهزأ بالناس القائلين : إن الشيب وقار لأهله ، ولا ينجل من أن يقول : أن شيبه لن يكون وقاراً له ، حامداً الله على ذلك . ولا غرابة فابو نواس رجل ماجن قد خلع العذار ، والمثل يقول : « إذا لم تكن تستحي فاصنع ما شئت » . ثم يمضي في حديث عن الحب وعن تشراب الخمر ، وكأنه يود أن يكرّس تكريساً جعل الخمرات في مطالع شعر المديح . على أن في هذا المقطع الخمري إبداعاً نواسياً تجاوز فيه كل ما قد قاله شعراء الخمرة ، ونفذ الى معان وصور لا تخطر إلا في بال المبدعين من أهل الفن . فتأمل قوله :

كأن بقايا ما عفا من حبايبها
تفاريق شيب في سواد عذار
تردّت به ثم انفري عن أديمها
تفري ليل عن بياض نهار

وتصور هذا الحباب الابيض المتلاشي ، يقع في جنبات
الكأس وكأنما قد تعفّى أكثره لطول ما مرّ عليه من سني
الدهر . وتتجسم الحمرة انساناً أمام ناظريه ، وفي سواد العذار
من هذا الانسان ظهرت تفاريق شيب تدل على الهرم . ولكن
الصورة لا تكتمل لدى أبي نواس بهذا البيت ، ولا يتم له ما
أراد حتى يردفه بيت آخر وقد شق طريقاً الى المطلق الذي لا
لا ينتهي عند حد . وما أجمل هذا التفري لحباب الحمر حتى
لكأنه انبلاج الصباح وتفري الليل عنه ! وما الليل في هذا
النقام سوى حياة أبي نواس الواعية يكتنفها الشقاء من كل
صوب ، ويلونها الهم بألوانه السوداء ، وما بياض النهار غير
هذه الرؤى السحرية الجميلة ، وهذا العالم البهي الذي تنقله اليه
جرعات الحمر .

في هذا المقطع فقط ، كأن أبو نواس مجدداً ، وكان تجديده
يستحق العناية والدرس . أما في سائر أبيات القصيدة ، فإنه لم
يخرج على مألوف شعراء المديح ، ولم يودعها ما يستلقت الانتباه .
فهو شعر فصيح بليغ ، حسن الجرس ، حلوا الايقاع يرتاح اليه
المدح لما فيه من تعظيم له وتغن بأعماله وفضائله .

والممدوح في هذا الشعر قيم على الدين ، يسوس الناس بوقار ،
ويهديهم الى طرق الحق . وهو كريم ، يطعم الناس حتى لا يبقى
في بلاده جائع ، وأبناء السبيل يتقاطرون اليه ، وهو كريم النجار ،
يعلق الشاعر على زيارته له منتهى آماله ، ولطالما كفاه مؤونة
العوز .

هكذا كان أبو نواس يمدح ، وما كان مدحه في الحقيقة سوى
ائتلاف بين أساليب القدامى ، وبين منازع المجددين . فهو قديم
بتعبيره ويحز في غير قليل من معانيه . وهو جديد بألوان من
الافتنان التي خلعها أبو نواس عليه في التصوير والزخرف والتصرف
بالألفاظ . وتجديد بالتقانات معنوية هي من مبتكرات أبي نواس ،
ومن طليعة العيش في العصر العباسي الأول .

المديح في العصر العباسي الثاني :

لم يكن فن المديح ليتبدل تبديلاً يذكر في هذا العصر ،
فالشخصية المثالية بقيت هي هي . والبيئة أيضاً لم تتغير رغم
ما توالى عليها من أحداث الزمان . والذي قد لحقه التبدل هو
مناسبات المديح ، والأشخاص الذين توجه إليهم الشعراء بمدائحهم
وما كان ذلك ليغير في جوهر الفن كثيراً .

ولكن الذي يسجل في هذه الفترة ، أن مدارس الشعر قد
بدأت تتميز بعضها من بعض ، وهي مدارس أسلوبية أكثر منها
مدارس فنون .

إن الحركة التي قام بها أبو نواس وأصحابه من دعاة التجديد،
قد أدت إلى صراع عنيف أسفر عن انشطار الشعراء إلى شطرين،
واحد يتبع الأصالة العربية في كل ما فيها، ويحافظ على ما
يسمى بعمود الشعر العربي، وآخر يستسيغ الخروج على هذه
الأصالة، ويعمد إلى تلقيح الشعر بلقاح الفكر الجديد، والغنى
الجديد والحياة الجديدة المعقدة.

أما عمود الشعر العربي فيتلخص في ما حنّده المرزوقي به،
حين شرح كتاب الحماسة لأبي تمام، فقال: «لعمود الشعر سبع
قواعد أساسية:

١ - شرف المعنى وصحته.

٢ - جزالة اللفظ واستقامته.

٣ - الإصابة في الوصف.

٤ - المقاربة في التشبيه.

٥ - التحام أجزاء النظم، واكتنافها على تخير من لذيذ
الوزن.

٦ - مناسبة المستعار منه للمستعار له.

٧ - مشاكلة اللفظ للمعنى، وشدة إقتضائهما للقافية.

والشعر المنظوم بحسب هذه القواعد، هو شعر غنائي محض،
عماده الموسيقى اللفظية، وصفاء العبارة، والدقة في الإخراج
الشكلي وعدم التعمق في اختيار المعاني، وللعفوية والطبع فيه
نصيب وفير.

أما المذهب الآخر ، فعباد الصنعة والفكر الغزير ،
والاغراب في اللفظ والتأنق في الصناعة وكثرة الاستخدام
لمولدات الثقافة . والذي سنختاره لتمثيل هذا المذهب هو أبو
تمام . أما المذهب الأصيل ، فخير من يمثله أبو عباد البحتري .

من شعر أبي تمام :

ليس المديح في شعر أبي تمام فناً عارضاً ، ولا هو جزء على
هامش الديوان ، فأكثر قصائد هذا الرجل قيلت في فن المديح ،
حتى أنها تستغرق ثلثي ديوانه تقريباً جلّتها من جيد الشعر
وأنيقه . وأبو تمام مداح من الطراز الأول تكسب بشعره
كسائر المتكسبين ، ولكنه كان يعنى به ، ويتعهده بالصقل
والتهذيب ، حتى غدا قمة بين الشعراء ، وأستاذاً لكل من
عاصره ومن جاء بعده .

لم يدع أبو تمام حادثة مهمة من حوادث العالم الاسلامي في
زمنه الا دونها في شعره . فمن معركة فاصلة ينتصر فيها العرب
على الروم ، الى فتح جليل يحققه خليفة أو قائد ، الى احتفال
بعيد ، الى عمل عظيم يتوخى فيه الخليفة تحسيناً لحال الناس
وخدمة لمصالحهم ، الى كارثة تحل بالقوم الى أزمة تنفجر ، الى
غير ذلك مما كان يثير قريحة الحبيب ويحرك فؤاده ويهز مشاعره
أما أبرز ممدوحيه ، فالخليفة المأمون ، والخليفة المعتصم
بوجه أخص والخليفة الواثق ، وخالد بن يزيد الشيباني ،
والحسن بن سهل الوزير ، وأبو سعيد محمد بن يوسف الثغري ،

ومالك بن طوق ، وأحمد بن أبي دؤاد . وسوف نتحدث عن
مديحه من خلال قصيدتين ؛ أولاهما في المأمون والثانية في
المعتصم .

مدح المأمون :

نظم أبو تمام هذه القصيدة على أثر حرب قامت بين العرب
والروم ، فقاد المأمون بن هرون الرشيد جيشه العربي ، وسجل
على الروم نصراً مبيناً ، حتى استسلموا له ، وآثروا الأسر على
الموت فرفع عنهم السيف وساروا خاضعين .

دِمْنُ أَلَمٍ بِهَا ، فَقَالَ : سَلَامٌ !
كَمْ حَلَّ عَقْدَةَ صَبْرِهِ الْإِلْمَامُ^١
نَحِرَتْ رُكَّابُ الْقَوْمِ حَتَّى يَعْبرُوا
رَجُلًا ، لَقَدْ عَنُفُوا عَلِيَّ^٢ وَلَامُوا .
عَشَقُوا ، فَلَا رُزْقُوا ، أَيْعِذُ عَاشِقُ^٣
رُزِقَتْ هَوَاهُ مَعَالِمُ وَخِيَامُ^٤
وَقَفُوا عَلَيَّ اللُّومِ ، حَتَّى خَيَّلُوا
أَنَّ الْوُقُوفَ عَلَى الدِّيارِ حَرَامُ^٥
لَا مَرَّةً يَوْمٌ وَاحِدٌ إِلَّا وَفِي
أَحْشَاءِهِ لَحَلَّتْكَ غَمَامُ^٦

١ - الدمن : ما بقي من آثار القوم . ألم بها : نزل فيها .

٢ - العذل : هو اللوم .

حتى تعمّم صلح هامات الربّي
 من نوره وتساوّر الإهضام^١
 ولقد أراك ، فهل أراك بغبطة
 والعيش غصّ والزمان غلام
 أعوام وصلّ كان ينسي طولها
 ذكرّ النّوى فكأنها أيام^٢
 ثم انبرت أيام هجر أردفت
 نحوي أسيّ فكأنها أعوام^٣
 ثم انقضت تلك السنون وأهلها
 فكأنها ، وكأنهم أحلام
 اتحدّرت عبرات عينك أن دعت
 ورقاء حين تضعضع الإظلام^٤
 لا تشجين لها فان بكاءها
 ضحك وإن بكاءك استغرام^٥
 هنّ الحمّام ، فان كسرت عيافة
 من حائهنّ فانهنّ حمّام

١ - النور : الزهر . الإهضام : المتخفضات .

٢ - النوى : الفراق .

٣ - الأسيّ : الحزن .

٤ - الورقاء : الحمامة البرية . الإظلام العتمة .

٥ - لا تشجين : لا تحزن . الاستغرام : المطالبة بالغرم .

الله أكبر ؛ جاء أكبر من جرت
 فتعثرت في كُنْه الأوهام
 من لا يحيط الوصفون بوصفه
 حتى يقولوا وصفه إلهام
 من شرّد الإعدام عن أوطانه
 بالبذل حتى استطرف الإعدام^١
 وتكفل الأيتام عن آبائهم
 حتى وددنا أننا أيتام
 يتجنب الآثام ثم يخافها
 فكأنما حسناته آثام
 يا أيها الملك الهمام وعدله
 ملك عليه في القضاء همام
 ما زال حكم الله يشرق وجهه
 في الأرض مذنبت به الأحكام^٢
 أسرت لك الآفاق عزمة همة
 جبلت على ان المسير مقام^٣
 إن لا تكن أرواحها لك سُخَّرت
 فالخزم طوع يدك والإجذام^٤

١ - البذل : العطاء . استطرف : أصبح شيئاً طريفاً نادراً .

٢ - فاط به الشيء : اسنده اليه أو كلفه به .

٣ - أسرت : جعلته يسير في الليل .

٤ - الاجذام : الخزم .

الشرقُ غربٌ حين تلحظُ قصدهُ
 ومخالفُ اليمنِ القصيَّ شامٌ^١
 بالشَّدَقَمِيَّاتِ العِتَاقِ كأنما
 أشباحها بين الإكامِ إكامٌ^٢
 والأعوجياتِ الجيادِ كأنها
 تهوي، وقد دنت الرياحُ، سهامٌ^٣
 لما رأيت الدينَ يخفق قلبه
 والكفرَ فيه تغطرسُ وعُرامٌ^٤
 أو ريتَ زندَ عزائمٍ تحت الدُّجى
 أسرجنَ فكرٍ، والبلادَ ظلام
 فنهضتَ تسحب ذيلَ جيشٍ ساقه
 حسنُ اليقينِ وقاده الإقدامُ
 مُتَعَنِّجٌ، لَجِبٌ، يُرَى سُلَّافُهُ
 وله بمنخرقِ الفضاءِ زحامٌ^٥
 ملأ الملا عصباً، فكاد بأن يُرَى
 لا خلفَ فيه، ولا له قُدَّام

١ - الشَّدَقَمِيَّاتِ : النوق الكريمة .

٢ - الأعوجيات : الخيول الكريمة .

٣ - العرام : الشدة .

٤ - المتعنجر : الماء الكثير في وسط البحر .

بسواهم^١ الحُسقِ الأياطلِ شذَّب^١
 تعليقها الأسراج والألجام^١ .
 ومقابلين إذا انتموا لم تُخزهم^٢
 في نصرِك الأخوال والأعمام^٢
 سَفَعَ الدؤوب^٢ وجوهم^٢ فكأنهم^٢
 وأبؤهم^٢ سام^٢ ، أبؤهم^٢ حَام^٢
 تَحِذُوا الحديدَ من الحديدِ معاقلاً
 سُكَّانِهَا الأرواحُ والآجامُ^٣
 مُسترسِلين إلى الحتوفِ كأنما
 بين الحتوفِ وبينهم أرحامُ^٣
 آسادُ موتٍ مُحذراتُ^٣ ، ما لها
 إلا الصوارمُ والقنا آجامُ^٣
 حتى نقضت الرومَ منك بوقعة^٣
 شنعاءَ ليس لنقضِها إبرامُ^٣
 في معركٍ ، أما الحمامُ فَمُفْطِرُ^٣ ،
 في هَبْوتيه والكُماةُ صِيامُ^٣
 ففصمت عروة جمعهم فيها وقد
 جعلت تفصمُ من عُراها الهامُ^٣

١ - السواهم : الضوامر ؛ الأياطل : الخواصر . الشزَّب : المضمرة

٢ - سَفَعَ : غير لون الوجه ، الدؤوب : العمل المستمر المتعب .

٣ - الآجام : الغابات .

أَلْقُوا دِلَاءً فِي بَحُورِكَ أَسَلَمْتَ
نَزَعَاتِهَا الْأَكْرَابُ^١ وَالْأَوْذَامُ^١
مَا كَانَ لِلْإِشْرَاكِ فَوْرَةً مَّشْهَدٍ
وَاللَّهُ فِيهِ ، وَأَنْتَ ، وَالْإِسْلَامُ
لَمَّا رَأَيْتَهُمْ تُتْسَاقُ^٢ مَلُوكُهُمْ
حِزْقًا^٢ إِلَيْكَ كَأَنَّهُمْ أَنْعَامُ^٢
جَرَّحَى إِلَى جَرَّحَى كَأَنَّ جُلُودَهُمْ
يُطْلَسَى بِهَا الشَّيَّانُ وَالْعُلَامُ^٣
مُتْسَاقِطِي وَرَقِ الثِّيَابِ كَأَنَّهُمْ
دَانُوا فَأَحْدِثَ فِيهِمْ الْإِحْرَامُ^٣
أَكْرَمْتَ سَيْفَكَ ، غَرْبَهُ^٤ وَذُبَابَهُ^٤
عَنْهُمْ^٤ ، وَحَقُّ لِسَيْفِكَ الْإِكْرَامُ^٤
فَرَدَدْتَ حَدَّ الْمَوْتِ وَهُوَ مَرَكَّبٌ
فِي حَدِّهِ فَارْتَدَّ وَهُوَ زُؤَامُ^٤
أَيَقُظْتَ هَا جَعَهُمْ وَهَلْ يُغْنِيهِمْ^٤
سَهْرُ النِّوَاطِرِ وَالْعَقُولُ نِيَامُ^٤

١ - الأكراب : حبال تشد في وسط عراقي الدلو . الأوذام : سيور بين آذان الدلو وعراقيه .

٢ - الحزق : الجماعات .

٣ - الشيان : صباغ احمر - العلام : الحناء .

٤ - غرب السيف : حده ، وذبابه هو ما تطرف من شفرته .

جَحدتكَ منهم ألسنٌ جَلالَةٌ
 أقررنَ أنكَ في القلوبِ إمامُ
 فاسلم أمير المؤمنين لأمةٍ
 نتجتَ رجاءك والرجاءُ عقامُ
 قضى النبي ذِمّامها مُذ حطّسها
 عنه ، فليس لها عليه ذِمّامُ
 إنَّ المكارمَ للخليفة لم تزلْ
 واللهُ يعلمُ ذاكَ والأقوامُ
 كُتبت له ولأولّيه قبله
 في اللّوحِ حق جفّت الأعلامُ
 فبنو أبيك على نفاسةٍ قدرهمُ
 فيهم وإنّهم همُ الأعلامُ
 متواطئو عقيبك في طلب العلا
 والمجدُ ثَمّتَ تستوي الأقدامُ .

انظر الى هذا المديح ، كيف يستهل بذكر الدمن أوديار
 الأحبة ، يلم بها الشاعر ليحلّ من عقدة صبره ، ولكن اللوم ينهل
 عليه من كل صوب ، ويعذله القوم كأنهم ما عشقوا وما عرفوا
 طعم الحب . بالله ، أيعذل عاشق ، منح الهوى لمعالم الأحباب .
 ما أغرب الأمر في هؤلاء الناس . يغالون في تلومهم كأنما الوقوف
 على الديار حرام .

سقياً لأطلال الأحبة كي يرد لها الشباب ، فلعل ما فيها من
الربوات والمنخفضات يزدهي بالنور ، وتكلمه الرياحين .

وتتوارد إلى ذهن الشاعر خواطر وذكريات ، فيستراى له
زمن الوصال ثم أيام الهجر ، ويغص بالفراق ، ويشجيه صوت
الهمائم . حتى إذا بلغت الاحزان منتهاها ، وثب الشاعر إلى مدح
الخليفة وثبة فيها كثير من البراعة والفن .

قد تقول إن هذا النهج قديم ، وقد يخيل اليك أن أبا تمام يقلد
سابقه ، ولكن الحقيقة غير ذلك . نعم ، أنه يقف على الاطلال ،
وقوف السالفين ، ولكن حديثه عنها ، ومناجاته لها ، ونسيبه
بالحببية أمور تختلف كل الاختلاف عما ألفه الشعراء من قبل .

إن أول ما يميز استهلال أبي تمام هو الفخامة في المطلع ، وهذا
الجلال في التعبير والصورة ، والتصرف بالأصوات ، مما يدل على
أن العملية الشعرية لم تعد شيئاً سهلاً ، ولم تعد كما لو فها تقوم على
العاطفة والغناء وأنما هي وعي وإجهاد وحشد لمعطيات الفكر .
ولا غرابة ؛ فأبو تمام شاعر مثقف ، أكب على دراسة الفلسفة
والعلوم في عصره ، واستفاد منها في تجاربه الفنية ، كما أنه أكب
على بلاغة العرب ، وعلوم اللغة ، فتضلع منها ليستخدمها في
شعره ؛ وإلا فكيف تفسر قوله :

عشقوا فلا رزقوا ، أيعذل عاشق رزقت هواه معالم وخيام
لا مر يوم واحد إلا وفي أحشائه لمحتيك غمام

وإنه لعل بجانب من الروعة أن يقول أبو تمام :

ولقد أراك فهل أراك بغبطة والعيش غص والزمان غلام
أرأيت قبله من الشعراء من عمد الى مثل هذا التجريد وجعل
من الزمان شخصاً له طفولة وشباب وكهولة ؟

ولنمض الآن الى المديح - فأول ما نقع عليه ، هو هذا
التخلص البديع الى الحديث عن الممدوح يحشد فيه الشاعر كل ما
أوتي من لباقة وفن ، وما توصل اليه من خبرة في مجال التعبير ،
ومقدرة على استنباط المعاني واستخراجها من أغوارها العميقة .

الله أكبر جاء أكبر من جرت فتعثرت في كنهه الأوهام
من لا يحيط الواصفون بوصفه حتى يقولوا وصفه إلهام
ما نظن أن إنساناً قبل المأمون قد توصل في مديحه الى هذه
الحدود . وما نظن أن شاعراً قبل أبي تمام قد تيسر له أن يمدح
بمثل هذه المعاني . هي مبالغات ولا ريب ، ولكنها مبالغات
مستحبة . بل إنها لتهمز كيان المتذوقين وتحرك منهم الأفتدة ،
وتشغل الازدهان . أما الممدوح ، فيضحى اكثر من إنسان ،
ويبلغ روعة المثالية .

كثيرون هم الشعراء الذين تحدثوا عن العظمة في الممدوح ، كما
تحدثوا عن الجود والتقوى والعدل والشجاعة ، وسعة السلطان ،
ومضاء العزيمة ، والسهر على الدين ، والنصر على الأعداء ، والحلم
والفضل ، وحسن الخلق ، وكرم النجار ، ولكنهم نادرون
أولئك الذين صوروا هذه الامور بمثل ما صورها أبو تمام ،
وخلعوها على الممدوحين كما خلعها هو على المأمون .

من شرّد الاعدام عن أوطانه
بالبذل حتى استطرف الاعدام
وتكفل الأيتام عن آبائه
حتى وددنا أننا أيتام
ما زال حكم الله يشرق وجهه
في الارض مذ نيطت به الاحكام
لما رأيت الدين يخفق قلبه
والكفر فيه تغطرس وعرام
أوريت زند عزائم تحت الدجى
أسرجن فكرك والبلاد ظلام
فنهضت تسحب ذيل جيش ساقه
حسن اليقين وقاده الاقدام

هذه هي صفات الحاكم المثالي . هذا ما كان الممدوحون
يتوقون الى سماعه منذ زمن طويل ، ولكن الشعراء ما استطاعوا
أن يبلغوه .

لمثل هذه الاقوال جعل أبو تمام أستاذ الشعر في زمنه ، ولمثلها
أخذ الشعراء يقلدونه ويأخذون عنه ، وأخذ الاشراف يحلونه
ويصدرونه في مجالسهم ، ويغدقون عليه الهبات .

على أن هذه المزايا ليست وحدها ما يسم الشعر الطائى .
ففي قصائد الحبيب مقاطع ملحمية رائعة استمدتها من حروب
العباسيين ضد الروم ، والحق أن هذه الحروب لم تكن هينة ،

ولم تكن على هامش الحياة العربية في العصر العباسي ، بل كانت أهم ما يقض مضاجع الحكام . فالمأمون قد حسب حسابها ، والمعتصم جعلها في مقدمة أعماله ، كما جعلها الخلفاء اللاحقون ، وأمراء بني حمدان . ولكن أجمل الشعر الذي قيل في هذه الحروب هو لرجلين اثنين : أبي تمام ، وأبي الطيب المتنبّي ، ذلك في حديثه عن حروب المعتصم ، وهذا في حديثه عن حروب سيف الدولة . وسوف نعقد مقارنة بين الشاعرين لدى دراستنا لشعر أبي الطيب .

وفي القصيدة التي بين أيدينا لوحة لمعركة قادها المأمون ، وصف فيها الشاعر الجيش العربي ، وقد ساقه حسن اليقين والايان بالله وقاده الاقدام الى أرض العدو . ومع أن الابيات كلها من جيد الشعر وممتينه . فان هناك ما لا يسع القارىء إلا أن يبدي إعجابه ، ويلفت النظر اليه وخصوصاً قوله :

مسترسلين الى الحتوف كأنما بين الحتوف وبينهم أرحام
في معرك ؛ أما الحمام فمفطر في صبوتيه ، والكهامة صيام
ما كان للاشراك فورة مشهد والله فيه وأنت والاسلام
متساقطي ورق الثياب كأنهم دانوا ؛ فأحدث فيهم الاحرام

ومن مزايا المديح لدى أبي تمام هذا الشعور القومي الذي حرص الشاعر على إبرازه في كثير من قصائده ؛ وهذه الصناعة التي يبلغ فيها بين الحين والحين حدّ الاسراف . فاذا التشابه والاستعارات والكنائيات والمجازات المرسلة ؛ والطباق والجناس

والترصيع وغيرها من معطيات البيان ؛ تنفرط في شعره حتى لا يكاد يخلو منها بيت واحد . وللشاعر ولع خاص بالغريب يقصد اليه قصداً متعمداً ؛ ويذروه في شعره . كما أنه مولع بالتشخيص واستخدام الرموز المتولدة من عميق الفكر . وسوف يثبت لك ذلك في ما سنورد له من مديح أيضاً .

مدح المعتصم :

في سنة ٨٣٨ م ، أغار امبراطور الروم تيوفيل بن ميخائيل على بلدة تدعى زبطرة ؛ تقع على الخط الفاصل بين أرض العرب وأرض الروم . فعاث جيشه في المدينة ، وأهلك أهلها وسبى نساءها ، ثم أحرق المدينة بكاملها . ووصلت أخبار الغزو الى سامراء وفيها المعتصم خليفة المسلمين ، ومن بينها خبر أقام الخليفة وأقعدده مفاده أن امرأة عربية من أهل زبطرة قد لقيت من الغزاة شدة وتعذيباً ، فصاحت وهي تساق الى الأسر «وامعتصماه» . فتملأ المعتصم فوق سريره وصاح : «لبيك ، لبيك» ثم جهز جيشاً وسار الى الثأر ، فغزا أنقرة ثم عمورية ، أمنع المدن الرومية وأقدسها ، فذك حصونها وقلاعها وأحرقها وخلص الأسرى العرب وعاد مظفراً . فمدحه أبو تمام بهذه القصيدة :

السيف أصدق أنباءً من الكتب
في حدّه الحدّ بين الجِدِّ واللّعبِ
بيض الصفائح لا سود الصفائح في
متوزنهنّ جلاء الشكِّ والرّيبِ

والعلمُ في شُهْبِ الارماحِ لَامعةٌ
 بين الخميسينِ لا في السبعةِ الشُّهْبِ ١
 أين الرواية بل أين النجومُ وما
 صاغوه من زُخرفٍ فيها ومن كذبٍ
 تخرُّصاً وأحاديثاً مُلفِقةً
 ليست بنبعٍ إذا عُدَّت ولا غَرَبِ ٢
 عجائباً زعموا الايامَ مُجفلةً
 عنهنَّ في صَفَرِ الأصفارِ أو رَجَبِ
 وخوَّفوا الناسَ من دهياءَ مُظلمةٍ
 إذا بدَّ الكوكبُ الغربيُّ ذو الذنَبِ
 وصيَّروا الأبرجَ العُلَيَّا مُرتبةً
 ما كان منقلباً أو غير مُنقلبِ

١ - الخميسان : الجيشان كل منهما مؤلف من خمس فرق .

ملحوظة : روي أن المعتصم قد سأل قواده : أي بلاد الروم أمتع وأحصن ؟ ف قيل له عمورية لم يعرض لها احد من المسلمين منذ أن كان الاسلام وهي عين النصرانية وبنكها وهي أشرف عندهم من القسطنطينية فسأل المنجمين عما اذا كان في الامكان فتحها : فقالوا : إنها لا تفتح إلا بعد أشهر ، إبان نضج التين والعنب ، فلم يستمع لقولهم ، ففتحها واخربها ، ولذلك تحدث أبو تمام عن تخرصات المنجمين .

٢ - النبع : شجر صلب ينبت في الاعالي ومنه تؤخذ القسي . الغرب : شجر هش ركيك .

يقضون بالأمر عنها وهي غافلة
 ما دار في فلكٍ منها وفي قطبٍ .
 لو بيّنتُ قطُّاً أمراً قبل موقعه
 لم تخفِ ما حلَّ بالأوثانِ والصلبِ
 فتح الفتوح تعالى أن يحيط به
 نظمٌ من الشعر أو نثرٌ من الخطبِ
 فتحٌ تفتّحُ ابوابُ السماء له
 وتبرزُ الأرضُ في أثوابها القشبِ .
 يا يومَ وقعةِ عمورية انصرفت
 منك الُمنى حفلاً معسولة الحلبِ^١
 أبقيتُ جدّ بني الاسلام في صعدٍ
 والمشرّكين ودار الشركِ في صببٍ^٢
 أمُّ لهم لو رجوا أن تفتدى جعلوا
 فداءها كلَّ أمٍّ برّةٍ وأبٍ
 وبرزة الوجهِ قد أعيت رياضتها
 كسرى وصدت صدوداً عن أبي كربٍ^٣

١ - الحفل : جمع حافل ، وهي الناقة التي امتلأ ضرعها لبناً .

٢ - الصبب : المنحدر من الطريق .

٣ - برزة الوجه : المرأة ذات الحسن . أبو كرب : ملك تباعي من أهل

اليمن اسمه أسعد بن مالك الحميري .

من عهد إسكندرٍ أو قبلَ ذلك قد
 شابت نواصي الليالي وهي لم تشبِ
 بكرٌ فما افتَرعتها كفٌ حادثةٌ
 ولا ترقَّت إليها همّةُ النُوبِ
 حتى إذا مخَّضَ الله السنينَ لها
 مخضَ البخيلةِ كانت زبدةَ الحَقَبِ
 أتنهمُ الكربةُ السوداءُ سادرةً
 منها وكان اسمُها فرّاجةَ الكربِ
 جرى لها الفألُ نحساً يوم أنقرة
 إذ غودرت وحشة الساحات والرحبِ
 لما رأت أختها بالأمس قد خربتُ
 كان الخرابُ لها أعدى من الجربِ
 كم بين حيطانها من فارسٍ بطلٍ
 قاني الذوائب من آني دمٍ سَرِبِ
 بسنةِ السيفِ والخطيِّ من دمه
 لا سنةِ الدينِ والاسلامِ مختضبِ
 لقد تركتَ أميرَ المؤمنينَ بها
 للنارِ يوماً ذليل الصخرِ والخشبِ

غادرتَ فيها بهم الليلِ وهو ضحىٌ
 يَشْلُثُهُ وَسَطُهَا صَبْحٌ مِنَ اللَّيْلِ
 حتى كأنَّ جلابيبَ الدُّجَى رَغِبَتْ
 عن لونها، أو كأنَّ الشمسَ لم تَغِبْ
 ضوءٌ من النارِ، والظلماءُ عاكفةٌ
 وظلمةٌ من دخانٍ في ضحىٍّ شَحِيبِ
 فالشمسُ طالعةٌ من ذا وقد أَفْلَسَتْ
 والشمسُ واجبةٌ من ذا ولم تَجِبْ^١
 ما ربعُ مَيَّةٍ معموراً يطيفُ به
 غيلانٌ، أبهى ربى من ربِّها الخربِ^٢
 ولا الحدودُ وقد أدمين من خَجَلِ
 أشهى إلى ناظري من خدِّها التَّربِ
 سماجةٌ غنيت من العيون بها
 عن كلِّ حَسَنٍ بدا، أو منظرٍ عَجَبِ
 وحسنٌ مُنْقَلَبٍ تبدو عواقبه
 جاءت بشاشته عن سوءٍ مُنْقَلَبِ
 لو يعلمُ الكفرُ كم من أعصرٍ كُنتَ
 له المنيَّةُ بين السُّمْرِ والقَضْبِ

١ - وجبت الشمس : غابت .

٢ - غيلان : هو ذو الرمة الشاعر الأموي الشهير - مية : هي حبيبة الشاعر

تدبير معتصم ، بالله منتقم ،
لله مرتقب ، في الله مرتغب .
وَمُطْعِمُ النِّصْلِ لَمْ تَكْهَمْ أَسِنَّتُهُ
يوماً ولا حجببت عن روح محتجب .
لم يغزُ قوماً ولم ينهض الى بلدٍ
إلا تقدّمه جيشٌ من الرُّعْبِ .
لو لم يقْد جحفلًا يوم الوغى لغزا
من نفسه وحدها في جحفلٍ لب .
رمى بك الله بُرجيها فهدّمها
ولو رمى بك غيرُ الله لم يُصِبِ
من بعد ما أشبّوها واثقين بها
والله مفتاحُ باب المعقلِ الأشبِ ٢
وقال ذو أمرهم : لا مرتعٌ صدّدُ
للسارحين وليس الوردُ من كُثَبِ .
أمانياً سلبتهم نُججُها جسبها
ظبي السيوف وأطراف القنا السلبِ .
ان الحمّامين من بيضٍ ومن سُمرٍ
دلوا الحياتين من ماء ومن عشبِ

١ - كهم السيوف : كلّ ونبا .

٢ - التأشيب : شدة التفاف الشجر ، والأشب : المنيع المحصن .

لَبَّيْتَ صَوْتًا زَبَطْرِيًّا هَرَقْتَ لَهُ
كَأْسَ الْكَرَى وَرُضَابَ الْخَرَدِ الْعَرَبِ^١
عَدَاكَ حَرُّ الثَّغُورِ الْمُسْتَضَامَةِ عَنْ
بَرْدِ الثَّغُورِ وَعَنْ سَلْسَالِهَا الْخَصِيبِ
أَجَبْتَهُ مُعَلَّنًا بِالسَّيْفِ مُنْصَلَّتًا
وَلَوْ أُجِيتَ بِغَيْرِ السَّيْفِ لَمْ تُجِيبِ
حَتَّى تَرَكْتَ عَمُودَ الشَّرْكَ مُنْقَعَرًا^٢
وَلَمْ تَعْرِجْ عَلَى الْأَوْتَادِ وَالطُّشْبِ^٣
لَمَّا رَأَى الْحَرْبَ رَأَى الْعَيْنُ قَوْفِلِسَ^٤
وَالْحَرْبُ مُشْتَقَّةٌ الْمَعْنَى مِنَ الْحَرْبِ^٣
غَدَا يَصْرَفُ بِالْأَمْوَالِ جَزِيَّتَهَا
فَعَزَّهَ الْبَحْرُ ذُو التِّيَّارِ وَالْعَبَبِ
هِيَهَاتَ زُعَزِعَتِ الْأَرْضُ الْوَقُورَ بِهِ
عَنْ غَزْوٍ مُحْتَسِبٍ لَا غَزْوٍ مُكْتَسَبٍ
لَمْ يُنْفِقِ الذَّهَبَ الْمَرْبِيَّ بِكَثْرَتِهِ
عَلَى الْحَصَى وَبِهِ فَقَرَ إِلَى الذَّهَبِ

١ - العَرَبُ: جمع عَرُوبٍ: وهي المرأة المتحبيبة لزوجها،

٢ - منقعرًا: منقطعاً من أصله.

٣ - الحرب: سلب امتعة الناس وتركهم بلا شيء.

٤ - المحتسب: من قدم الخير عند الله.

إن الأسود أسود الغاب همتها
 يوم الكريهة في المسلوب لا السلب
 ولي وقد أجم الخطي منطقة
 لسكتة تحتها الأحشاء في صخب
 أحسى قرابينه صرف الردى ومضى
 يحث أنجي مطاياها من الهرب^١
 موكلاً بيفاع الأرض يشرفه
 من خفة الخوف لا من خفة الطرب
 إن يعد من حرها عدو الظلم فقد
 أوسعت جاحمها من كثرة الخطب
 تسعون ألفاً كآساد الشرى نضجت
 جلودهم قبل نضج الثين والعنب .
 والحرب قائمة في مأزق الجيب
 تجثو الرجال به صعر أعلى الركب^٢
 كم نيل تحت سناها من سنى قمر
 وتحت عارضها من عارض شنب^٣ .

١ - القرايين : جمع قربان وهو جليس الملك .

٢ - المأزق : مضيق يقتتل فيه : الصعر : جمع الأصعر : وهو المعرض بوجهه كبراً .

٣ - سناها : أي سنى النار ، ضوءها . وأما سنى الثانية : فأراد بها نور الوجه الجميل . العارض : السحاب المعترض في الأفق . شبه به الحرب التي تطر عارضاً من نار . والعارض الثانية ما يعرض لك عندما تنظر إلى الشجر باسم .

كم كان في قطع أسباب الرقاب بها
الى المخذرة العذراء من سبب

كم أحرزت "قضب الهندي" مصلته
تهتز من "قضب" تهتز في كُشب^١.

بيض^٢ إذا انتضيت من حجبه ارجعت
أحق بالبيض أبداً من الحجب^٢.

خليفة الله جازى الله سعيك عن
جرثومة الدين والاسلام والحسب.

بصرت بالراحة الكبرى فلم ترها
تنال إلا على جسر من التعب.

إن كان بين صروف الدهر من رحيم^٣
موصولة أو ذمام غير منقضب.

فبين أيامك اللاتي نصرت بها
وبين أيام بدر أقرب النسب.

أبقت بني الاصفر المصفر^٤ كاسمهم
صفر الوجوه وجلست أوجه العرب

هذه عينة ثانية من مديح أبي تمام ، وهي من بين الروائع

١ - القضب الأولى : السيوف القليلة العرض. والقضب الثانية : جمع قضيب

وهو الغصن .

٢ - البيض : السيوف - انتضيت من حجبتها : سللت من أغمارها .

البارزة في شعر العرب استهلها أبو تمام بغير ما تعود السابقون ان يستهلوا قصائدهم به ، وبغير ما نرى في مطالع عدد غير قليل من قصائد هذا الشاعر . وما كان هذا الاستهلال إلا نتيجة لتطور قد أصاب فن المديح على يدي حبيب بن أوس الطائي ، فزالت منه المنهجية القديمة بعض الزوال ، واستعيض عن مطالع الغزل ووصف الديار بمطالع جلية في الحكمة ، وسوف نرى المتنبي يأخذ بهذه الطريقة ، ويتعد فيها أكثر مما ابتعد أبو تمام . وفي ديوان الحبيب عدد غير قليل من القصائد التي تبدأ بدءاً غير تقليدي . ولعل لجلال الموقف الذي وقفه الشاعر يداً في تحويل المطلع نحو هذا اللون . فهل يسوغ لأبي تمام أن يقف على الأطلال ، ويتذكر الأحبة ، ويصف الناقة والربع والخيام والسفر وما الى ذلك في هذه الغمرة من غمرات البطولة العظمى ؟

والذي لا يحتاج الى كبير برهان ، هو أن أبا تمام شاعر أبهة وأريستوقراطية يريد أن يرفع الناس الى مستواه ، بديل أن ينحدر هو في شعره الى مستوى الناس البسطاء . وفي هذه الطريقة فتح جديد في شعر العرب .

هيهات زعزعت الارض الوقور به

عن غزو محتسب لا غزو مكتسب

إن الاسود أسود الغاب ، همها

يوم الكريهة في المسلوب لا السلب

ولسى وقد الجهم الخطي منطقة

بسكته تحتها الأحشاء في صخب

ولقد ذكرنا عنه في السابق أنه كان مولعاً بالتقصي المعنوي ،
يقلب المعاني تقليباً ، ويبتعد في طلبها حتى يبلغ التعقيد أحياناً ،
وما ذلك إلا نتيجة لتلك المفاهيم التي أقام الشعر على أسسها .
وإذا وقعت في شعر أبي تمام على مبالغات لا تحدّها حدود ، فلا
تظن أنها من نوع المبالغات المعروفة عند السلف . بل هي مبالغات
ولدتها الفلسفة ولوّنها العقل بألوانه ، وتوخى فيها أبو تمام بلوغ
المستحيل لشدة توقه الى الخروج مما كان الناس يألّفونه .

لم يغز قوماً ولم ينهض الى بلد

إلا تقدمه جيش من الرعب

لو لم يقدر جحفاً يوم الوغى لغدا

من نفسه وحدها في جحفل لجب

والحق يقال إنها لمبالغات مستحبة رغم خروج صاحبها عن
المعقول . وإذا كان أبو تمام يتقصي المعاني ويعمد الى التوليد
والاختراع ، فانه لم يهمل الملح والايماة السريعة ، وجعل الكلام
موافقاً للمقام الذي قيل فيه :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كنت

له المنية بين السمر والقضب

فبين أيامك اللائي نصرت بها

وبين أيام بدر أقرب النسب

ومما يميز شعر أبي تمام كذلك ، صناعة بلغت حد الإسراف
في حشد الصور البيانية ، وتعتمد الاتيان بما يثير إعجاب الناس ،
ويشغل أذهانهم .

وعن ظاهرتين أساسيتين في شعر أبي تمام ، ظاهرة الفكر ،
وظاهرة الصناعة ، نشأ غموض اكتنف غير قليل من شعر الرجل ،
وألقى عليه ظلاً قاتماً ، حتى أخذ الناس يتساءلون حول هذا
الشعر ، ويقولون لأبي تمام : لماذا تقول ما لا يفهم ؟ فيجيبهم
هو : ولماذا لا تفهمون ما يقال ؟ وغير خفي ما قصده ذلك
الشاعر البدوي حين سمع شعر الحبيب فقال : «إذا ما كان هذا
شعراً ، فكلام العرب باطل» .

أضف أن في شعر أبي تمام وحدة في القصيدة ، وتآلفاً وتماسكاً
بين أجزاء النظم وعملاً فنياً راقياً ، واتجاهاً نحو التعقد .

نخرج من هذا كله ، الى أن شعر المديح قد لقي على يدي أبي
تمام تجديداً بيّناً ، إن في طريقة النظم ، أو في محتوى الشعر ،
أو في الصياغة ، بحيث أصبحت العملية الشعرية لديه عملية وعي
وإجهاد وأناقة وإغراب وفلسفة وتعمل فني وجنوح في الخيال
نحو التعقيد والاتساع ، وفي المديح نحو الابهة والضبجيج الملحمي
وجلال العبارة ، وأريستوقراطية الشعر وفخامة المطالع ،
والاغراق في التعظيم والنفج ، بما كان يحرك أفئدة الامراء ويهز
أريحياتهم ، وقيمهم ويقعدهم ، ويملاً نفوسهم ابتهاجاً واطمئناناً
وزهواً .

البحثري :

لم يكن البحثري ابن الحضارة في مولده ولا في نشأته ، وإنما هو بدوي منبجي ، انتقل الى الحضارة فيما بعد ، عندما بلغت قصائده في بغداد نديم الخليفة علي بن يحيى المنجم ، وهو أديب وشاعر ؛ فقربه اليه ، ثم فتح أمامه باب المجد ، فعرف الوزراء والامراء ، ولقي حفاوة لدى الخليفة المتوكل ، وكان بينها اتفاق في الأهداف السياسية وفي الذوق وفي الخلق .

كان البحثري رحالة يضرب في الامصار ، فمما ترك بلداً شهيراً ، ولا ثغراً من الثغور إلا زاره . ولقد مر شعره بمراحل ثلاث :

١ - عهد الصحراء :

ومنها قبس البحثري اللغة فانقادت له ، واستوى على الكلام الفصيح لسانه ، فنجح من مزلق أبي تمام اللغوية ، وإذا كانت الأجهزة اللغوية لدى حبيب بن أوس قد طلبت بالدرس ، وقصد اليها قصداً ، فانها لدى البحثري عفوية أخذها عن أهل منبج وفصاحة البدو في الصحراء كما تنشق النسيم في صباه ، وكما امتد بصره في صحراء اتسع باتساعها مرمى خياله .

حمل البحثري من الصحراء ألفاظه وأصالة التركيب لديه ، كما حمل الذوق البدوي في الشعر ، ومؤداه ؛ أن الشعر ليس فكراً وليس ثقافة ، وإنما هو عاطفة وخيال ، وموسيقى تجعل

منه عملاً غذائياً في الدرجة الاولى .

٢ - تلميذ أبي تمام :

لا نعرف من أهل الفن رجلاً واحداً لم يحتذ حذو أستاذ في حياته الفنية . ولقد كان أبو تمام أستاذاً للبحثري كما كان أستاذاً لغيره أيضاً ، وكانت شخصيته أقوى وأصلب من شخصية البحثري .

وفي الوقت الذي عرفه فيه أبو عبادة الناشيء ، كان اسم أبي تمام قد ملأ فضاء الشعر ، فضرب التلميذ على غرار أستاذه ، ولكنه قصر عنه كما يقصر المقلد عن المبدع دائماً .

فلم يكن البحثري صاحب ثقافة واسعة ، ولم يتوفر له التكوين الفلسفي الذي كان يتمتع به أبو تمام . وكأنما لم يدرك هذا الفتى أن معضلة الشعر لديه تختلف عنها لدى أبي تمام ، فقلده حيناً ثم ما لبث أن تخلص من سلطته شيئاً بعد شيء .

٣ - العمران الجديد :

وكان من الطبيعي أن تكتمل العملية الفنية في علاقة ما بين الشاعر والحياة يوم انتقل البحثري الى حاضرة بني العباس ، وأدرك الفوارق التي تفصل عالم منبج عن هذا العالم المكتنف بالبناء والزهر والخمر وأبهة الملك ورغد العيش والماء النмир والقيان واللهو على مختلف أنواعه . وأدرك أن العيش الرغيد السهل لا يعبر عنه إلا بشعر من طبيعته ، سهل طيب الجرس حلو الأنغام ،

تستسيغه الأذن ، ويطيب لها أن تسمعه في كل حين . فنظم
قصائد ، هي من أجمل ما قيل في شعر العرب ديباجة ، ومن
أكثرها موسيقية وحلاوة في التعبير . والذي يهمنا من هذه
القصائد هو المديح .

مدح المتوكل :

« وفيه ذكر مو كبه يوم الفطر »
أخفي هوى لك في الضلوع وأظهر
وألام في كمدٍ عليكِ وأعذر
وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى ، وهجرت من لا يهجر
وطلبت منك مودةً لم أعطها
إن المعنى طالب لا يظفر
هل دين علوة يستطاع فيقتضى
أم ظلم علوة يستفيق فيقصر
بيضاء يعطيك القضيبي قوامها
وإريك عينيها الغزال الأحور
تمشي فتحكم في القلوب بدلتها
وتميس في ظل الشباب وتخطر
إني وإن جانبت بعض بطالتي
وتوهم الواشون أني مقصر

ليشو قني سحر العيون المجتلى
 ويروقني ورد الحدود الأحمر
 الله مكن للخليفة جعفر
 ملكاً يحسنه الخليفة جعفر
 نعمى من الله اصطفاه بفضلهما
 والله يرزق من يشاء ويقدر
 فاسلم أمير المؤمنين ولا تزل
 تعطى الزيادة في البقاء وتشكر
 عمت فواضلك البرية فالتقى
 فيها المقل على الغنى والمكثر
 بالبر صمت وأنت أفضل صائم
 وبسنة الله الرضية تفر
 فانعم بيوم الفطر عيناً إنه
 يوم أغر من الزمان مشهر
 أظهرت عز الملك فيه يحفل
 لجيب يحاط الدين فيه وينصر
 خلنا الجبال تسير فيه وقد غدت
 عدداً يسير بها العديد الأكثر
 فالخيل تصهل والفوارس تدعي
 والبيض تلمع والأسنة تزهر

والارض خاشعة تميد بثقلها
والجو معتكر الجوانب أغبر
والشمس ماعة توقد بالضحى
طوراً ويطفئها العجاج الأكر
حتى طلعت بضوء وجهك فأنجلت
تلك الدجى وانجاب ذاك العثير
وافتن فيك الناظرون فاصبع
يولى اليك بها وعين تنظر
يجدون رؤيتك التي فازوا بها
من أنعم الله التي لا تكفر
ذكروا بطلعتك النبي فهاولوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
حتى انتهيت الى المصلى لابساً
نور الهدى ، يبدو عليك ويظهر
ومشيت مشية خاشع متواضع
لله لا يزهى ولا يتكبر
فلو أن مشتاقاً تكاف غير ما
في وسعه لسعى اليك المنبر

أَيَّدْتَ مِنْ فَصْلِ الْخَطَابِ بِحِكْمَةٍ
تُنْبِي عَنْ الْحَقِّ الْمُبِينِ وَتُخْبِرُ

وَوَقَفْتَ فِي بُرْدِ النَّبِيِّ مَذْكُراً
بِاللَّهِ تُنْذِرُ قَارَةَ وَتُبَشِّرُ

وَمَوَاعِظُ شَفَتِ الصُّدُورَ مِنَ الَّذِي
يَعْتَاذُهَا وَشَفَاؤُهَا مُتَعَذِّرُ

حَتَّى لَقَدْ عَلِمَ الْجَهْلُولُ وَأَخْلَصْتَ
نَفْسَ الْمُرُوءِيِّ وَاهْتَدَى الْمُتَحَيِّرُ

صَوَا وَرَاءَكَ آخِذِينَ بِعَصْمَةٍ
مِنْ رَبِّهِمْ وَبِذِمَّةٍ لَا تُخْفَرُ

فَاسْلَمْ بِمَغْفَرَةِ الْإِلَهِ فَلَمْ يَزَلْ
يَهْبِ الذُّنُوبَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَغْفِرُ

اللَّهُ أَعْطَاكَ الْحُبَّ فِي الْوَرَى
وَحَبَاكَ بِالْفَضْلِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ

وَلَأَنْتَ أَمْلَأُ لِلْعَيُونِ لَدَيْهِمْ
وَأَجَلٌ قَدِيراً فِي الصُّدُورِ وَأَكْبَرُ

فِي هَذِهِ الْقَصِيدَةِ كَمَا فِي أَمْثَالِهَا مِنْ مَدَائِحِ الْبَحْتَرِيِّ تَظْهَرُ
الْمَزَايَا الْعَامَّةُ الَّتِي تَسْمَعُ شَعْرَ هَذَا الرَّجُلِ .

١ - إِنَّ الشَّاعِرَ لَمْ يَشُدَّ عَنْ نَهْجِ الْقَدَمَاءِ فِي جَعْلِ الْغَزْلِ فَاتِحَةً
لشعره . وَلَكِنَّهُ غَزَلَ رَقِيقاً ، اسْتَمَدَ رَقَّتَهُ مِنْ حَيَاةِ الْحَوَاضِرِ

العباسية ومن مظاهر التطور التي أصابت شعر العرب في القرن الثالث للهجرة ، كما استمدها بنوع أخص ، من ذوق البحري ومن رفاة حسّه ورقة طبعه ، وتمكّنه من استخدام الأجهزة اللغوية حسب مقتضى الحال .

٢ - إن غزله لم يتضمن وقوفاً على الأطلال ، ولا نعتاً للديار ، أو وصفاً للناقة أو حديثاً عن الظعن ، وترحل القوافل في فيافي الصحراء .

٣ - إن الانتقال من الغزل الى المديح شبيه جداً بانتقالات الشعراء القدامى ، فهو وثب مفاجيء ليس فيه ما رأيناه لدى أبي تمام وهو معاصر البحري وأستاذه في مدرسة الشعر .

٤ - إن المعاني الواردة في المطلع الغزلي لتبدل دلالة واضحة على ذوق البحري البدوي في أصله ، المتدمث بدمثات الحضارة .

٥ - إذا مدح البحري كان مديحه استخداماً للمعاني الشائعة لدى الشعراء جميعاً ، حتى إنه ليندر أن يقع امرؤ على معنى بحري خالص . فالمتوكل يسوس الملك ويحسّنه كما كان يسوسه يزيد وعبد الملك وهشام ابنه وكما كان يسوسه المنصور والرشيد والأمين والمأمون والمعتصم ، ونعم الله عليه منهالة بكثرة ، وفواضله عمت البريه ، كمدوح النابغة الذبياني إذ قال فيه « إن له فضلاً على الناس في الأدنى وفي البعد » . والمتوكل يصوم رمضان على سنة الله ، ويفطر على سنة الله ، وهو يذهب الى

الصلاة ويسير بخشوع وتواضع ، تشتاق العيون الى رؤيته
والآذان الى سماعه . فاذا نطق فبالحكمة والهدى ونور
الحق ، وإذا وقف بين الناس ، ذكرهم بالنبي ؛ وحلّ فيهم
بركة .

٦ - إن البحري شاعر مبدع ؛ ولكن إبداعه ليس في معاني
المديح التي يوردها بل في اللوحة الفنية التي يضمنها مديحه .
وما من مدحة إلا وتجد فيها وصفاً لمحفّل أو لهصر أو لبركة أو
لحديقة أو أي شيء آخر مما يلائم مزاج هذا الشاعر . ولعل
لتطور الحياة الحضرية الأثر الأكبر في تطوير المديح لديه نحو
هذا اللون .

وفي القصيدة التي بين أيدينا وصف رائع لموكب المتوكل ؛
وهو خارج الى الصلاة يوم العيد ؛ وقد سار معه جيش عظيم ؛
في أبهة وعزّة وجلال ؛ فكأنما كانت الجبال تسير ، والناس
وقوف في جماهير غفيرة ، والحيل تصهل والفوارس تدّعي .
وسيوفها تلمع . وأسنتها تزهر . ويا لروعة ذلك المشهد . وقد
انبسطت الأرض بخشوع . ومادت بأثقالها . والجو قد اعتكر
واغبرّ وجهه والشمس قد تمتعت توقد بالضحى . وفي هذه الغمرة
طلع الخليفة بوجهه على الناس . فأنجلي الدجى . وأنجباب كدر
الفضاء وتهافت الناس على رؤية المتوكل . وكأنها نعمة كانوا بها
يفوزون . وتتعالى الأصوات من كل مكان تهليلاً وتكبيراً .
ويمشي الخليفة بين الناس متواضعاً مستبشراً وكل ما في الوجود
في شوق الى رؤيته والتبرك به .

وصف جميل ، ولا ريب ، لموكب الخليفة يوم الفطر . فيه دقة ملاحظة واتساع شعور . وبراعة في التصوير . ورهافة في الحس . وإدراك شامل للخصائص . ومعرفة بأحوال النفوس وبما يرضيها . والبحتري رسام بارع يختار من اللوحة خطوطها البارزة . فيثبتها . حتى تضحى هذه اللوحة غنية بالأيحاء .

٧ - ليست القصيدة في مديح البحتري طويلة النفس ، وإنما هي وفق شعوري تستوعبه نفثة قصيرة ، فيكتفي بثلاثين بيتاً ، أو أربعين أو خمسين ، ولا يتجاوز ذلك كما تجاوزه ابن الرومي فبلغت مدحته أربعمئة بيت ونيفاً .

٨ - ليست المعاني في شعر أبي عباد ، معاني فلسفية ، ولا هي من العمق بمثل ما كانت معاني أبي تمام ومعاني ابن الرومي والمتنبي ، ولكنها مع ذلك مستحبة ، ترتاح إليها النفس ، ولا تجد فيها تعقيداً ولا غموضاً ولا كدّاً . فشعر البحتري يفهم للتلاوة الأولى ، ويبلغ منك النفس كما يبلغها العطر من غير ما إجهاد أو معاناة .

٩ - ولا تظن أن البحتري كان يأتي بالسخيف المردول . فواقع الحال أن السخيف المردول من طبيعة التكلف ، ولم يكن البحتري متكلفاً ، بل كان الطبع أبرز ما يسم شعره . وإنك لتقع في هذا الشعر ، على البساطة والفطرة والألفة والراحة ، والوضوح إلى أبعد حد ، وفي أجلى مظهر . وللبحتري التفاتات جميلة جداً على بساطتها وسهولتها كقوله في المطلع الغزلي من هذه القصيدة :

تمشي فتحكم في القلوب بدلها
وتدس في ظل الشباب وتخطر
إني وإن جانبتي بعض بطالتي
وتوهم الواشون أني مقصر
ليشوقني سحر العيون المجتلى
ويروقني ورد الخدود الأحمر
وكقوله في وسطها :

خلت الجبال تسير فيه وقد غدت
عدداً يسير بها العديد الأكبر
والأرض خاشعة تميد بثقلها
والجو معتكر الجوانب أغبر
ذكروا بطلعتك النبي فهاوا
لما طلعت من الصفوف وكبروا
فلو ان مشتاقاً تكلف غير ما
في وسعه لسعى اليك المنبر

١٠ - لم يكن البحري يعمد الى المبالغة في مديحه ، كما كان يفعل أبو تمام والمتنبي وغيرهما ولم يكن يبلغ المحال في تصوراتهم ومغالياتهم .

١١ - ثم إن الصناعة لديه صناعة موعية مهيبة ، فهو لا يسرف فيها إسراف أستاذه ، ولا يتكلفها ، بل تنساق في شعره انسياقاً هيناً سهلاً ، كقوله :

وأراك خنت على النوى من لم يخن
عهد الهوى وهجرت من لم يهجر

الله مكن للخليفة جعفر
ملكاً يحسنه الخليفة جعفر

نعمى من الله اصطفاه بفضلهما
والله يرزق من يشاء ويقدر

والذي يلفت النظر ، تضمنينه للقول القرآني في البيت الأخير
تضميناً فيه كثير من اللباقة والعفوية .

إذا كان شعر البحري جميلاً مستحباً ، فجماله في موسيقاه ، وفي
إيقاعه العذب الذي يولد لدى القارئ لذة مريحة وطرباً . وما
كان عبثاً أن يقول ابن الأثير في هذا الرجل : « إنه أراد أن
يشعر فغنى » فواقع الحال أن البحري إذا لفت نظر الناس
واهتمامهم فلأنه قد شغل مسامعهم وأذواقهم ولم يشغل عقولهم .
شغلهم باستواء شعره حتى لكأنه « سلاسل من ذهب » وشغلهم
بأصواته المتآلفة وأنغامه الجميلة وخياله الفسيح الذي يجعل منه
مصوراً فناناً ، وبالإيجاء الصوتي الذي قد بلغ فيه غاية ما يمكن
أن يبلغه شاعر عربي . لذلك أضحي البحري صاحب أجمل
ديباجة شعرية عند العرب .

وجدير بالملاحظة ، أن شعر البحري هو أبرز شعر تمثلت
فيه الأصالة العربية على حقيقتها ، وتوافرت فيه العناصر كلها
التي يتكون منها عمود الشعر العربي .

لكل هذه الخصائص ، تألق نجم البحتري في سماء الشعر
وإصابته الشهرة ، وأجزل له الممدوحون العطاء ، فبلغ الثراء
الجم ، وتحدث عنه الناس في المجالس ، وحسده ابن الرومي
وأمثاله ، لأنه لقي النجاح من دونهم . وشهد له النقاد بالفضل
والتقدم ، وتغنوا بشعره .

المديح في العصر العباسي الثالث

مر بنا أن العصر العباسي الثالث هو عصر الازدهار الفكري
عند العرب في العلم والفلسفة والأدب والفنون . ولكنه عصر
الخطط السياسي وفوضى ، وتمزق لكيان الدولة . وعصر جشع
مادي وتحارب عنيف من أجل السلطة والغنى . وفي هذا العصر
بالذات ، نشأت ثورات عارمة شنها الزنج والقرامطة والفاطميون
والشعوبيون ، واستقل الولاة بولاياتهم ، وراحوا يتنافسون فيما
بينهم ويحارب بعضهم بعضاً .

أمام هذا الوضع ، كان الشعراء ينتقلون من والٍ إلى والٍ ،
وكانوا يجدون أمامهم سبلاً للتعيش بشعرهم . وقد زاد في هذه
الحركة ، كون الأمراء الذين أوجدتهم الظروف السياسية كانوا يحرصون
على تكريم الشعراء والعلماء وأهل الأدب والفن ، ويتنافسون في
ذلك ، فيجعلون من بلاطاتهم ندوات أدبية وفكرية . وأشهرهم
آنذاك على الإطلاق سيف الدولة الحمداني الذي جعل بلاطه محجة
للشعراء والأدباء وأهل المعرفة . قال صاحب اليتيمة^١ في معرض

١ - الثعالي - يتيمة الدهر . ج ١ ص ٦ وص ١٦

حديثه عن شعراء الشام : « وقد رزقوا ملوكاً وامراء من آل حمدان وبني ورقاء ، هم بقية العرب والمشغوفون بالأدب ، والمشهورون بالمجد والكرم ، والجمع بين آداب السيف والقلم . وما منهم إلا أديب جواد ، يحب الشعر وينقده ويثيب على الجيد منه فيجزل ويفضل . وسيف الدولة مشهور بسيادتهم وواسطة قلاذتهم . وحضرته مقصد الوفود ومطلع الجود ، ومحط الرحال ، وموسم الأدباء وحلبة الشعراء . ويقال : إنه لم يجتمع قط بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ، ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر . »

والحق ، أن فحول الشعر في العصر العباسي الثالث قد قصدوا بلاط حلب ومن بينهم أبو إسحاق الصابي ، والقاضي النيسابوري ، وأبو بكر الخوارزمي وأبو الطيب المتنبي ، والوأواء الدمشقي وأبو العباس النسائي ، والسري الرفاء ، وأبو الفرج البغواء ، وغيرهم كثير . ولعل أشهرهم على الإطلاق واجودهم شعراً واعرفهم بالمديح ، هو أبو الطيب المتنبي . ولهذا فاننا سنكتفي باتخاذ شعره نموذجاً للمدائح في ذلك للعصر .

من مديح المتنبي

أنشد المتنبي هذه القصيدة سنة اثنتين وأربعين وثلاث مئة هجرية ، وقد مدح فيها سيف الدولة الحمداني في ميدانه بحلب ، وهناك بعيد الأضحي .

لكل امرئ من دهره ما تعودا
 وعادة سيف الدولة الطعن في العدى
 وأن يكذب الأرجاف عنه بضده
 ويمسي بما تنوي أعياده أسعدا
 ورب مريد ضره ضر نفسه
 وهاد إليه الجيش أهدى وما هدى
 ومستكبر لم يعرف الله ساعة
 رأى سيفه في كفّته فتشهدا
 هو البحر غص فيه إذا كان ساكنا
 على الدرّ واحضره إذا كان مزبدا
 فاني رأيت البحر يعثر بالفتى
 وهذا الذي يأتي الفتى متعمدا .
 تظل ملوك الأرض خاشعة له
 تفارقه هلكى وتلقاه سجدا
 وتحبي له المال الصوارم والقنا
 ويقتل ما تحبي التبسم والجد
 ذكي تظنّيه طليعة عينه
 يرى قلبه في يومه ما ترى غدا
 ووصول إلى المستصعبات بخيله
 فلو كان قرن الشمس ماء لأوردا

لذلك سمى ابن الدمستق يومه
مماثاً وسماه الدمستق مولدا
سريت الى جيحان من أرض آمد
ثلاثاً لقد أدناك ركض وأبعدا
فولسى وأعطاك ابنه وجيوشه
جميعاً ولم يعط الجميع ليحمدا .
عرضت له دون الحياة وطرفه
وأبصر سيف الله منك مجرّدا
وما طلبت زرق الأسنة غيره
ولكن قسطنطين كان له الفدى
فأصبح يجتاب المسوح مخافة
وقد كان يجتاب الدلاص المسرّدا
ويمشي به العكاز في الدير تائباً
وما كان يرضى مشي أشقر أجردا
وما تاب حتى غادر الكمر وجهه
جريحاً وخلص جفنه النقع أرمدا
فلو كان ينجي من عليّ ترهب
ترهبت الاملاك مثني وموحدا
وكل امرئ في الشرق والغرب بعده
يعدّ له ثوباً من الشعر أسودا .

هنيئاً لك العيد الذي أنت عيده
وعيد لمن سمي وضحي وعيدا
ولا زالت الأعياد لبسك بعده
تسلم مخروفاً وتعطى مجددا
فذا اليوم في الايام مثلك في الوري
كما كنت فيهم أوحداً كان أوحدا
هو الجدُّ حتى تفضل العين أختها
وحتى يكون اليوم لليوم سيدا
فيا عجباً من دائل أنت سيفه
أما يتوقى شفرتي ما تقلدا
ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام فيا تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدرة
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا .
ووضع الندى في موضع السيف بالعلی
مضر كوضع السيف في موضع الندى

ولكن تفوق الناس رأياً وحكمة
كما فقتهم حالاً ونفساً ومحتداً
يدق على الأفكار ما أنت فاعل
فيترك ما يخفى ويؤخذ ما بدا
أزل حسد الحساد عني بكبتهم
فأنت الذي صيرتهم لي حسداً
إذا شدّ زندي حسن رأيك فيهم
ضربتُ بسيفٍ يقطع الهام مغمداً
وما أنا إلا سمهريّ حملته
فزيّن معروضاً وراع مسدداً
وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً
فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغرداً .
أجزني إذا أنشدت شعراً فانما
بشعري أتاك المادحون مردداً
ودع كل صوت غير صوتي فانني
أنا الطائر المحكي والآخر الصدى
تركت السرى خلفي لمن قل ماله
وأنعلت أفراسي بنعماء عسجداً

وقيدت نفسي في ذراك محبة
ومن وجد الاحسان قيلاً تقيداً

إذا سأل الانسان أيامه الغنى
وكنت على بعد جعلناك موعداً .

هكذا كان أبو الطيب يمدح سيف الدولة . وما من شاعر في
عصره استطاع أن يقول مثل هذا المديح . ولعلنا لا نكون
مبالغين ، إذا اعتبرنا أبا الطيب الشاعر الأول في المديح عند
العرب . فمن لك بهذه العظمة يطل بها الشاعر من بعيد وعلى لسانه
تزهر حكمة الدهور ويختال شعر المديح في اجمل وأبهى مظاهره .
من لك بهذا الحزم الذي لا يعتريه وهن ولا يتسرب اليه الريب
في شأن سيف الدولة رجل الحرب والطعان حق لكأن الحرب
هوايته الأولى ولعبته المفضلة . لله دره من بطل ، يعفر جباه
أعدائه ويمرغ أنوفهم في الرغام واليه تساق الجيوش هدايا سائغة ،
والذاهبون الى ضرره هم الى حتفهم سائرون .

ومستكبر لم يعرف الله ساعة
رأى سيفه في كفه متشهداً

ترى هل وصف إنسان بمثل هذا الوصف قبل سيف الدولة ؟
لقد قال أبو تمام في مديح المعتصم :

لو يعلم الكفر كم من أعصر كمنت
له المنية بين السمر والقضب

تدبير معتصم بالله منتقم
لله مرتقب في الله مرتغب

فأبدع أبو تمام ، ولكن بيت المتنبي أرحب مدى ، وأكثر
ماوية لأنه أقل تكلفاً .

ويعرج المتنبي على الجود في خلق سيف الدولة فما يراه مماثلاً
لجود الآخرين .

هو جود العظيم الذي بيده نفع الناس وبيده مضرتهم . فمن
أتاه موادعاً فاز باحسانه ، ومن أتاه مغاضباً لم يأمن الهلكة ؛
كالبحر إذا سكن ، أمكن إتيانه ، والغوص على ما فيه من
جواهر ، وإن ماج وأزبد وجب التحذر منه .

والذي ينظر في هذا المديح ، يتبين أن المتنبي قد خرج فيه
على المنهجية القديمة ، وأنه قد تتبع خطى أستاذه أبي تمام ،
ولكنه تجاوزه حتى بزه في فخامة المطلع وصفاء التعبير ،
ووضوح المعاني ، وصدق الشعور .

كان المتنبي طامحاً الى الملك ، مثالياً في نزعاته وأهدافه ،
مغرماً بالعظيم من الامور ، تواقاً الى المحال ، والعظمة التي ما
بعدها عظمة . ولما أبى الزمان أن ينيله شيئاً من مطامحه ، راح
ينشد تحقق هذه المطامح في رجل يجمع المثالية والعظمة في
كف واحدة ، فكان سيف الدولة .

وواقع الحال أن سيف الدولة ، وإن أمد المتنبي بكثير من
معاني شعره ، فانه كان يقصر عن الرجل الخيالي الذي كان يضعه

أبو الطيب نصب عينيه ، فيعتمد الشاعر الى أتمام ما ينقص الأمير
من عنده ، حتى غدا سيف الدولة في شعر أبي الطيب الرجل
المثالي الذي لا ينقصه مظهر من مظاهر الكمال .

تظل ملوك الأرض خاضعة له تفارقه هلكى وتلقاه سجدا

وهو في هذه القصائد ، لا كما كان في واقعه ، بل كما أراد المتنبى
أن يكون . غنائه كثيرة ، وعطاياه للأصحاب والمحتاجين كثيرة أيضاً
وذكاؤه يفوق حد الذكاء ، حتى أن فؤاده ليرى اليوم ما ستراه
عينه في يوم غد . أما الإرادة والعزم فلا حدود لهما ، ولا عائق
يستطيع أن يعوقها عن بلوغ المستصعبات ، فلو كان قرن الشمس
ماء لأورد خيله أياه . ويعرض المتنبى بالدمستق وابنه وقد
خاضا ضد سيف الدولة حرباً ، فأسر فيها الابن وفر الأب ،
فكان الابن يائساً من حياته كأنه في يد الموت ، وأما الأب
فكأنه خلق خلقاً جديداً بعد أن رأى المنية بعينه .

ويمضي الشاعر في امتداح الأمير ، فيتحدث عن معاركه
واختصاره للبعاد ، وعن هزيمة أعدائه وفرار الدمستق ، واجتيازه
للمسوح تنكراً ، وقبوعه بالدير وترهبه .

ولو كان ينجي من علي ترهب

ترهبت الأملاك مثني وموحدا

وكل امرئ في الشرق والغرب بعده

يعد له ثوباً من الشعر أسودا .

ولعلك قد التفت الى المبالغات الواردة في هذا الشعر ، والى

التحويل والتعظيم والأبهة والضحيج ، يعمد اليها المتنبي ، ليلخلع على شعره إيجاء بالمواقف التي كان يقفها ، والصخب الذي كان يدور في صدره . والمتنبي نزاع الى المبالغات كلف بالصورة المهولة ، وذلك لسببين : أولهما ، أن المبالغات مستحسنة في الشعر ؛ وقديماً قيل : أجود الشعر أكذبه ؛ وثانيهما أن الشاعر طموح واسع الخيال كبير الآمال لا يروق له إلا المشهد العظيم كآماله ، المتوقد كأحلامه ، الصاخب صخب الحياة في صدر هذا الرجل ، من هنا كان اهتمامه بالصورة الملحمية ، وحببه لتصوير المعارك الحروب والبطولات والأهوال ، حتى أنك لا تجد قصيدة من قصائده في سيف الدولة الحمداني الا وفيها ومضة ملحمية . وما ننكر أبداً أن سيف الدولة في بطولاته وأعماله الكبار هو الذي أوحى الى الشاعر بمثل هذا الوصف المحمي . فلقد كانت الحروب لديه نزهة أو هواية كلما أراد أن يروح عن نفسه ، ركب جواده ، وقاد كوكبة من الفرسان الى حدود الروم ليحاربهم .

ويستمر الشاعر في مديحه ؛ فيهنئ الأمير بعيد الأضحى ، وفي الوقت نفسه يهنئ الناس بسيف الدولة ، فهو عيدهم الدائم ، يبتهجون به ابتهاجهم بالأعياد بل أكثر ، وسيف الدولة في الناس كيوم العيد في الأيام ، أغر محبوب ، مفضل . ويعجب الشاعر ، كيف كان الخليفة يتخذ من ابن أبي الهيثم سيفاً لدولته . أفما يخشى ان يكون سيفاً عليه . وكأنما يريد المتنبي بهذا القول ان يؤلب الأمير الحمداني على الخليفة وأن يطمعه بخلافة المسلمين . والذي نراه ، أن المتنبي يخلع على سيف الدولة مطامحه . ويعطيه من آماله وأهوائه . فهو ناثر على الحكم وعلى الحاكم ولكنه لا

يستطيع أن يحقق ثورته . وقد وجد في أمير حلب . الرجل
المقدّر الذي يصلح لأن يتبنى أحلام المتنبي . فراح يخلعها عليه .
والذي يمتاز به شعر هذا الرجل ، ومديحه بنوع خاص ، أنه
يشتمل على الحكمة يبدئها المتنبي هنا وهناك ، وهو مغرم بها غرامه
بالعظمة والتضخيم والمبالغات يضمنها مذهبه في الحياة ، وآراءه
في الناس وأنظمتهم وأعمالهم ، ويلونها بألوان من نفسه الأبية
المتردة ، ومن طموحه وثورته وتشاؤمه وفشله ، والمرارة
الأليمة التي كانت تحز في ذاته . انظر اليه وهو يمدح سيف الدولة
كيف يمدح للحكمة تمهيداً لبقاً رائعاً ، فاذا كل ما قبلها طرق
اليها تهود ؛ وكل ما بعدها هو عنها ناتج .

ومن يجعل الضرغام للصيد بازه
تصيده الضرغام فيما تصيدا
رأيتك محض الحلم في محض قدره
ولو شئت كان الحلم منك المهندا
وما قتل الأحرار كالعفو عنهم
ومن لك بالحر الذي يحفظ اليدا
إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

والممدوح في شعر المتنبي حلیم ؛ ذكي ؛ أبيّ ؛ شجاع . يدق
ما يفعله على الافكار وحكمته تفوق حكمة الناس كما فاقهم حالاً
ونفساً ومحتداً .

والملاحظ أن المتنبي ما مدح أنساناً إلا مدح نفسه معه . وما قبل الارض بين أيدي الممدوحين ولا هو تزلف لهم أو تذلل فقد كان فيه من الالباء والانفة ما جعله يترفع عن كل إنسان ؛ حتى عن الامراء الذين مدحهم . وها هو في مديح سيف الدولة يدل بنفسه عليه ؛ ويعرض بفضله ، ويفخر بشعره واعياً أن هذا الشعر هو خير ما أخرج للناس في فن المديح . وإنه لمن الروعة على جانب وفير قول هذا الرجل :

وما الدهر إلا من رواة قصائدي
إذا قلت شعراً أصبح الدهر منشداً

فسار به من لا يسير مشمراً
وغنى به من لا يغني مغرداً .

والحق أن الدهر سيظل ينشد للمتنبي أشعاره . وسيظل الناس يرددونها في سعادتهم وشقائهم . وفي حلهم وترحالهم . وإذا فخر أبو الطيب ، بلغ أقصى درجات العنجهية ، وتكبر وتعجرف وأعجب بنفسه إعجاباً لا نجد له مثيلاً إلا لدى المرضى من أصحاب الغرور . وما همنا في هذا المقام أن نبحث ذلك ونعلاه . ولكن همنا أن نبين خصائص المديح لدى هذا الرجل . ومدى تطوره على يديه . والذي يتدبر هذا الشعر يجد الى جانب ما ذكرنا من مزاياه سابقاً ، المزايا الآتية :

١ - في شعر الصبا ، وفي قسم من قصائد الشباب . كان المتنبي يقلد السابقين . فيقف على الاطلال ، ويصف الناقصة .

وينسب بمحبوبته . وكان يقلد أبا تمام بصورة خاصة . لأنه رأى فيه الاستاذ المفضل الذي يحسن بشاعر ناشئ يطلب الشهرة أن يتخرج على يديه . وعندما قوي ساعده استقل عن أستاذه وأصبح ينظم شعراً متنبئياً خالصاً . هو أكثر جودة من شعر أبي تمام . وأصبح يتوخى المطالع الفخمة الجليلة ؛ التي كثيراً ما كان يستهلها بحكمة إنسانية خالدة .

٢ - في مديح أبي الطيب جمع بين المذهبين اللذين تحدثنا عنهما في الفصل السابق . وكان يمثلها أبو تمام والبحتري . أما مذهب أبي تمام فيتجلى في الصناعة والوعي الكثير ، وإدخال الفلسفة في الشعر . وفي أريستوقراطية العبارة وأناقيتها . وأما مذهب البحتري ؛ فمداره الديباجة الحسنة والغناء الشعري . والعواطف الرقيقة ؛ وموسيقى اللفظ . وما من أحد مثل أبي الطيب ؛ استطاع أن يحقق هذه المعجزة . ويحشد في شعره أجمل المعاني واعمقها في أجمل الاشكال الشعرية وأنقها وأكثرها صفاء . وما كان عبثاً أن يقال : « وكأنما كانت غناية الشعر العربي ان يبلغ ابا الطيب المتنبي ليقف عنده » .

٣ - في مديح أبي الطيب تتجلى المثالية العربية في جميع مظاهرها . وتبرز معالم الشخصية الكاملة في ما كان يضيفه الشاعر على نفسه ويضيفه على ممدوحه . وكأننا بشخصية العربي كانت تتطور وتتسامى لتبلغ في كمالها ما بلغه سيف الدولة في شعر المتنبي .

٤ - لقد تكسب أبو الطيب ولكنه ما تذلل . مدح أناساً
كثيرين وما حنى رأسه لأحد منهم . وطلب المال بالشعر ؛ بل طلب
الملك بشعره أيضاً . ومع ذلك . فانك لا تجد في هذا الشعر ما
يشين المتنبي وما يحط من قدره . اللهم إلا تلك الكبرياء التي لم
تحدّها حدود .

ورب قائل يقول : أما تذلل لكافور ؟ إما نرى في قوله :
« ابا المسك هل في الكأس فضل أنا له » شيئاً من الذلة ؟

بلى ؛ ولكن كم هي الأبيات في ديوان المتنبي التي تحتوي على
مثل هذا المعنى ؟ وما مدى التذلل فيه ؟ لو رجعنا الى الظروف
التي قيل فيها هذا القول لوجدنا أن الدافع الحقيقي اليه ليس
تذلاً بقدرها هو انسحاق أمام الفشل الذريع الذي مني به
الشاعر . وأمام المرارة الأليمة التي كان يعانيها . وخيبة الآمال
التي طالما دغدغت فؤاده . وعاشت معه نحواً من نصف قرن .

٥ - ما مدح المتنبي أميراً إلا مدح نفسه . حتى بلغ به الأمر
مبلغ التعالي على الممدوحين . وها هو في مدح أبي العشائر
الحمداني يقول :

أنا ابن من بعضه يفوق أبا الباحث

والنجل بعض من نجله .

وليفخر الفخر إذ غدوت به

مرتدياً خيره ومنتعله .

وفي مدح سيف الدولة ، يصرح على مسمع من الناس جميعاً .

وعلى مرأى منهم :

سيعلم الجمع ممن ضم مجالسنا
بأنني خير من تسعى به قدم
أنا الذي نظر الأعمى الى أدبي
وأسمعت كلماتي من به صمم
أنا مملء جفوني عن شواردها
ويسهر الخلق جرّاهها ويختصم
كم تطلبون لنا عيباً فيعجزكم
ويكره الله ما تأتون والكرم
وما أبعد العيب والنقصان عن شرفي
أنا الثريا ، وذان الشيب والهزم
ويبلغ هذا التعالي أقصاه ، في مديح أبي الحسن الانطاكي
حيث يقول :

أبدو فيسجد من بالسوء يذكرني
فلا أعاتبه صفحاً وإهوانا
وهكذا كنت في أهلي وفي وطني
أن النفيس غريب حيثما كانا

٦ - كان المتنبي ذا ثقافة واسعة . واطلاع على معطيات
الفلسفة والعلوم فاراد أن يدخل بعضاً من مظاهر هذه الثقافة في
شعره وأتى المعاني العميقة من بعيد . فتناولها تناولاً لبقاً .
مبنيّاً على الملح ولكنه يغني عن كل تفصيل .

٧ - في مديح المتنبي نزعة دينية قومية تتجلى في حديث الشاعر عن معارك سيف الدولة وحروبه ضد الروم ؛ حيث يجعله بطلاً عربياً وبطلاً إسلامياً في آن معاً . فهو حامي الدين . وهو حامي ملك العرب .

٨ - وفي مديحه أيضاً ، عامل منطقي واضح . حتى ليغدو المنطق ظاهرة دائمة في شعر هذا الرجل .

٩ - لقد نجح المتنبي كثيراً في فرض شعره على الناس . وفي جعلهم يقفون حياله متأملين متحيرين ؛ يتساءلون عما أراد في أبياته ؛ ويعجبون بما يجدون طيها من صور ومعان ؛ ومبالغات وبراعة في استعمال الكلام العربي .

١٠ - لقد وثب المتنبي في فن المديح الى الذروة ، ولو أن المدائح بالوان الالباء والعزّة والعظمة ، وصفاء التعبير ، والمثالية الخيرة ، والشيم العربية الأصيلة ، والفكر الانساني الرحيب ، والثورة العارمة على الفساد والطغيان والضعف والتذلل .

انحدار فن المديح

لم يكن الشعراء المداحون ، الذين تعاقبوا عبر السنين الطويلة . منذ الجاهلية حتى أواخر العصر العباسي من مستوى واحد . ولم يكونوا جميعاً من المبدعين . ولكن شعر المديح كان على الرغم من ذلك يسير نحو الرقي حتى بلغ ذروته في منتصف العصر العباسي الثالث أيام المتنبّي والسريّ الرفاء والوأواء الدمشقي وغيرهم ؛ وكان المتنبّي أبرعهم في ذلك جميعاً . فما ان ولّى هذا العهد . حتى بدأ شعر المديح ينحط شيئاً بعد شيء . فلا تلتصق فيه إلا أسماء صغيرة ليس بين عطائها وعطاء العمالقة السابقين أية نسبة للمقارنة . فما أسباب ذلك ؟ من يتدبر شعر المديح . يجد أن ازدهاره يعود الى عوامل عديدة . هو يعود الى الشعراء الذين ينظمونه . فإن كانوا من العباقرة جاد ، وإن لم يكونوا كذلك أتى غثاً ثاقباً .

ويعود الى الحياة الفكرية عامة ، والأدبية بنوع أخص فعهد الرقي الفكري هو إجمالاً عهد ازدهار ورقّي في الأدب . شعره ونثره . ومنه شعر المديح .

على أن ظروف العصر السياسية والاقتصادية والاجتماعية لها أيضاً أثرها في توجيه شعر المديح . فالصراع السياسي ، ونشاط الحركات الحزبية يقويان هذا المديح . وازدهار الحياة السياسية في بلد من البلدان ينفح المديح ببعض نفحاته . وكذلك قل عن الحياة الاقتصادية . فهي منذ البدء حتى النهاية ، كانت دافعاً قوياً من الدوافع التي وجهت الشعراء نحو المديح .

أما النظم الاجتماعية والعادات ، وتقاليد القوم ؛ فواضحة آثارها في ما تدور المدائح حوله . وواضحة أيضاً في تكريس المديح تقليداً عربياً أصيلاً . وفي جعله ديواناً لفضائل القوم . وأخلاقهم الحميدة ، ومثلهم العليا ، وغاياتهم في الحياة . والذي لا ريب فيه ، أن تشجيع أولي الأمر للشعر . وإقبالهم على المدائح ، ورعايتهم لأصحابها ، أمور من شأنها أن تحقق للمديح ازدهاره . وكلما كان الممدوحون أفهم للشعر ، وأكثر تذوقاً له ، كان المديح أفضل وأرقى ، ناهيك باختلاف الشاعر لممدوحه ، وصدق شعوره وعاطفته نحوه ، وحببه الصحيح له وإعجابه به . فهذه الأمور جميعاً تزيد الشعر روعة ، وتثبت فيه ماوية الحياة ، وتساعد على إقامة المشاركة الوجدانية بين الشاعر وبين القراء والسامعين .

بقي أن نذكر من عوامل ازدهار المديح ورقية ، جوود الحياة بالرجال العظماء الذين يستحقون المديح ، ويشيرون قرائح الشعراء وإعجابهم بهم . ففي العهود التي يكثر فيها العظماء والرجال الماجدون ، أصحاب الأعمال المدهشة ، والبطولات

الرائعة ، والمآثر الخيرة والخدمات الجلّى ، يزدهر فن المديح
ويبلغ رقيّه .

أما العهود التي تضمن بالأبطال ، وبالمتفوقين من البشر ، فمدائحها
غثة متكلفة ضئيلة القيمة . وهذا ما حدث في أواخر العصر
العباسية . فلقد نضبت القرائح ، ونضبت المروءات ، وفقد
المجتمع الشعراء اللامعين ، والامراء الفاضلين . فما عاد لأمثال
المتنبى من وجود ، ولا لأمثال سيف الدولة أيضاً . وما عدت
ترى سوى أقزام في الشعر ، وأقزام في السيادة . أولئك يتملقون
ويتزلفون ، ويزورون القول ، فيسيئون تأليفه ، وهؤلاء يأتون
الدنيا ، ويتمرغون في حمات الجشع والظلم والاختلاس والرديلة .
وهذه هي حال المديح في آخر العصر العباسية وفي عهد
الانحطاط حتى مطلع العصر الحديث أضف الى ذلك ، ان هذا
المديح قد سيطر عليه الجمود ، وشلت فيه إمكانيات الابداع ،
وعمه التقليد . فأصبح الشعراء يذرعون في محيط ضيق من المعاني
والصور وفي معجم مرسوم من الالفاظ يدورون حوله ، وينتهون
دائماً الى حيث يبدأون كما قدور الرحى . وإنه ليندر أن تقع في
هذا الشعر على صورة مبتكرة ، أو على فكرة أصيلة ، واليك
نماذج منه .

من مديح ابن هانيء الاندلسي :

قال ابن هانيء يمدح الخليفة الفاطمي المعزّ لدين الله ويتحدث
عن مآتيه وحروبّه :

ما شئتَ لا ما شئتَ الأقدارُ
 فاحكمُ فأنتَ الواحدُ القهارُ
 وكأئنا أنتَ النبيُّ محمدُ
 وكأئنا أنصارُكُ الأنصارُ
 أنتَ الذي كنتَ تبشرنا به
 في كتبها الأخبارُ والأخبارُ
 هذا إمامُ المتقين ومن به
 قد دَوَّخَ الطغيانُ والكفارُ
 هذا الذي تُرجى النجاةُ بحبه
 وبه يخطُّ الإصرُ والأوزارُ
 هذا الذي تُجدي شفاعته غداً
 حقاً وتحمُدُ أن تراه النارُ^١
 من آل أحمدَ كلُّ فخرٍ لم يكن
 يُنمى اليهم ، ليس فيه فخار .
 كالبدْر تحت غمامة من قسطلٍ
 ضحيانُ لا يُخفيه عنك سرارُ^٢

١ - النار : جهنم .

٢ - القسطل : غبار الحرب . ضحيان : بارز للشمس . سرار : آخر
 ليلة من الشهر .

في جحفلٍ هَتَمَ الثنايا وقعه
 كالبحر فهو 'غطامط' زخّار¹
 غمرَ الرّعانَ الباذخاتِ واغرقَ
 القنن المنيعه ، ذلك التيّار²
 زجل³ يبرّح بالفضاء مضيقه
 فالسهل يمّ والجبال بحار³
 لله غزوتهم غداة فراقس⁴
 وقد استُشِبتْ للكرية ناره⁵
 والمستظل ، سماءه من عثير⁶
 فيها الكواكب لهذم وغرار⁷
 وكأن غيضات الرماح حدائق⁸
 لمع الأسنان بينها أزهار⁹
 وثمارها من عظم أو أيدع¹⁰
 ينع فليس لها سواه ثمار¹¹
 والخيّل تمرح في الشكيم كأنها
 عقبان صارة شاقها الأوكار¹²

-
- ١ - هتم : كسر . الغطامط : الزخار
 ٢ - الرعان : جمع رعن : انف يتقدم الجبل
 ٣ - زجل : مصوت
 ٤ - فراقس : اسم مكان . الكرية : الحرب
 ٥ - العثير : الغبار . اللهزم : القاطع .
 ٦ - العظم : نبت يصبغ به . الأيدع : الزعفران .
 ٧ - الشكيم : حديد اللجام . الصارة : جبل في بلاد العرب .

من كلَّ يَعبوبٍ سبوحٍ سلهبٍ
 حصُّ السَّياطِ عنانهِ الطَّيارُ^١
 لا يطَّيه غيرُ كَبَّةٍ معرِكٍ
 أو هبوةٍ من مَاقَطٍ ومغارٍ^٢
 سلطُ السَّنابِكِ باللَّجينِ مَخدَمٌ^٣
 وأُذيب منه على الأديمِ نضارٍ^٤
 وكأنَّ وفَرَته غداثُ غداةٍ
 لم يلقها بؤسٌ ولا إفقارٌ^٥
 وأحمُ حُلُكوكُ وأصفر فاقعُ
 منها وأشهبُ أمهقُ زهَّارٌ^٥
 يعقلن ذا العُقَّالِ عن غاياته
 وتقول أن لن يخطر الأخطارُ^٦
 مرت لغايتها فلا والله ما
 علقت بها في عدوها الأبصار

١ - اليعبوب : السريع . السلهب : الطويل . الحص : من سقط شعره .

٢ - يطَّيه : يستميله . الكبة : دفعة من الخيل الهبوة : الغبار . الماقط : المضيق .

٣ - سلط : حاد ، المخدم : فيه بياض في اسفل قائمته .

٤ - الوفرة : شعر الرأس .

٥ - احم : اسود : أبهق : أبيض .

٦ - ذو العقال : فعل من خيول العرب .

وجرت فقلت 'أسابح أم طائر
 هلا استثار لوقعهن' غبار
 من آل أعوج والصريح وداحس
 فيهن' منها ميسم ونجار^١
 وعلى مطاها فتية شيعية
 ما إن لها إلا الولاء شعار^٢
 من كل أغلب باسل متخمط
 كالليث فهو لقرنه هصار^٣
 قلق إلى يوم الهياج مغامر
 دم كل قتل في ظباه جبار^٤
 إن تحب نار الحرب فهو بفتكه
 ميقادها مضرامها المغوار^٥
 فأداته فضفاضة وتريكة^٦
 ومثقف ومهند بتار
 أسد إذا زارت وجار ثعالب
 ما إن لها إلا القلوب وجار

١ - أعوج والصريح وداحس : خيول عربية .

٢ - مطاها : ظهرها .

٣ - المتخمط : المتكبر .

٤ - القيل : الملك .

٥ - تحبو : تنطفيء .

٦ - فضفاضة : صفة للدرع - التريكة : بيضة الحديد .

حفثوا برايات المعزِّ ومن به
 تستبشر الأملاك والأقطار
 هل للمستق بعد ذلك رجعة
 'قضيت' بسيفك منهم' الأوطار
 أضحوا حصيداً خامدين وأقفرت
 عَرَصاتهم وتعطلت آثار
 كانت جناناً أرضهم معروشة^١
 فأصابها من جيشه إعصار^٢
 أمسوا عشاءَ عروبة في غبطة
 فأناخ بالموتِ الزؤامِ شيار^٣
 واستقطع الخفقانَ حبَّ قلوبهم^٤
 وَجَلَا الشرورَ وحلَّت الأدعار^٥
 صدعت جيوشك في العجاج وعانشت^٤
 ليلَ العجاج فوردها إصدار^٤
 ملأوا البلادَ رغائباً وكتائباً
 وقواضباً وشوازباً إن ساروا^٥

١ - معروشة : مرفوعة على الخشب .

٢ - العروبة : يوم الجمعة . شيار : يوم السبت .

٣ - الادعار : المفاصد .

٤ - عانشت : عانقت .

٥ - الشوازب : الخيول الضواجر .

وعواطفاً وعوارفاً وقواصفاً
 وخوائفاً يشتاقها المضمار^١
 وجداولاً وأجادلاً ومقاولاً
 وعواملاً وذوابلاً واختاروا^٢
 عكسوا الزمانَ عوائثاً ودواخناً
 فالصبح ليل والظلامُ نهار^٣
 سفروا فأخلتْ بالشموس جباههم
 وتمعجرت بغمامها الأقمار^٤
 ورسوا حجى حق استخيف متالع^٥
 وهموا ندى فاستحيت الأمطار^٥
 وتبسّموا فزها وأخصب ماحل^٥
 وافتر في روضاته النّوار^٥
 واستبسّلوا فتخاضع الشّم الذرى
 وسطوا فذلّ الضيغم الزّوار
 أبناء فاطم هل لنا في حشرنا
 لجأ سواكم عاصم ومجار

-
- ١ - الخوائف : التي تيل برأسها نحو راكبها .
 ٢ - الاجادل : الصقور . المقاتل : الملوك : العوامل : الرماح .
 ٣ العوائث : جمع عثان ، وهو الغبار .
 ٤ - تمعجرت : التفت وتغطت .
 ٥ - الحجى : العقل . متالع : جبل .

أنتم أحبّاء الإله وآله
 خلفاؤه في أرضه الأبرار
 أهل النبوة والرسالة والهدى
 في البيّنات وسادة أطهار
 والوحي والتأويل والتحريم والته
 حليل لا خلف ولا إنكار
 إن قيل من خير البرية ؟ لم يكن
 إلاكم خلق إليه يشار
 لو تلمسون الصخر لانبعجت به
 وتفجّرت وتدفقت أنهار
 أو كان منكم للرّفات مخاطب
 لبثوا وظنوا أنه إنشار
 لستم كأبناء الطليق المرتدي
 بالكفر حتى عضّ فيه إيسار
 أبناء نثّة ما لكم ولمعشر
 هم دوحه الله الذي يختار
 ردّوا اليهم حقهم وتنكبّوا
 وتحملّوا فقد استعجم بوار^٢

١ - انشار : احياء

٢ - تنكبوا : تجنّبوا : ارتحلوا . استعجم : اشتد .

وَدَعَا الطَّرِيقَ لِفَضْلِهِمْ فَهَمَّ الْأَلَى
لَهُمْ بِمَجْهَلَةِ الطَّرِيقِ مَنَارُ
كَمْ تَنَهَضُونَ بَعْبٍ عَارٍ وَاصِمٍ
وَالْعَارُ يَأْنَفُ مِنْكُمْ وَالنَّارُ
يُلْهِمُهُمْ زَمْرُ الْمَثَانِي كُلِّهَا
أَلْهَاكُمْ الْمُثْنِيُّ وَالْمِزْمَارُ^١
أَمْعَزَ دِينَ اللَّهِ إِنْ زَمَانَنَا
بِكَ فِيهِ بَأَوْ جَلَّ وَاسْتَكْبَارُ^٢
هَا إِنْ مَصْرَ غَدَاةَ صَرَتْ قَطِينَهَا
أَحْرَى لَتَحْسُدَهَا بِكَ الْأَقْطَارُ
وَالْأَرْضُ كَادَتْ تَفْخَرُ السَّبْعَ الْعُلَى
لَوْلَا يُظْلِكُ سَقْفَهَا الْمَوَّارُ^٣
وَالدَّهْرُ لَازَ بِحَقْوَتِكَ وَصَرْفُهُ
وَمَلُوكُهُ وَمَلَائِكُهُ أَطْوَارُ^٤
وَالدَّوُّ وَالظُّلْمَانُ وَالذُّؤْبَانُ
وَالْغَزْلَانُ حَتَّى خِرْنِيقٍ وَفَرَارُ^٥

-
- ١ - الزمر: آله من قصب ينفخ فيها فتصدر اصواتاً موسيقية - المثنائي: جمع مثنى: وهو ما بعد الاول من اوتار العود.
٢ - بأو: فخر.
٣ - الموار: المتحرك.
٤ - الحقوة: الخصر. لاذ بحقوتيك: استجار بك.
٥ - الدو: الفلاة. الظلمان: جمع ظليم: وهو ذكر النعام. الذؤبان: جمع ذئب. الخرنق: الصغير من الارانب. الفرار: ولد النعجة أو المعزاة.

شرفت بك الآفاقُ وانقسمت بك
الأرزاقُ والآجالُ والاعمارُ
عطرت بك الأفواهُ إذ عذبت لك
الأمواهُ حين صفت لك الأكدارُ
جلت صفاتك أن تُحدَّ بمقولٍ
ما يصنع المصداقُ والمكثارُ
والله خصك بالقرآنِ وفضله
واخجلني ما تبلغ الأشعارُ .

أرأيت الى هذا الشعر كيف يعمد الى المبالغات الفجة حتى
يصل الى حدٍّ يسمئز الناس منه ؟ فهو تارة يجعل الممدوح كالله في
مشيئته ويستعير له صفات الله من القرآن ، فاذا هو الواحد
القهار . وطوراً يجعله كالنبي محمد ، مرسلاً تدعمه الانصار وتخير
عنه كتب الاحبار والახبار .

كذب وخداع وتلفيق للقول وتكسب خال من الضمير ومن
كرامة النفس . إن مثل هذا الشعر ليسيئ الى المجتمعات والى
الأنظمة والى الأدب نفسه . يسيئ الى المجتمعات لأنه يضلها
ويخدعها ولا ينقد ما فيها من فساد ومن خضوع لحكام طغاة
أخساء . ويسيئ الى الانظمة لانه يتملق الممدوح ولا يظهر عيوبه
ولا يدعوه الى نظام عادل في الحكم وان تغنى بذلك ونسبه اليه .
والممدوح يطمع كلما سمع كلاماً من هذا النوع . فمن ذا الذي
يوقفه عند حد اذا كان ابن هانئ يقول ، افعل ما شئت واحكم

كما تريد فانت ظل الله على الارض وإرادتك من مشيئته وإرادته؟
أما إساءته الى الأدب فتتجلى في وصم هذا الأدب والانصراف
به عن حقيقته فما كان الأدب في يوم من الايام معيناً للفساد
والطغيان ، ولكنه في جوهره حرب على ذلك ، وإصلاح لكل
ما يحتاج الى إصلاح .

ويمضي الشاعر في تعداد الفضائل ملصقاً إياها بمدوحه ،
مقلداً الفرزدق في مديحه لزين العابدين ، حفيد الامام علي حيث
يقول :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته

والبيت يعرفه والحل والحرم

هذا ابن خير عباد الله كلهم

هذا التقى النقي الطاهر العلم

هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله

يجده أنبياء الله قد ختموا .. الخ

ولا يكتفي ابن هاني باقتباس الصورة من الفرزدق ، بل
يقتبس المعاني أيضاً ، فاذا الممدوح إمام المتقين ، يقضي على الكفر
والطغيان ، وبه يعتصم الناس ويتبركون ويرجون النجاة بحبه .
ثم يجمع ابن هاني كل ما قيل من أساطير حول أعمال الأولياء
والصالحين فيسندها الى ممدوحه ، مغاليا ويسند اليه أعمال
البطولات ، وصفات الفرسان الامجاد .

ويتحدث عن قيادته لجحافل كأنها البحار في عظمها وتحركاتها ،

ويصف اجتيازها للأعالي ، وضجيجها الذي يملأ الفضاء ، وبلاءها في الحرب ، وغبار المعارك التي خاضتها ، وأسلحتها وخيولها مسهبا في وصف الخيول حتى يبلغ حديثه عنها دزينة من الابيات . وينتقل بعد ذلك الى وصف المحاربين في جيش المعز ، فهم فتية متشيعون للامام علي مؤمنون بعقيدتهم ، شجعان أكفاء كأنهم الليوث ، يضرمون نار الوغى ، ويتدججون بالاسلحة ؛ ويكسرون شوكة الأعداء ويحاربون الروم ودمستقهم ؛ ويحصدون رؤوس الرجال حصدا .

ويسهب الشاعر في وصف هؤلاء الفرسان ، حتى يستغرق وصفهم نيفاً وعشرين بيتاً ، ليتخلص الى مدح آل المعز من الفاطميين ، وهم آل الله ، ويتغنى بنسبهم وانحدارهم من نسل محمد خير البرية ، وبحقهم في الحكم وخلافة المسلمين . ويختتم ابن هانيء حديثه ، مخاطباً المعز لدين الله فيجعل له موطن الفخر ، به تباهي الأرض كواكب الكون ، وبه يلوذ الزمان ، والبحار تشهد له ، والجبال تشهد له أيضاً ، والآفاق تزهى به وتقيه ، وصفاته الحميدة لا يبلغها ظن ولا يستوعبها مديح . وهو ظل الله على الأرض اختاره ربه ليكون هدياً لهذه الامة .

ولعلك غير غافل عن الاسراف في استخدام الغريب طي هذه القصيدة . حتى لا يكاد يخلو بيت من لفظة غريبة ، مثل : غطامط وغمر الرعان ، والعثير ، واللهدم ، والعظم ، والايديع ، ويعبوب ، والكبة ، والحصن والمأمط والحلكوك ، والمخدم ،

والمتخبط ، والعروبة ، والسيار ، وعانشت ، وتمعجرت ... الخ .
أو لعلك أيضاً قد لاحظت إسرافه في الصناعة والبهلوانية اللفظية .
كقوله :

ملأوا البلاد رغائباً وكتائباً
وقواضباً وشوازباً أن ساروا
وعواطفاً وعوارفاً وقواصفاً
وخوانفاً يشتاقيها المضار
وجداولاً وأجادلاً ومقاولاً
وعواملاً وذوابلاً واحتاروا

هذا بالإضافة الى الركاكة ، والسطحية ، واجترار المعاني
القديمة ، وغثاثة الشعر وجفافه ، وخلوه من ماوية الصدق في
الشعور وفي الاكبار . أو ليس هذا المديح انحداراً عما رأيناه
عند جرير وأبي تمام والمتنبي وسواهم ؟

والذي يتتبع هذا الفن في عصر الانحطاط ، يجد انه قد
استمر في انحداره وتحول الى ضرب من التقليد الذي لا أثر فيه
لأي مظهر من مظاهر الخلق الأدبي . فابن الوردي مثلاً وابن
نباته وابن حبيب الحلبي وصفاء الدين الحلبي وبطرس كرامة ،
لم يكن لهم هم في مدائحهم إلا أن يزحفوا وراء الاقدمين ،
مستخدمين تعابيرهم وصورهم ومعانيهم استخدماً اعتباطياً إن
دل على شيء فانما يدل على جذب القريحة وفقدان كل إمكان للعطاء
الجميل . في هذا العصر أصبح الأدب رصفاً للكلام المزوّق ،

ولعباً بالالفاظ كلعب المشعوذين وأصبح فن المديح
محشداً للتكلف والغشائة والركة ، وللتملق الدنيء ورديء
التكسب .

أما عصر النهضة ، فانه لم يحفل بالمديح كما كان القدماء يحفلون
به ، ولكنه لم يعدم شعراء قد تعاطوا هذا الفن ، منهم من سار
على خطى الاقدمين في التقليد ، فجاء شعره غير ذي قيمة ، ومنهم
من نفح مدائح بنفحات تجديدية مستمدة من روح العصر ، ومن
الاصالة الفردية في ذات الشاعر . وأبرز اسم في هذه المجموعة هو
من غير ارتياب اسم أحمد شوقي .



فهرس

صفحة

٥	فن المديح
١٤	المديح في الشعر العربي
٢٨	المديح مدرسة اخلاقية
٣٦	التكسب بالمديح
٥١	المديح في الجاهلية
١٠٩	المديح في عهد النبوة والراشدين
١٤١	المديح في العصر
١٩٣	المديح في عصر بني العباس
٢٧٥	انحدار فن المديح
١٩١	الفهرس

الفنون الأدبية عند العرب

سلسلة جديدة تناول الأدب العربي ، وتقسمه
بحسب فنونه ، متوفية الكلام في كل فن على حدة من نشأته
حتى اليوم .

وهي طريقة استقرائية حديثة اتبعت في البيئات
الجامعية أولاً ، ثم شاعت بين الدارسين ، وأصبحت
واحدة في صلب المنهج المدرسي في لبنان مثلاً . وإن
دراسة الفنون وفق هذه الطريقة تفيد أكبر الفائدة
إذ تتيح لنا أن نتبع ظواهر نشأة كل فن ومراحل تطوره
بحسب تسلسله في الزمان وتنقله في المكان ، كما تمكننا
بطريقة جمع النماذج التي دارت حول فن ما من فنون
الأدب أن نتصل بالنصوص ونتعرف طريقة معاناتها
فندرك نقط الالتقاء ونقط التباعد بين أديب وأديب
وشاعر وشاعر . فضلاً عن فوائدها الأخرى كثيرة أهمها
معرفة ما إذا كان الأدب العربي قد استوفى الفنون
الأدبية المعروفة عند الغربيين أم قصّر عنها ...

منشورات دار الشروق الجديد - بيروت

الثلثين { ٣٠٠ ق. ل
٣٥٠ ق. س